

العميد الركن نزار أبو سعيد



جذور الشبهات

قراءة في حركات الخوارج



العميد الركن

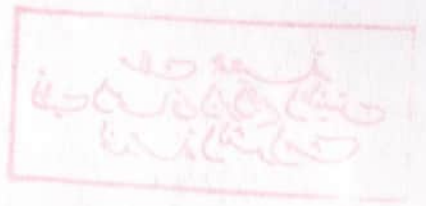
نزار البوسعيد

جنود الشبهات

قراءة في حركات الخوار

جنود الشبهات

قراءة في حركات الخوار



نحوها مليصعا

ليصعها بان

جذور الشبهات *
قراءة في حركات الخوارج

* العميد الركن نزار البوسعيد

* الطبعة الأولى ١٩٩٦

* جميع الحقوق محفوظة/ دار البراق . لندن

* التوزيع: دمشق . ص.ب: ٤١٧٣

هاتف: ٦٦٦٩٧٨٦

* تصميم الغلاف: طالب الداود

٢٨	
١٠١	
٧٠١	
٨٠١	
٦١١	
٨١١	
٦٢١	
٦٦١	
١٣١	
٧٣١	
٧	المقدمة
١٣	صفي
٢١	رفع المصاحف
٢٣	التحكيم
٢٩	بدء أمر الخوارج
٣٣	عودة جيش الامام علي(ع) من صفي
٣٧	تطور حركة الخوارج
٤٥	معركة النهروان
٤٩	ذو الثدية
٥٥	دروس من معركة النهروان
٥٩	خلاف أهل العراق وطاعة أهل الشام
٧١	تطور حركة الخوارج
٧٧	آراء في الخوارج
٨٣	الخوارج بعد عصر الخلافة الراشدة
٨٧	حركات الخوارج في الدولة الأموية

٨٩		المرحلة الأولى
١٠١		اختلاف الخوارج
١٠٧		نجدة بن عامر الحنفي
١٠٩		نافع بن الأزرق
١١٣		المهلب بن أبي صفرة وحرب الخوارج
١١٩		قطري بن الفجاءة
١٢٣		الحجاج والخوارج
١٣٣		شبيب الخارجي
١٤١		الخوارج حتى سقوط الدولة الأموية
١٤٧		اضطراب الدولة الأموية وخروج الضحاك بن قيس الشيباني
١٥٣		أبو حمزة الخارجي
١٥٧		الخوارج في الدولة العباسية
١٦١		الحركات العسكرية للخوارج في الدولة العباسية
١٦٣		طائفة ممن خرج بعد الملبد
١٦٥		الوليد بن طريف الشاري
١٦٩		طائفة ممن خرج بعده
١٧٣		مساور الخارجي
١٧٩		صاحب الزنج ونسبته الى الخوارج
١٨٧		الخوارج في افريقيا
١٨٩		حركة الخوارج.. التطور الفكري والفلسفي
١٩٩		الأباضية
٢٠٣		فرق الخوارج

..... ٧٧

..... ٦٨

..... ٧٨

المقدمة

بعد حروب طاحنة جرت أحداثها على حدود العراق والشام بين القيادة الشرعية التي يمثلها الامام علي(ع) الخليفة المنتخب بشكل لانتشوبه شائبة وبين حاكم إحدى الولايات الذي عزلته القيادة الجديدة - معاوية - وبعد ان بلغ الحق مقطعه وكادت الحرب ان تنجلي عن هزيمة الطرف المتمرد. رُفعت المصاحف على رؤوس الرماح من قبل معاوية واتباعه طالبين تحكيم كتاب الله في الخلاف الذي أدى الى الحرب وكان معاوية قبل ذلك قد رفض كل الوساطات والحلول التي كان من شأنها ان ترأب الصدع الجديد في جسم الدولة الفتية - بعد أن هزتها حرب الجمل التي ماكادت تضع أوزارها - وتمسك بمطالبه التي تتلخص بالطلب بدم الخليفة المقتول عثمان ولم تكن هذه المطالب إلا خدعة الصبي عن اللبن فالرجل كان يسعى بخطوات مدروسة الى الحكم وقد وجد في مقتل عثمان الفرصة الملائمة لإظهار خلافه واتهام الامام علي بالممالة على قتله وقد استطاع اقناع معظم أهل الشام بذلك وكان قبلها قد وطّد أموره في الشام واجتذب أفئدة أهلها بمختلف الأساليب تمهيداً للمرحلة المقبلة، ولو استعرض باحث منصف سيرة العائلة الأموية وتنافسها مع بني هاشم منذ العصر الجاهلي مروراً ببداية البعثة النبوية الشريفة وحتى انتصار الاسلام وتثبيت اركانها وانشاء كيانه السياسي لوجد

ان خلاف معاوية يسير بالنسق الصحيح مع طبيعة التفكير الأموي التي ترى أن الأمر كله لا يعدو المنافسة على السلطة والجاه، وقد استمرت هذه النظرة في الواقع حتى سقوط الدولة الأموية، وكان من الطبيعي ان يُحدث رفع المصاحف في الساعات الحرجة خلافاً بين صفوف جيش العراق خاصة - لاسباب سنينها لاحقاً - وكان هذا ماخطط له وأعدّه وزير معاوية الأول عمرو بن العاص الموعود بحكم مصر في حالة النصر، ووقع الخلاف وتداخلت الأحداث وتبدلت المواقف داخل جيش العراق بسرعة ثم تمخضت عن قبول الامام علي للتحكيم مضطراً وظهور فرقة الخوارج التي كان جُلُّ افرادها من القراء، ورغم ان ظهور تيار ديني / سياسي أطلق عليه فرقة الخوارج لم يكن بعيداً عن تأثير الأحداث السياسية التي بدأت منذ الثورة على الخليفة الثالث عثمان ومقتله على أيدي الثوار ومن ثم اجبار الامام علي على المبايعة تحت ضغط مصلحة الأمة وعصيان طلحة والزبير وانهاء حركتهما في معركة الجمل وعصيان معاوية منذ الأيام الأولى لتولي الامام علي للخلافة إلا أن احداث الساعات الحرجة الأخيرة في معركة صفين قد انضجت هذا التيار فلم يسبق في تاريخ الخلافة الراشدة - فيما عدا احداث التمرد على الخليفة الثالث - ان واجهت جماهير غاضبة قائدها لتطلب منه الرضوخ لرأي يكرهه ويرى انه خدعة ولا مصلحة للمسلمين فيه، وعندما يقبل مكرها وتحت التهديد يتبدل موقف المخالفين تماماً وليطلبوا وتحت التهديد ايضاً ان يغير القائد موقفه - بعد أن أعطى العهد والميثاق - وقد رفض الامام علي(ع) الرجوع عن عهده وان كان يرى انه أجبر عليه، لقد رفض الامام التحكيم منذ اللحظات الأولى وقد حاول جهده ثني المخالفين عن رأيهم ولكنهم اصرروا عليه وقد اشهدهم على كلامهم، وبين القبول والرفض والتي كان يحرك مسيرتهما من وراء الستار - كما سنرى - جهات ترى في مصلحتها انهيار الخلافة.. وهكذا ولدت حركة الخوارج التي اصبحت اشد خطراً على النظام السياسي المتمثل بالخلافة من عصيان معاوية وان كانت ولادتها احدى إفرازات العصيان.

لقد كان خطر الخوارج يتمثل في تطرفهم ووجودهم بين ظهرائي اصحاب

الامام علي وفي عاصمة الخلافة في الكوفة وقد توجت هذه الحركة اعمالها باغتيال الامام علي(ع) ومن ثم تقويض دولة قامت على أثرها دولة أخرى مختلفة الى حد بعيد في اتجاهها الفكري ونظرتها الى الاسلام وشرائعه ونظام الحكم فيه والذي كان متبعاً في زمن الخلافة الراشدة والذي يعتمد على مبايعة أهل الحل والربط من الأنصار والمهاجرين وقد أرسى نظام الحكم الجديد الذي اتبع اسلوب (ولاية العهد) للاحتفاظ بالسلطة ضمن الأسرة الحاكمة سنناً أخذت بها الدول التي أعقبتها ولا زالت هذه السنن متبعة حتى يومنا هذا. ان رفع المصاحف وطلب التحكيم هو الذي ادى بتداعياته الى نشوء هذه الحركة واستفحال أمرها، ويبدو أن الخوارج الذين ضغطوا على الامام علي ليقبل بالتحكيم وتطرفوا بضغطهم وبدلوا خلال ساعات موقفهم فرفضوا التحكيم وتطرفوا في رفضهم ولم يكونوا على استعداد لقبول أي حل يحفظ للأمة وحدتها وللشرعية حرمتها ولم يكونوا - كما يبدو من سيرتهم - ليأبهوا بآراة الدماء او تمزق الصف الاسلامي، ان النظرة الضيقة وعدم وجود البعد الاستراتيجي الذي يتعلق بما يتركه الشقاق والقتال على مصير الأمة كان سمة واضحة لتصرفات الخوارج الذين كانوا يتأولون القرآن الذي لم يكن يفارق السننهم ولكنهم أخذوا منه ظاهره وتشبثوا بنصوص منه وغادروا أخرى تعارض أفكارهم حتى وصلوا - جراء تعنتهم - وعوامل أخرى - الى أن يكونوا سبباً في انهيار الدولة الراشدة، إلا أن الأنظمة التي ساهموا في وجودها كانت وبالأعلى عليهم فقد حاربتهم حرباً لا هوادة فيها وتعقبته في كل فج وقتلتهم على الظن والتهمة ولم يكن للولاء هم غير استئصالهم وكان الامام علي قبل هذا يرى موادعتهم إلا أن يأتوا ذنباً يوجب محاربتهم شرعاً.

بعد أن تم اغتيال الامام علي(ع) على أيدي الخوارج وتولي معاوية السلطة رفع الخوارج شعار محاربة (الامام الجائر) والخروج عليه بالسيف وكانوا ابد الدهر خارجين على السلطان، ولقد اختلف المسلمون في موضوع الامام الجائر والخروج عليه او اطاعته وقد انعكس هذا الخلاف - الذي كان نابعاً عن عوامل عديدة -

على حياة الامة الاسلامية حتى يومنا هذا، فالخوارج يرون - من خلال مقالات مجتهديههم - الخروج على الامام الجائر بالسيف وجعلوا الخروج فرعاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - شرط المنعة والقدرة - ولكنهم كانوا يبالغون في تقييم هذا الشرط ويشتطون اعتزازاً بأنفسهم، ويمكن الرجوع الى اقوال عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوق بن زهير ونافع بن الأزرق في هذا الصدد، أما المعتزلة فقد ذهبوا الى وجوب الخروج على ائمة الجور ووجوب نصرة الخارجين عليهم، وأما الشيعة فإن ثوراتهم المستمرة على أئمة الجور تنبيك بخبرهم واجتهادهم في هذه المسألة إذ أنهم يرون أن الحاكم المسلم إذا ارتد عن الاسلام وجب الخروج عليه إذ لاطاعة المخلوق في معصية الخالق. كما يرون أن إباحة المجمع على تحريمه كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع مالم يأذن به الله كفر وردة يوجب الخروج بالسيف^(١)، وأما الظلم والمعاصي فيجب ارجاع الحاكم عنها مع بقاء امامته وطاعته في المعروف دون المنكر وإلا خلع ونصب غيره، أما أهل السنة فقد اختلفوا في ذلك، فأحمد بن حنبل يقول بالسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين - البر والفاجر - ومن ولي الخلافة فاجمع الناس عليه ورضوا به ومن غلبهم بالسيف ويسمى أمير المؤمنين^(٢).

وقد ذهب أكثر أهل السنة الى حرمة الخروج ولكن (أبو حنيفة) النعمان بن ثابت يرى الخروج بالسيف على الامام الجائر وقد نقل المؤرخون عنه أنه قال عند خروج زيد بن علي على هشام بن عبد الملك - منكرًا للجور - أن خروجه - أي زيد - كخروج رسول الله(ص) يوم بدر واعتذر عن الخروج معه لودائع كانت للناس عنده وكان يحرض الناس على نصرة زيد ولعل رأي هذا جاء من خلال تأثره بأفكار الامام جعفر الصادق(ع) عندما بقي بين يديه لمدة سنتين طالباً للعلم، ولكل هذه المذاهب احاديثه وأدلته في تصويب رايه ولكن النفس البشرية وطبيعة وجوه الدين - كما أراها - لاتقر الظلم ولا الخضوع للظالم كما إن

(١) بحوث في الملل والنحل ٥ / ٤٢٨ .

(٢) ذكره الإمام أبو زهرة في تاريخ المذاهب الاسلامية ٢ / ٣٢٢ .

الاسلام لا يمكن أن ينتشر - على حقيقته - إلا على أيدٍ عادلة تتورع عن مخالفة تعاليمه - إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن خلال هذه المسألة الشائكة تبرز أسئلة مهمة لها علاقة أكيدة بحاضر امتنا وما يجري على سوحها من أحداث جسام ومن هذه الاسئلة - على سبيل المثال - تحديد الحاكم الظالم وهل تجوز محاربته في حالة مواجهة الأمة لعدو خارجي يشكل خطراً أكيداً على وجودها أي تهديد ببيضة الاسلام على حد التعبير الفقهي وما هي الوسائل التي تتبع لازالة الحاكم الجائر وهل أن استعراض الناس وقتل البريء سبيل صحيح ومقبول شرعاً؟ وما هي الفواصل بين انصار السلطان الذين يعينونه على ظلمه وبين من يجبره السلطان على المrapطة في دفاعاته ويستخدمه في حماية سلطانه وهل ان كل المسلمين مكلفون بالخروج وما هي الحدود التي ينبغي ايقاف هذا الحاكم عندها...

لقد اتبع الخوارج اسلوبهم الخاص وخطبوا خطب عشواء وكانوا كحاطب ليل فقد أخذوا البريء بالذنب - كما فعل الولاة الذين حاربوهم - وتطرفوا الى ابعد الحدود فاستحلوا قتل النساء والصبيان واعتبروا - في معظمهم - جمهور المسلمين كفرة لايقبل منهم سوى الاسلام (على رأي الخوارج) او القتل ولم يميزوا بين الظالم والمظلوم حتى اصبحوا في نظر جمهور المسلمين في العراق خاصة متساوين في العنف والقسوة مع الحكام الطغاة ان لم يتفوقوا عليهم في بعض ما أقدموا عليه، ولقد أوقع الخوارج أنفسهم في خطأ تاريخي نتيجة تطرفهم إذ انهم فقدوا تأييد القاعدة ومن ثم سهّلوا أمر محاربتهم والقضاء عليهم. كان الخوارج يظهرن النسك والتمسك بالعبادات التي فرضها الدين الحنيف ولكن الشريعة الاسلامية حرمت قتل النفس بغير حق أو سبب حددته الشريعة ومن فعل ذلك فقد قتل الناس جميعا كما عبر القرآن الكريم عن ذلك^(١). وكان تطرف الخوارج سبباً في النهاية لاضمحلالهم ونهايتهم كحركة فكرية إذا استثنينا فرقة الاباضية التي طورت نفسها بعيداً عن الانعزال الكلي عن باقي الفرق الاسلامية وطوعت افكارها لتنسجم مع المذاهب الاسلامية الأخرى وان بقيت فيها رواسب

لا يقرها جمهور المسلمين كما سنرى. على أن الأباضية في عصرنا هذا لا يقرون أنهم من الخوارج، وينبغي لنا أن نقر أن الخوارج استطاعوا خلال المراحل الأولى لحركتهم اجتذاب عدد من الفقهاء المعروفين ورواة الحديث كما يحدثنا التاريخ ولعل دافع هؤلاء احساسهم بفداحة الظلم الذي يمارسه الولاة وابتعادهم عن الشريعة الاسلامية مما جعلهم يشجعون اي تحرك لاسقاط هؤلاء الولاة.

ان حركة الخوارج تعتبر من أهم وخطر الحركات في الصدر الأول للاسلام ويبدو تأثيرها في تطور الحكم الاسلامي واضحا واستمرت هذه الحركة في مقاومتها حتى وقت متأخر من تاريخ الدولة العباسية وامتدت أفكار الخوارج لتشمل معظم الأقطار الاسلامية واستطاعت في عدة مراحل ان تؤسس دولا في شبه الجزيرة العربية وفي شمال افريقيا ومن هنا تبرز أهمية التاريخ الحقيقي للخوارج لأن التاريخ سيظل مدرسة مفتوحة للتعليم بل ان تفسير احداث الحاضر واستشراف المستقبل مرهون بقراءة الماضي قراءة صحيحة بعيدة عن التحيز والرأي المسبق ولا أعتقد أنني بحاجة الى توضيح ماتعانيه الامة الاسلامية في وقتها الراهن من أزمات ومشاكل مصيرية فيها الكثير من الشبه باحداث الماضي وهذه علة دفعتني لاعادة كتابة تاريخ الخوارج ومن الأسباب الأخرى التي جعلتني أفكر في هذا الجهد عزوف العديد من المتعلمين عن قراءة التاريخ بل ان هناك اعراضاً عن الاطلاع على التراث ومعرفة التيارات الفكرية والحركات السياسية التي رافقت تطور الدولة الاسلامية والاسباب التي أدت الى ظهور الدول التي تلت الخلافة الراشدة وسقوطها وقد اكتشفت في أحيان عديدة أن البعض ينظر الى التراث بشيء من التجني واللامبالاة ولا يخفى تأثير ذلك في مجمل المسيرة الحضارية للأمة وخاصة في العلوم والفن والأدب.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في تسليط الضوء على بعض الجوانب التي لاتزال مبهمه من تاريخ هذه الحركة، واوجه جزيل شكري لكل من قدم لي يد المساعدة في اكمال هذا الجهد البسيط. والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

صفين

في صفين؛ التي تقع على الفرات ما بين اعالي العراق، وبلاد الشام؛ التقى جيش الخلافة الشرعية، التي يمثلها الامام علي(ع) في مائة ألف أو يزيدون، وجيش معاوية وأتباعه من أهل الشام، الذين رفضوا اطاعة السلطة الشرعية المنتخبة وأعلنوا العصيان، وكان جيشهم يزيد على المائة وثلاثين ألفاً^(١).

وكان أغلب أصحاب الامام علي(ع) من القراء الذين تفقهوا في الدين وبينهم معظم من بقي حياً من أصحاب الرسول(ص) وفيهم أكثر من سبعين بدرياً، كانت الجراح لما نزل تنزف من حرب الجمل التي وقعت في البصرة عام «٣٧» للهجرة، والتي كانت أول وقعة بين المسلمين سببها تمرد طلحة والزبير، اللذين سبق لهما أن بايعا الامام علي(ع) في المدينة ثم نكثا وخرجوا بأمر المؤمنين عائشة يطلبون - كما زعموا - بدم الخليفة المقتول، عثمان بن عفان، وقد كلف اخماد هذه الفتنة الاف القتلى من المسلمين.

أرسل الامام(ع) الذي كان جاداً في حسم التمرد مقدمته ثم تبعهم بالقسم الأكبر من الجيش، ولكن جيش الشام سبقهم الى صفين، حيث سيطروا على

(١) يذكر نصر بن مزاحم في وقعة صفين هذه الأرقام ثم يذكر في موقع آخر من الكتاب ارقاماً أخرى (انظر وقعة صفين، ص ١٥٦ و١٥٧).

فرضة النهر، ويبدو أن الوصول الى النهر كان متعذراً في ما يحيط بالفرضة؛ وعندما وصل جيش العراق كان من المتعذر عليه ان يستقي الماء، وأمام اصرار معاوية على منعهم من الاكتيال، فقد بعث الامام الى معاوية رسلاً، ليطلبوا منه أن يسمح لهم بورود الماء، لأنه لم يكن يريد القتال الا بعد ان يُغذّر؛ وهو لما نزل يأمل في اقناع معاوية بالرضوخ للشرعية، وتجنب اراقة المزيد من الدماء، الا أن إصرار معاوية على منعهم ادى الى نشوب معركة استطاع بعدها أهل العراق الوصول الى الماء، والاكتيال منه ومن ثم ارسل اليهم علي(ع) أن خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا الى معسكركم؛ وكان هذا أول قتال في صفين.

بدأ الامام علي(ع) بارسال الرسل الى معاوية يعضه ويخوفه الحرب وما تجر على الأمة والمسلمين من الدمار طالباً منه الخضوع لمشيئة المسلمين، الذين انتخبوه للخلافة. وكان معاوية يرفض في كل مرة محتجاً بتسليم قتلة الخليفة الثالث باعتباره ولي الثأر^(١)، رغم وجود ابناء الخليفة، وتارة أخرى كان يطلب من علي(ع) ابقاءه على حكم الشام على أن لا ولاية للخلافة عليه، وكان للقراء وذوي البصيرة في الدين والمشفقين على الأمة من الصراع دور مهم في هذه الوساطة، وكان معاوية يعوّل في تشدده وامتناعه على انقياد اهل الشام واطاعتهم له بعد ان اقنعهم ان علياً شارك في قتل عثمان، ولاسباب أخرى سوف نتطرق اليها، وقد علق قميص عثمان على منبر المسجد الجامع في دمشق، محرضاً أهل الشام على الطلب بثأره، زاعماً ان قتلة عثمان في جيش الامام علي(ع).

ولم يكن من الصعب على معاوية اقناع أهل الشام البعيدين عن عاصمة الخلافة بدعواه، وقد ضم اليه عمرو بن العاص بعد أن اتفقا على ان يوليه على مصر عند انتصاره ولم يكن مع معاوية ممن صحب رسول الله الا بضعة

(١) استناداً الى الآية الكرمة ﴿ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل انه كان منصوراً﴾.

أشخاص، لكل منهم سبب يدعو للوقوف معه^(١).

كان السفراء من ذوي الدين والقراء يتناوبون بين علي ومعاوية ولم يكن يبدو على معاوية انه سوف يدعن للحق بدون ان يُولّى على الشام ما بقي حياً، ولما آيس من مطلبه الذي رفضه الامام في أول ايام خلافته^(٢) طالب بتسليمه قتلة عثمان في جيش الامام، فخرج عشرون ألفاً مسربلون بالحديد لا يرى منهم الا الحدق، فقالوا: كلنا قتلته فليروموا ذلك منا^(٣)، وهكذا فشلت كل الجهود في اقناع معاوية بالتسليم لولي الأمر الشرعي الذي ارتضاه المسلمون لهم وبدا أن لا مناص من الحرب.

مكث الفريقان على ذلك، حتى ذو الحجة من عام ٣٧ للهجرة، فجعل علي(ع) يأمر الرجل الشريف فيخرج في جماعة فيقاتل ويخرج اليه من اصحاب معاوية مثيله فيقتلان، وأخذوا يكرهون أن تنشب الحرب بجميع الفيلق من العراق والشام مخافة الاستئصال والهلاك، فلما مضى «ذو الحجة» تداعى الناس ان يكفّ بعضهم عن بعض الى ان ينقضي «المحرم» لعل الله يجري صلحاً واجتماعاً، فكفّ الناس، واستمرت الوساطات طيلة المحرم، ولكنها كانت تدور في حلقة مفرغة؛ اذ كان الامام علي(ع) مصمماً على أن يخضع معاوية ويبيع وكان معاوية الذي استطاع استشارة أهل الشام واقناعهم ان علياً قتل عثمان، وتمكن من جمع مائة وثلاثين ألفاً يقاتلون دونه، قد وطد عزمه على المضي قدماً في خططه، يشجعه بنو أمية، وآل مروان، وبنو عثمان، وآل ابي العاص، فلما انسلخ المحرم واستقبل «صفر» ارسل علي منادياً الى أهل الشام يبلغهم (إنا نبذنا

(١) منهم النعمان بن بشير وهو من الأنصار، وكان قد قدم على علي(ع) مرسلأ من قبل معاوية ومعه أبو هريرة، فقال له علي: حدثني عنك يانعمان أنت أهدى قومك، قال: لا، قال فكل قومك قد اتبعني إلا شذاذ منهم ثلاثة أو أربعة أفتكون مع الشذاذ؟ فقال اصلحك الله انما جئت لأكون معك وألزمك فمكث مع علي(ع) شهراً ثم هرب الى معاوية - شرح النهج ٢ / ٣٠٢.

(٢) كان المغيرة بن شعبه قد اقترح على الامام ابقاء الولاة على ولاياتهم وذلك في أول ايام الامام ولكنه رفض قائلاً (لا أطلب العدل بالجور).

(٣) وقعة صفين، ص ١٩٠. روى في مسند ١ / ١٨٧. ٥٢٦ - ٧٤٢. روى في مسند (١)

اليكم على سواء، ان الله لا يحب الخائنين) وكان ذلك انذاراً بالحرب، فثار الناس الى امرائهم، وخرج امراء الجيش يكتبان الكتاب، ويعيتان العساكر، واوقدوا نيرانهم للحرب، وبدأت ملحمة رهيبة من المعارك المستمرة، وكان الناس عرباً قريبي عهدٍ بالجاهلية فلم يكن ينكص عن القتال أحدٌ لا من أهل العراق ولا من أهل الشام، وكانت القبائل تقاتل على راياتها؛ وهكذا كانت تعبثهم على وحدة القبيلة مع الاحتفاظ بنظام القلب، والمجنبتين، والساقة في المعارك الرئيسية، وكانت القبائل تقاتل ليس فقط على نياتها، وايمانها، وانما ايضاً على الأحساب، ومأثور القول في غيد، وكانت لهذا السبب خسائر الطرفين كبيرة جداً في كل معركة، ولحسن الحظ لم يكن اسلوب القتال على شاكلة معارك المسلمين مع الروم والفرس؛ إذ كان العسكران يلتقيان بأجمعهما وكانت المعركة حينذاك تنتهي خلال ساعات، أو أيام بانتصار احد الفريقين، وهلاك معظم جيش الفريق الخاسر.

ولما طالت الحرب بدون تحقيق نتيجة تذكر وكان القتل في جيش معاوية أفشى قرر الامام علي(ع) ان يوسع دائرة القتال ليتوصل الى الحسم فقام في الناس خطيباً وقال لهم: «حتى متى لاننا نهاض القوم بأجمعنا» فوثب الناس الى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها وذلك عشية يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء من السابع من صفر عام «٣٧» للهجرة، والتقى الفريقان يوم الأربعاء ودارت معارك ضارية كان من نتائجها ان وصل احد قادة جيش الامام وهو عبد الله بن بديل الخزاعي الى موقف معاوية وكاد أن يقتله وقد فكر معاوية حينها بالفرار، الا ان جيش الشام شن هجوماً مقابلاً شديداً الوطأة على ميمنة أهل العراق^(١) حتى هزموها فلحقت بالقلب وكان الامام في أهل اليمن فانصرف عنه مضراً، وثبتت معه ربيعة، ثم دنا أهل الشام من علي(ع) حتى كانت نبالهم تقع مابين عاتقه ومنكبه وكان بنوه معه وما من أحد الا يقيه بنفسه، وما يزيده قربهم منه ودنؤهم اليه سرعة في مشيته، فقال له ابنه الحسن: ماضرك لو سعت حتى تنتهي الى هؤلاء الذين

(١) صفين، ص ٢٢٥ - ٢٤٣.

صبروا لعدوك من اصحابك (يعني ربيعة التي في ميسرة الجيش)، فأجابه: يا بني.. ان لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يُطَيَّ به عنه السعي ولا يُعَجَّل به اليه المشي... إن اباك والله مائيالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه. ثم ان علياً أمر الأشر^(١)، وهو من خلَّص اصحابه وصدقهم نية بأن يعالج الموقف، ففعل الأشر وقام برد جيش معاوية الى مصافه، واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولكن المعركة لم تحسم لصالح أي منهم، رغم أن جيش الامام علي(ع) يحقق انتصارات تعبوية باستمرار ويوقع خسائر أكبر بجيش الشام. كانت الخسائر كبيرة جداً لطول مدة الحرب خاصة وأن الموت كان أهون على الناس من الفرار سواء في جيش العراق أو الشام.

لجأ معاوية بعد أن رأى أن لا أمل له بتحقيق الانتصار العسكري الى استمالة رؤوس القبائل بالمال، والأمنيات. وقد نجح في ذلك مع بعضهم^(٢)، كما أن

(١) هو مالك بن الحارث المذحجي توفي سنة ٣٩ للهجرة، كان من زعماء العراق وفارساً لا يشق له غبار وكان يمثل رئيس أركان الجيش لعسكر الامام وقد جمعت فيه صفات فريدة فكان خطيباً وقائداً وشاعراً وثائراً وقد قال فيه الامام علي(ع): كان لي كما كنت لرسول الله، وكفاه بذلك فخراً، وسئل عنه رجل فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق، ولما كُتبت صحيفة التحكيم دُعي لها الاشر ليوقعها فقال لاصحبتني يميني ولا نفعتني شمالي ان كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح او موادة، أولست على بينة من ربّي، ويقين من ضلالة عدوي... وكان له دور في التحريض على الخليفة الثالث ومن وفد على المدينة وشارك في الأحداث التي أدت الى مقتل الخليفة عثمان، وعندما مات الصحابي أبو ذر الغفاري في صحراء الرينة منفياً تولى مالك دفنه وابنه تأييداً ينم على الألم لما لقيه هذا الصحابي الجليل من العنت والغبن كما ينم على الحقد على اولئك الذين أذوا صاحب رسول الله، وعندما وضعه في حفرة، جرد سيفه ومسح به القبر وقال: ان أبا ذر رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتى جُفي ونُفي وحُرّم واحتقر ثم مات وحيداً غريباً اللهم اقصم من حرمة ونفاه.

اغتيال مالك بشرية سم مدافٍ بالعدل أثناء توجهه من العراق الى مصر بعد أن ولاه الامام عليها خلفاً لمحمد بن أبي بكر وكان الذي دبر اغتياله معاوية كما اجمع المؤرخون لخوفه من استقامة مصر لعلي(ع) ان توليها الأشر لما عرف عنه من حزم واخلاص وشدة في الحق. (٢) نجح معاوية في استمالة رئيس اشد القبائل مناصرة ونصيحة للإمام علي(ع) وهي ربيعة وكان هذا الرئيس خالد بن المعمر السدوسي [صفي، ٢٨٨]. الا أن ابن الأثير يتفرد بذكر وجود خالد هذا مع معاوية في صفي ٤ / ٢٨٧ .

طائفة كبيرة من القراء، والمتنسكين، قد خرجت مع الجيوش ولكنها اعتزلت القتال حتى تثبت من الحق كما تدعي.

وفي العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين^(١) قرر الامام ان يخوض المعركة الفاصلة بعد أن باءت كل السبل بالفشل واكلت الحرب الفريقين وان كانت في أهل الشام اشد نكاية وأعظم وقعاً فقد ملأوا الحرب، وكرهوا القتال، وتضعضت اركانهم، فزحف الفريقان الى بعضهم، وارتموا بالنبل، والحجارة حتى فئيت وكانت معركة رهيبة استخدمت فيها كل الاسلحة المتيسرة، واستمرت المعركة على غير العادة بشكل متواصل، فتطاعنوا بالرماح وعمد الحديد فلم يكن يسمع الا وقع الحديد بعضه على بعض، وتواصلت المعارك من منتصف النهار الى منتصف الليل ولم يصلوا لله لانشغالهم بالقتال ثم افترقوا تلك الليلة عن سبعين الف قتيل.

وقد سميت تلك الليلة بليلة الهرير^(٢)، ثم استؤنف القتال من منتصف الليلة التالية حتى ارتفاع الضحى لليوم الثاني، وبدأ جيش معاوية نتيجة الضغط المتواصل واستبسال جيش الامام، بالتراجع وكان الجناح الذي يقوده مالك الأشتر هو الذي يتقدم اكثر حتى الجأ جيش معاوية الى معسكره، ولما رأى الامام علي(ع) أن الظفر قد جاء من قبل مالك أخذ يمدده بالرجال والفرسان، في تلك الساعات الحرجة التي كان مصير المعركة يتوقف عليها بل ان مصير الأمة كله مرهون بنتائجها، فأما استمرار لما جاء به الرسول الأعظم(ص) وسار على نهجه الخلفاء الراشدون، أو ملك عضوض كما آلت اليه الأمور...

في تلك الساعات اجتمع معاوية وعمرو بن العاص للتداول في مصيرهما ويدور حوار يوضح بمجمله موقف الطرفين، فيسال معاوية عمرواً قائلاً: انما هي الليلة حتى يغدو عليّ علينا بالفصيل فما ترى؟ اجابه عمرو: ان رجالك لا يقومون لرجالهم ولست مثله.. هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره.. أنت تريد

(١) ذكرت بعض المصادر أن المعركة جرت في العاشر من صفر سنة ٣٧.

(٢) تشبيها لها بليلة الهرير التي كانت الليلة الفاصلة في معركة القادسية التي ادت الى فتح العراق والهرير هو صوت الكلب دون النباح.

البقاء وهو يريد الفناء وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليك إن ظفر بهم... ولكن ألق اليهم أمراً أن قبلوه اختلفوا وإن رده اختلفوا... إدعهم الى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك فيه، وكان عمرو قد أعد في نفسه هذه المكيدة منذ زمن في حالة الانكسار.

اما الامام علي(ع) وهو قائد الجيش فقد رأى ان ساعة الفصل قد حانت فباشر المعركة بنفسه على غير المألوف، اذ ان القادة ينبغي ان يكونوا بجان من اخطار المعركة المباشرة وان واجبه التفكير بهدوء لتوجيه المعركة ولكن الامام - كما أظن - رأى أن التعب والاجهاد قد أخذ من القوم كل مأخذ وان الملل قد اصابهم فرأى ان يضرب لهم مثلاً يحركهم فيه وهذا واضح من خطبته ذلك اليوم عند اشتداد المعركة بين قبيله مذحج من العراق وبين قبائل عك ولخم وجذام والاشعرين من الشام وتلكؤ بعض قبائل العراق عن الاشتراك في المعركة بعد ان اصابها التعب فقد قال: مخاطباً الجيش: حتى متى نخلي بين هذين الحين! لقد فنيا وانتم وقوف تنظرون اليهم اما تخافون مقت الله، ثم انفتل الى القبلة يدعو الله بالنصر، ويذكر الصحابي جابر بن عمير الأنصاري^(١) في كلمة بليغة مباشرة الامام علي للحرب بنفسه بعد خطبته هذه اذ يقول: لا والله الذي بعث محمداً^(ص) بالحق نبياً ماسمعنا برئيس قوم مذ خلق الله السموات والأرض اصاب يده في يوم واحد ما اصاب، انه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسمائة من اعلام العرب، يخرج بسيفه منحنيّاً فيقول معذرة الى الله عزوجل وإليكم من هذا، لقد هممت ان اصقله، ولكن حجزني عنه اني سمعت رسول الله(ص) يقول كثيراً (لافتى الا علي ولا سيف الا ذو الفقار)؛ وأنا اقاتل به دونه ويضيف جابر فكنا نأخذه (أي السيف) فنقومه ثم يتناوله من ايدينا فيقتحم به في عرض الصف فلا والله ماليث أشد نكاية في عدوه منه.

وهكذا كانت المعركة تدور في صالح جيش الامام؛ واندفع الأشر بقواته يحطم كل شيء امامه، وكان جيش معاوية قاب قوسين أو ادنى من الهزيمة.

(١) وقعة صفين، ص ٤٧٧ .

رفع المصاحف

في صبيحة اليوم التالي من ليلة الهرير بدأ تنفيذ المكيدة؛ فلم يكن يحول دون الهزيمة غيرها، فقد رفع جيش معاوية المصاحف امام الصف، وشدوا ثلاثة ارماع جميعاً وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يحمله عشرة رجال، ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف؛ ونادى كل من الطفيل بن ادهم في قلب الجيش وأبو شريح الجذامي في ميمنة الجيش وورقاء بن المعمر في الميسرة بكلام واحد - لا بد أنه متفق عليه - : يامعشر العرب... الله الله في نسائكم وبناتكم.. فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً اذا فنيتم... الله الله في دينكم.. هذا كتاب الله بيننا وبينكم...

فقال الامام علي على الفور: اللهم انك تعلم انهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم انك انت الحكم الحق المبين.

وكان لا بد لهذه الدعوة الى التحكيم وكما توقع عمرو بن العاص ان تلقى اذاناً صاغية منذ الوهلة الأولى عند كثير من الناس.. اذ ان كتاب الله وهو معلق على الأعناق وعلى رؤوس الرماح لا يمكن ان ترد دعوته عند الغالبية التي لم تستوعب طبيعة الصراع بين علي (ع) ومعاوية.. خاصة عند القراء الذين غالباً ما يفسرون الأمور على ظواهرها، كما ان النداء العاطفي المؤثر لا بد ان يستميل

قلوب الناس بما ينطوي عليه من التذكير بمخاطر المستقبل، غير متوقفين عند
الاسباب التي ادت الى الحرب، او التوقيت الذي اطلقت فيه الدعوة الى
التحكيم، يضاف الى ذلك ان الفتور والملل قد اصاب معظم الجيش الذي مضى
عليه عدة أشهر وهو بعيد عن الأهل والوطن؛ كما ان نسبة الخسائر العالية جداً
قد أعطت الدعوة للتحكيم نسبة من المصداقية، ولكن السبب المهم يبقى وجود
من يؤيد التحكم لأنه سيسبب الفتنة والانشقاق في جيش الامام، ولا يستبعد ان
يكون بعض رؤساء القبائل كالاشعث بن قيس وخالد بن المعمر السدوسي قد
تمالأوا على هذه الفتنة.

وسرعان ما صدرت ردود فعل فورية على الدعوة من قبل جيش الامام
علي(ع)، فطائفة قالت باستمرار القتال، وطائفة قالت المحاكمة الى الكتاب ولا
يحل لنا الحرب بعد ان دعينا الى حكم الكتاب، عند ذلك وضعت الحرب
اوزارها وبدأت مرحلة جديدة في التاريخ الاسلامي.

التحكيم

لقد استجاب قسم كبير من جيش الامام لنداء التحكيم منذ اللحظة الأولى، فقد ذكر أن الناس ماجوا وقالوا: اكلتنا الحرب، وقتلت الرجال وهذا دليل على ان الغالبية كانت تريد وقف الحرب استجابة لرفع المصاحف، أو لأي مبرر آخر، وقد ضمت هذه الفئة من الناس معظم رؤساء القبائل وعلى رأسهم المسوّد من كندة وهو الأشعث بن قيس الذي لم يرض بالسكوت، بل كان من اعظم الناس قولاً في انتهاء الحرب، والركون الى المودعة بحجة حقن الدماء، أما القلة فقد قالت: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه امس، وحتى هذه القلة رجعت عن قولها بعد ان رأت اجماع الناس على المودعة او فضلت السكوت، وكان مع هؤلاء كبش العراق مالك الأشتر، الذي لم يكن يرى الا استمرار القتال، ولكنه سكت بعدئذ على مضض بعد ان اجبر الامام على القبول، طاعة لامامه، واتخذت طائفة من الناس موقفاً متربصاً فهي تارة مع التحكيم وتارة مع استمرار القتال، كان هذا موقف الناس في الساعات الأولى من رفع المصاحف.

ومن الواضح ان موقف الامام علي كان صريحاً في استمرار القتال لأنه كان على بينة من أمره وكان اعلم الناس بمعاوية وعمرو بن العاص ولكنه كما سنرى لم يكن يستطيع اخضاع الناس لأمر قد كرهوه، وتبين خطبته التي القاها بعد رفع

المصاحف هذا الموقف، فقد جمع رؤساء القبائل وخاطبهم قائلاً: «انه لم يزل امري معكم على ما أحب الى ان اخذت منكم الحرب، وقد والله اخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وانها فيهم انكى وانهلك، الا اني كنت امس أمير المؤمنين فأصبحت مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد احببتكم البقاء وليس لي أن احملكم على ماتكرهون».

وفي موضع آخر ولعله في وقت متقارب رأى الامام الجدل والاختلاف بين الناس وتباين المواقف فاعاد تأكيد موقفه موضعاً اسبابه قائلاً: عباد الله، اني احق من اجاب الى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن ابي سرح ليسوا باصحاب دين ولا قرآن، اني اعرف بهم منكم، صحبتهم اطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، انها كلمة حق اريد بها باطل، انهم والله مارفعوها لانهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، اعبروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا»^(١).

لقد قالها الامام صريحة لا لبس فيها ولا غموض ان الحزب الآخر ليسوا باصحاب دين ولا قرآن وعندما ذكر هؤلاء النفر باسمائهم وهم رؤساء جيش معاوية فإنه يشير ويذكر ان هذا الحزب يمثل الذين ناصبوا الاسلام العداء منذ بدء الدعوة وأنهم اسلموا مكرهين وان ما يريدونه هو السلطة، اذ انهم ليسوا باصحاب دين ويؤكد أن طلب التحكيم ماهو الا خدعة ومكيدة، وكان نداؤه المرير هذا يدل على عمق ما يعتلج في قلبه من ألم لانطلاء الخدعة بهذه السهولة، وقد كان من الممكن ان تجد دعوة الامام هذه اذاناً صاغية لولا ان فئة من القراء الذين اسودت جباههم من السجود والذين كان الحماس الجارف الذي طغى على تفكيرهم لدى رؤيتهم المصاحف مرفوعة قد انساهم المحاكمة الموضوعية الهادئة، لذا فقد خرج منهم زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح، سيوفهم

(١) الطبري ٦ / ٢٧ ، وقعة صفين ص ٤٨٩ ، ابن الأثير ٣ / ٣١٦ .

على عواتقهم يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين فنادوا الامام باسمه لا
بامرة المؤمنين: يا علي اجب القوم الى كتاب الله إذ دعيت اليه، والا قتلناك كما
قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها ان لم تجبهم... فخاطبهم الامام خطاباً ليناً ذكرهم
فيه انه احق من يجيب الى كتاب الله، ولكن ما حصل لم يكن الا مكيدة.. ثم
اردف قائلاً وهو يستشرف المستقبل: «احفظوا عني نهيي اياكم واحفظوا مقاتلكم
لي».

كان الموقف حرجاً ورهيباً في تلك الساعات من صبيحة ليلة الهرير اذ كان
الاشتر ومن معه وهو اطوع الناس للامام مازالوا يقاتلون وقد احسوا بالنصر ولم
يكن الامام على ما يبدو يستطيع ضمان حمايته الشخصية امام هذه الجموع
الهائجة التي ما كانت تنكص عن تنفيذ وعيدها ولم يكن انفجارها ينتظر سوى
شرارة تصدر من هنا أو هناك، ويبدو من هذا التجمع السريع ان هذا الرأي
والموقف المتطرف انما دبر لبيل وان وراءه من يحركه، وهكذا طلبوا من الامام ان
يبحث الى الأشر - الذي شارف على الفتح - ليوقف القتال وان يحضر، وهنا
يمكن تخيل صورة الموقف، اذ يقف قائد الجيش وأمير المؤمنين يحيط به عشرات
الألوف من المسلحين الغاضبين وهم يهددونه بالقتل وليس فيمن يحيط به من
يستطيع كبح جماحهم وقد غاب صوت العقل وحل محله التخاطب بلغة
التهديد وقد جردوه في اشارة لها مغزى من شرعيته التي توجب الطاعة^(١)، وهي
امرة المؤمنين وخاطبوه باسمه المجرد، بينما يخوض جزء اخر من الجيش القتال وهو
يوشك على النصر وفيه معظم من صفت نيتهم على القتال.

ويمكننا أن نستنتج ان المعركة الأخيرة التي تلت ليلة الهرير قد شهدت اندفاعاً
من خلص اصحاب الامام ونكوصاً من المترددين الذين اتعبهم القتال وهذا يفسر
تجمعهم بعيداً عن المعركة التي كان يخوض غمارها مالك الأشر وصحبه رغم
رفع المصاحف.

(١) وقعة صفين ٤٩٠، شرح النهج ١ / ٤٢٦، البداية ٧ / ٢٩٩، الطبري ٦ / ٢٧ .

بعد هذا الحوار الذي دار بين الامام وبين المتمردين (ويمكن تسميتهم بهذا الاسم بعد ان جردوا الامام من امرة المؤمنين) ارسل الامام يزيد بن هانئ الى الأشر ان آتيني، وعندما وصل يزيد الى الأشر وابلغه طلب الامام اجابه الاشر الذي لم يكن يدرك خطورة ما آلت اليه الأمور بعد رفع المصاحف: ليس هذا بالساعة التي ينبغي لك ان ترزقني عن موقعي، اني قد رجوت الله ان يفتح لي فلا تعجلني، فرجع الرسول ليخبر الامام برد الأشر الذي كان في سباق مع الزمن والذي استغل الفرصة ليكشف هجومه على جيش معاوية المتقهقر وعندما علت الاصوات وظهرت دلائل النصر والفتح لأهل العراق ودلائل الخذلان والادبار على جيش معاوية قالت الطائفة التي كانت تحيط بالامام وتضيق عليه: والله مانراك الا امرته بقتال القوم فاجابهم: أرايتموني ساررت رسولي اليه؟ اليس انما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون؟، قالوا فابعث اليه فليأتك والا فوالله اعتزلناك، فارسل رسوله مرة أخرى الى الأشر وطلب منه ان يخبره ان الفتنة قد وقعت، فلما وصل الى الاشر واخبره قال الأشر: أرفع المصاحف؟.. اما والله لقد ظننت انها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة، وعندما اخبره الرسول بما يتعرض اليه الامام من تهديد اضطر الى وقف القتال والعودة، وقد جرت بينه وبين من يريد التحكيم مجادلات انتهت بأن خاطبهم: «خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتكم.. يا أصحاب الجباه السود كنا نظن ان صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق الى لقاء الله فلا أرى فراركم الا الى الدنيا من الموت فقبحاً يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برأئين بعدها عزاً ابداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون»، وهنا حدث هرج وصخب بين الأشر والداعين الى الحكومة فقد سبوا الأشر وسبهم وضربوا بسياطهم وجهه دابته كما ضرب وجوه دوابهم.. وهنا انطلق صوت من وسط القوم واطنه قريباً من موقع الامام قائلاً: ان علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن فأقبل الناس بعضهم على بعض يرددون قد رضي أمير المؤمنين، وعلي ساكت لا يبيض بكلمة مطرق الى الأرض، وقد كان للاشعث بن قيس رئيس كندة، والرجل القوي في جيش الامام دور رئيسي في قبول التحكيم والترويج له والضغط على الامام لقبوله، ويقول ابن ابي الحديد في

شرحه: ان كل فساد كان في خلافة الامام وكل اضطراب فأصله الاشعث^(١).

بعد هذا جرت مراسلات بين الامام علي(ع) ومعاوية واجتمع القراء من أهل العراق وأهل الشام بين الصنفين ومعهم المصحف فتدارسوه وقال أهل الشام قد رضينا بعمر بن العاص حكماً ممثلاً لنا، وقال الأشعث وقراء أهل العراق الذين أصبح معظمهم خوارج فيما بعد قد رضينا واخترنا (ابا موسى الأشعري) حكماً وممثلاً لنا، ولم يوافق الامام علي(ع) على هذا الاختيار، إذ ان ابا موسى الذي كان والياً على الكوفة قد لعب دوراً في تخذيل أهلها عن نصرة الامام قبيل معركة الجمل؛ ثم فارق الامام وهرب، ولكن القراء والاشعث اصروا عليه، اذ ان القراء يرون ان ابا موسى قد حذرهم الفتنة، واما الاشعث فكان اصراره بسبب يمانيته، اذ لم يكن يريد ان يكون الحكمان مضربين، كما ان الاشعث كما يبدو اصر عليه وحسن صورته لعلمه بانحرافه عن الامام، وقد كان هوى الامام ان يكون الحكم عبد الله بن عباس ابن عمه وهو حازم اريب أو الاشر وهو ممن لا يثبك باخلاصه واثيره للحق، ولكنه غلب على رأيه^(٢)، وكان ابا موسى بالاضافة الى صفاته الأخرى رجل فيه غفلة ويمكن خداعه بسهولة خاصة وان الحكم الآخر يعد من دهاء العرب وممن تدل سيرته على انه لا يتورع عن الخداع واتباع الاساليب المتلوية للوصول الى غايته وهو لم يشترك في هذه الحرب الى جانب معاوية الا بعد ان ضمن له الأخير ملك مصر طعمة إن هو انتصر، ولقد طلب كل من ابن عباس والأحنف بن قيس والأشعث ان يشتركوا في الحكومة بصفة مستشارين لعلمهم بغفلة ابي موسى كما صرحوا بذلك، ويبدو ان الامام المغلوب على أمره لم يستطع سوى اشراك عبد الله بن عباس فيها.



(١) ابن الحديد، شرح النهج ١ / ٤٦٨ .

(٢) وقعة صفين ص ٤٩٩، مروج الذهب ٢ / ٤٣٤، الطبري ٦ / ٢٨، شرح النهج ١ / ٤٣٣،

ابن الاثير ٣ / ١٦٢، الامامة والسياسة ١ / ١٤٩ .

بدء أمر الخوارج

بعد قبول الامام التحكيم على مضض، نشط الأشعث في السفارة بين الامام وخصومه وكتبت وثيقة التحكيم يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة ٣٧ للهجرة^(١)، ووقع عليها كبار قادة الطرفين واتعد الحكمان منطقة «اذرح» وهي بلدة في اطراف الشام، على ان يأتي كل منهما باربعمئة من اصحابه ليشهدوا الحكومة، وخرج الأشعث وهو المندفع لامضاء الصلح ليعرض الوثيقة على القبائل ويقراها على الناس.. حتى مرّ على «عنزة» وهي احدى بطون ربيعة التي كانت أكثر القبائل تأييداً ومساندة للامام علي(ع) وقد كان لعنزة وحدها اربعة الاف مجفف^(٢)، فقرأها عليهم فقال فتيان منهم: «لاحكم الا لله» ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما حتى قُتلا على باب رواق معاوية.. وهما أول من حَكَمَ واسمهما «معدان وجعد» وهما اخوان، ثم مر الأشعث بالوثيقة على قبيلة مراد فقال احد رؤسائهم وهو صالح بن شقيق: «لاحكم الا الله ولو كره المشركون» ثم مرّ على بني راسب وبني تميم فقالوا: لاحكم الا لله.. فقال رجل

(١) ذكر ابن أبي الحديد انها ابرمت لليلة بقيت من صفر سنة ٣٧ للهجرة.

(٢) صفين ٥١٢، المجفف لابس التجفاف واصله مايجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراحة.

منهم لآخر: «اما هذا فقد طعن طعنة نافذة»^(١).

وخرج عروة بن أدية أخو مرداس بن أدية التميمي فقال: أتَحْكُمون الرجال في أمر الله.. لا حكم الا لله فأين قتلانا يا أشعث..

ولقد كان واضحاً ان الفترة التي مرت بين رفع المصاحف وردة الفعل الأولى التي اتسمت بالتسرع العاطفي الجياش لدى رؤية المصاحف وبين كتابة الوثيقة، وما كان فيها من خطب وتحريض على عدم قبول التحكيم والتي صدرت عن الامام علي(ع) والاشتر ومجموعة من القادة ورؤساء العشائر قد فعلت فعلها في عدول الكثيرين عن رأيهم، وقد كان بين هؤلاء عدد من الذين كانوا اشد المندفعين في قبول التحكيم ممن ضغطوا على الامام في قبوله بل وهددوه بالقتل ان لم يفعل.

عاد الأشعث بالوثيقة الى الامام ليخبره ان الناس قد رضوا بالتحكيم الا بُدأ^(٢) من الناس، واقترح على الامام ان يحمل جيش العراق وجيش الشام عليهم لابتدئهم ولكن الامام رفض فكرة القضاء عليهم وأمر بتركهم، وهنا ضج الناس من كل جهة: لا حكم الا الله، الحكم لله يا علي لا لك، لا نرضى ان يحكم الرجال في دين الله، ان الله قد امضى حكمه في معاوية واصحابه ان يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم وقد كانت منا زلة حين رضينا بالحكمين فرجعنا وتبنا.. فارجع انت يا علي كما رجعنا وتب الى الله كما تبنا والا برئنا منك، وهكذا تبدلت القناعات الجماعية خلال ساعات فبعد ان كانوا يهددون الامام بالبراء منه اذا لم يقبل التحكيم اصبحوا يهددونه بها، اذا قبل بالتحكيم، وكان الامام قد امضى الوثيقة ووقعها فقال لهم: ويحكم.. بعد الرضا والعهد والميثاق ارجع؟ اوليس الله يقول ﴿واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ان الله يعلم ما تفعلون﴾. وعندما استبان لهم بشكل

(١) في اللسان: (والخوارج يسمون المحكمة لانكارهم أمر الحكمين وقولهم لا حكم الا لله».

(٢) النبذ، الشيء القليل وجمعه أنباذ.

قاطع ان الامام لا يمكن ان يرجع عن عهده برئوا منه وشهدوا عليه بالكفر، وبرئ
الامام منهم^(١).

منذ تلك الساعة بدأت حركة جديدة، ابتدأت على محور رفض التحكيم ثم
أخذت تدريجياً صيغاً فقهية، وفلسفية، وسياسية واستمرت بالتطور محدثة تأثيراً
واضحاً في مجرى أحداث التاريخ الاسلامي، ان الفكرة التي ولدت حول موقف
سياسي - ديني^(٢) انضجتها وكرستها الملبسات التي بدأت برفض الامام
علي(ع) للتحكيم ثم اجباره من قبل من اصبحوا خوارج على قبوله ومن ثم
رفضهم للتحكيم بعد قبول الامام (مجبراً) واعطائه العهد على تنفيذه، ولقد تطور
التجمع حول هذه الفكرة ليكون حركة متطرفة تؤمن بالعنف اسلوباً وحيداً
للتغيير ولتفترق عن بقية المذاهب الاسلامية من حيث استحلالها لقتل المسلمين
بل والأطفال والنساء واعتبار دار الاسلام دار كفر ضارين خلال فلسفتهم
وفقههم المبني على التأويل السطحي أسس الاسلام التي بني عليها والتي تحرم قتل
المسلم الا في حالات محددة ليس بينها قطعاً ماينادي به الخوارج من أفكار كما
سنرى فيما بعد.

ولابد من التوقف لمناقشة التناقضات التي حملتها تلك الساعات الحرجة. لقد
ظن الامام ان الرافضين للتحكيم عندما عرض عليهم الأشعث وثيقة التحكيم هم
قلة من الناس، فكيف يمكن عزل الامام عن معرفة الرأي العام وأين هم مؤيدوه
ومستشاروه وقادته المخلصون الذين لا يألون جهداً في النصح له؟ والجواب على
هذا يكمن في أن الامام قد امضى العقد ولا يمكن له الرجوع عنه الا لسبب
حسب الشرع الاسلامي، اضافة الى ان من رفض التحكيم آخرأ ليسوا بالكثرة
التي صورها المؤرخون، وهذا يثبت عدد الذين اعتزلوا جيش الامام فيما بعد وهم
لايزيدون على ستة الاف من مجموع مائة الف، يضاف الى ذلك ان الامام لم
يكن ليرجع عن قراره مهما كان عدد الرافضين وهذا يمكن استنتاجه من سيرة

(١) صفين ٥١٨، مروج الذهب ٤٣٦ / ٢، شرح النهج ٤٣٨ / ١، الامامة والسياسة ١ / ١٤٨ .

(٢) الامامة والسياسة ١ / ١٦١ .

الامام المبدئية التي لاتقبل المساومة وقد كان في امكانه في حالات كثيرة ان يقلب المواقف لصالحه تماماً ان هو تخلى عن اسلوبه الذي استمده من الشريعة. ولقد كان شعاره الذي يردده دائماً (لا أستري العدل بالجور) اذ لم تكن الغاية لديه تبرر الوسيلة، وكان الأشعث قد قام بالدور الذي انتهجه دائماً في غش الامام اذ انه على كل حال قد حاول ان يقلل من شأن الرافضين بل واثار بقتلهم بالتعاون مع جند الشام حتى يستعجل الفتنة، رغم أنه وفي ما سيأتي من الأيام سيؤيد الخوارج سراً بل ويشاركهم في مؤامرتهم لاغتيال الامام علي(ع)، ولا اظن ان الأشعث كان وحيداً في هذه المؤامرة اذ لابد ان يكون له اعوان ومؤازرون من علية القوم ولا يبعد أن يكون معاوية قد استطاع اقناعهم بمخططاته^(١).



(١) خلال المعركة أرسل معاوية اخاه عنبسة ابن ابي سفيان للاجتماع بالأشعث ويحتمل أنه استطاع اقناعه بالوقوف الى جانبهم (على ما فيه من انحراف عن الامام) ولذلك نراه يسعى جاهداً لتوهين مواقف الامام وجيشه، وان ماضي هذا الرجل يؤيد عدم التزامه بالاسلام وقيمه فقد أرتد عن الاسلام في زمن الردة حتى أن الخليفة أبا بكر(رض) قال قبل موته (ليتني قتلت الأشعث حينما جاء به أسيراً فانه لا يرى فتنة الا دخل فيها) وقد كان أبو بكر قد زوجه اخته (أم فروة) وقد ذكر المسعودي في مروجه أن الامام لما بلغه ماكان من أمر ابي موسى وعمرو بن العاص قال: اني كنت تقدمت اليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبيتم الا عصياني فكيف رأيتم عاقبة أمركم اذا أبيتم علي، والله اني لاعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ولو شئت أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه. وعقب المسعودي أنه يريد بذلك الأشعث بن قيس وقد كان قومه يسمونه عرف النار لغدره. وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه ان الاشعث من المنافقين في خلافة الامام كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في اصحاب رسول الله كل واحد منهم رأس النفاق في زمانه. ابن الأثير ٣ / ٣٣٣، شرح النهج ١ / ٢٩٧ المسعودي ٢ / ٣٩٨ .

عودة جيش الامام علي من صفين

بعد الاتفاق على شروط التحكيم ومكانه واعلان وثيقة التحكيم عاد جيش الامام من صفين الى الكوفة وقد وقعت في صفوفه الفرقة والاختلاف وانخل من عنه الرافضون للتحكيم، وقويت شوكة المخالفين وكان قبول التحكيم نصراً معنوياً لجيش معاوية الذي كان على حافة الهزيمة بحيث استطاع تجنبها بمناورة وخدعة تمكن بواسطتها تحويل الهزيمة الى نصر.

وبدا أهل العراق بعد وصولهم بتجهيز ممثلهم في لجنة التحكيم وقد عين الامام عبد الله بن عباس مستشاراً، فلما التقوا في شعبان سنة ٣٨ للهجرة كان الفشل والخذلان باديين على أهل العراق منذ الأيام الأولى، فقد كانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة في أمر التحكيم وكان عددهم اربعمائة، وعندما كانت الرسائل ترد الى ابن عباس من الامام حاملة توجيهاته كان أهل الكوفة يأتيونه قائلين: ماذا كتب لك أمير المؤمنين، ثم يأتي رسول معاوية الى عمرو بن العاص فلا يُدرى في اي شيء جاء ولا في اي شيء ذهب ولا يُسمع حول صاحبهم لفظ كما يسمع حول الحكم العراقي وقد اتبهم ابن عباس قائلاً: اذا جاء رسول قلتهم بأي شيء جاء، فإن كتمتكم قلتهم لم تكتمنا؟، جاء بكذا وكذا فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا، فليس لكم سر.

ورغم ان وثيقة التحكيم تنص على ان يحكم الحكمان بكتاب الله يحييان ما أحيا الكتاب ويميتان ما أمات الكتاب الا أن من المسلم به ان عمرو بن العاص كان يريد خلع الامام علي (ع) وتثبيت صاحبه وكان ايضاً قد أعد للخدعة عدتها للوصول الى غايته يساعده في ذلك سذاجة ابي موسى وجهله وانحرافه عن الامام^(١).

وبعد أخذ ورد بين الحكامين تقدم كل منهما بمرشح للخلافة اذ رشح ابا موسى (عبد الله بن عمر) ورشح عمرو ابنه (عبد الله بن عمرو) ثم اتفقا على خلع علي (ع) ومعاوية وأن يترك الأمر للمسلمين، في الجلسة النهائية تم الاتفاق على اعلان النتائج فطلب عمرو بن العاص من ابي موسى ان يتقدمه في الاعلان محتجاً بكبر سنه وقديم صحبته، وقد كان يمهّد لذلك في كل الاجتماعات وهكذا انطلقت الحيلة على أبي موسى فقام خطيباً ليعلن خلع علي ومعاوية معاً، ثم قام بعده عمرو فأعلن خلعه لعلي وتثيته لمعاوية، وفي رواية المسعودي في مروج الذهب ان الاتفاق تم بينهما على خلع الاثنين واختيار عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاص وافق على ذلك لاتمام الخديعة^(٢).

بعد ان سمع أبو موسى كلاماً غير ما اتفق عليه انتفض غاضباً وخاطب عمرواً: مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت، انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفارا^(٣). فاجابه عمرو: انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث^(٤)، ثم وكز أبا موسى فألقاه لجنبه، فلما رأى شريح بن هانئ ذلك قنع عمرو بن

(١) كان ابو موسى الاشعري واليا على الكوفة من قبل الامام فلما كانت معركة الجمل خذل الناس عن علي (ع) ثم عزله الامام عن ولاية الكوفة، وقبل معركة صفين كان يخذل الناس ايضاً بعد أن اعتزل في ناحية وقد صرح المؤرخون بغفلته حتى قال ابن أبي الحديد (انه كان رجلاً مغفلاً) شرح النهج ٢ / ٢٥٥، وان الامام خاطبه عندما بعثه الى دومة الجندل حكماً: احكم بكتاب الله ولا تجاوزه فلما خرج قال الامام: كاني به وقد خدع فقيلاً له: لماذا تبعته وهو على هذه الفكرة؟ فقال: لو عمل الله بخلقه على علمه ما اجتمع عليهم بالرسول، نقلها ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ٢ / ٢٦١.

(٢) المسعودي - مروج الذهب ٢ / ٣٩٨.

(٣) سورة الاعراف، الاية ١٧٦.

(٤) سورة الجمعة الاية ٥.

العاص بالسوط (وكان يتحسر فيما بعد لم لم يقنعه بالسيف؟)، ثم غادر أبو موسى هارباً الى مكة، وهكذا تبادل الحكمان السباب المؤدب والضرب الخفيف الذي لا يؤلم بعد ان سبب احدهم بغفلته وانحرافه والآخر بطمعه واستحلاله للخديعة والمكيدة في أمر يهتم الأمة ومستقبلها، نكسة أخرى للمسلمين الذين لم تجف دماؤهم بعد في صفين، وكان هذا التلاعب قد حدث بمرأى ومسمع من ثمانمائة من وجوه المسلمين الذين حضروا التحكيم، ولما بلغ الامام علي (ع) وأهل العراق انباء المكيدة التي خالفت نصوص وثيقة التحكيم بادروا برفض النتيجة وعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل رفع المصاحف عند أهل العراق، ولذا فقد باشروا استعدادهم للحرب مرة ثانية، اما معاوية الذي أحكم التدبير مع عمرو فقد فرح بما آلت اليه الأمور والتي كان من نتائجه ان خوطب بعدها بإمرة المؤمنين معطياً لنفسه الشرعية التي اضفتها عليه خدعة ابن العاص^(١).

(١) كان عمرو بن العاص رغم اخلاصه لمعاوية الذي وعده بولاية مصر طمعة ان هو ناصره يميل الى تولية ابنه عبد الله، وقد أحس معاوية بذلك فأعمل الحيلة لتوكيد الاتفاق ويذكر المسعودي في مروجه ٢ / ٤٠١ ان معاوية زار عمرو في مكانه وعمرو جالس على فراشه فلم يقم له عنه ولا دعاه اليه فجلس معاوية على الأرض وكان ذلك قبل اعلان نتيجة التحكيم فقال عمرو: هذا الكتاب الذي بيني وبينه (أي ابو موسى) عليه خاتمي وخاتمه وقد أقر أن عثمان قتل مظلوماً وأخرج علياً من هذا الأمر التي استخلف من شنته، وقد أعطاني أهل الشام عهودهم وموائيقهم، فحادثه معاوية ساعة وضاحكه وداعبه ثم قال: يا ابا عبد الله هل من غداء؟ قال: اما والله شيء يشبع من ترى فلا فقال معاوية: يا غلام هلم غداءك، فجيء بالطعام المعد، ثم قال معاوية: يا أبا عبد الله أدع مواليك واهلك، فدعا بهم ثم قال له عمرو وادع أنت اصحابك، قال نعم يأكل اصحابك أولاً ثم يجلس هؤلاء بعد، فجعلوا كلما قام، رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية، حتى خرج أصحاب عمرو جميعاً وبقي أصحاب معاوية، فقام الذي وكله بغلق الباب، فقال له عمرو فعلتها، فقال أي والله بيني وبينك أمران فاختر أيهما شئت: البيعة لي، أو تقتلك، ليس والله غيرهما، قال عمرو فاذن لغلامي وردا حتى اشاوره وانظر رأيه (وكاد كل منهم صاحبه) قال معاوية لا تراه والله ولا يراك الا قتيلاً أو على ما قلت (أي البيعة لي) قال فالوفاء اذن بطمعة مصر، قال هي لك ماعشت، فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه واحضر معاوية الخواص من أهل الشام، ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو، فقال لهم عمرو: قد رأيت =

تطور حركة الخوارج

لما وردت أخبار حكم الحكمين غم ذلك علماً وساءه ووجم له ثم خطب الناس قائلاً: «ألا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب، واحببا ما أمات، واتبع كل منهما هواه، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية، واختلفا فيما حكما، فكلاهما لم يُرشد الله، فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير، واصبحوا في معسكركم يوم كذا»^(١).

وكان الرافضون للتحكيم قد اعتزلوا جيش الامام عند وروده الى الكوفة في (حروراء)، ولم يكن الامام حتى تلك الأيام قد اتخذ منهم موقفاً فاصلاً طمعاً في عودتهم الى جادة الصواب، خاصة بعد ان رأوا عاقبة التحكيم واجبارهم الامام على ارسال أبي موسى، وما كان الخوارج حتى ذلك الحين ينكرون سوى التحكيم وكان هناك امل لدى الإمام في ضمهم الى جيشه خاصة وان التحكيم جرى بشكل مخادع وان نتيجته لم يتفق عليها الحكماء أنفسهم، ولم يكن الخوارج قد ارتكبوا عملاً يوجب حربهم او استعداءهم، ولما كان الامام قد بدأ يستعد لتجميع قواته لحرب معاوية فقد كتب الى الخوارج وهم في معسكرهم

(١) شرح النهج ٢/ ٢٥٩، مروج الذهب ٢/ ٤٠٢، البداية والنهاية ٧/ ٢٨٧، الأغاني ٩/ ٥٠.

كتاباً عنوانه الى زيد بن الحصين وعبد الله بن وهب الراسبي ينبئهما فيه بأمر الحكومة وما خالف فيه الحكمان من كتاب الله، مخبراً إياهم اننا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه^(١)، ولكن جوابهم كان قاسياً ومفاجئاً اذ اصرروا على العناد واللجاجة، ويبدو أن الفترة بين عودتهم من صفين ومكوثهم في معسكرهم قد بلورت نهجاً جديداً لهم يتجاوز معارضتهم للتحكيم ومطالبهم السابقة، فقد شرطوا للعودة الى الطاعة هذه المرة أن يتوب الامام عن قبوله للتحكيم كما تابوا.. وبدا ان فكراً جديداً يتسم بالخروج على اسس النظام السياسي المتبع في اختيار الخليفة قد نضج في تفكيرهم، كان جوابهم على رسالة الامام: «أما بعد فإنك لم تغضب لربك، انما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرننا فيما بيننا وبينك، والا نابذناك على سواء، ان الله لا يحب الخائنين»^(٢).

ولم يكن اتهام الامام بالكفر الا غلقاً للطريق امام اي تسوية ممكنة خاصة بعد ان زالت اسباب الخلاف التي كان الخوارج المسبب الأساسي له سيما وانهم بينوا بشكل واضح ان توبة الامام لو حصلت كما يزعمون لن تبرر عودتهم الى الجماعة، وانما تمهد فقط لاعادة النظر في موقفهم، وكانت نيتهم عقدت فيما يبدو على المضي بحركتهم قدماً، وما كان خطابهم للامام الا لغرض التوريث. ولما كان الامام في سبيله لجمع الجند وتحشيد الجيش للتوجه الى الشام فقد رأى ان من الحكمة ان يجادلهم بالتي هي أحسن، خاصة وان عددهم لم يكن يشكل خطراً كبيراً وانهم لم يباشروا عملاً يقادون عليه، وكان معسكرهم في حروراء لا يبعد سوى ميلين عن الكوفة وعلى هذا فقد كانوا في بدايتهم يدخلون الكوفة ويحضرون مجالسها ويصلون في مسجدها الجامع بل ويجادلون الامام ويعاكسونه اثناء صلاة الجماعة التي كانت تقام في ذلك الوقت بأوقاتها الخمسة بامامة الخليفة، وكان بعض هؤلاء الخوارج قد رجع عن قوله وعاد الى الكوفة،

(١) الطبري ٦ / ٤٤ ، ابن الأثير ٣ / ٣٣٩ .

(٢) ابن الأثير ٣ / ٣٣٩ البداية والنهاية ٧ / ٢٨٧ ، الطبري ٦ / ٤٤ .

ولقد أبدى الخوارج جرأة متزايدة في مجابهة الامام مستغلين تسامحه ورغبته في لئ الشمل فقد دخل أحدهم على الامام وهو في المسجد والناس حوله فصاح: لا حكم الا الله ولو كره المشركون، فتلفت الناس، فنادى: لا حكم الا الله ولو كره ابو حسن، فقال الامام: ان ابا الحسن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم أردف: حكم الله انتظر فيهم، فقال له الناس الذين عجبوا من جرأتهم على الامام وتفريقهم امر المسلمين: هلا ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفئيتهم؟، فقال: إنهم لا يفنون، انهم في اصلاب الرجال وأرحام النساء الى يوم القيامة ولقد صدق الامام، فرغم فنائهم في معركة النهروان وفشل ثوراتهم المستمرة الا انهم استمروا ووجدوا من يناصرهم الى يوم الناس هذا.

وفي حادثة أخرى رواها الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن أبيه عن جده ان الامام علي (ع) كان يؤم الناس يوماً في الصلاة وهو يجهر بالقراءة فجهر ابن الكواء، من خلفه ﴿ولقد اوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾^(١)، فلما جهر ابن الكواء وهو خلف الامام، فسكت عنه حتى انهاها، فعاد الامام فأتم قراءته فلما شرع بذلك اعاد ابن الكواء الجهر بتلك الآية، فسكت الامام، فلم يزل كذلك يسكت هذا ويقرأ ذاك مراراً حتى قرأ الامام ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون﴾^(٢)، فسكت ابن الكواء وأتم الامام صلاته^(٣).

وكان الخوارج يرون في تلك الفترة ان الناس يصلحون بدون (الامرة) اي عدم وجوب الرياسة، ولكنهم وخلال تجربتهم القصيرة في معسكرهم وجدوا ان الأمر لا يمكن ان يصلح بدون امام أو أمير لذا أجمع امرهم على مبايعة عبد الله بن وهب الراسبي وخاطبوه بإمرة المؤمنين، وكان قد أبى عليهم وامتنع فاصروا على

(١) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٢) سورة الروم الآية ٦٠ .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٤) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٥) شرح النهج ٢ / ٣٠٠ وما بعدها.

بيعته فلما رأى ذلك منهم قال: «يا قوم استيتوا الرأي»، أي دعوا رأيكم يمضي عليه زمن حتى ينضج^(١).

ولما رأى الامام أن أمر الخوارج بدا يستفحل وأنهم قد لجؤا وباتوا يهددون استقرار الدولة وينشرون افكارهم ارتأى ان يرسل اليهم من يُناظرهم، وهكذا اختار عبد الله بن عباس الذي ذهب اليهم وخاطبهم قائلاً: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟، قالوا: قد كان للمؤمنين أمير، فلما حكم في دين الله خرج من الايمان فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له. فقال ابن عباس: لا ينبغي لمؤمن لم يشب ايمانه شك ان يُقرَّ على نفسه بالكفر، قالوا: انه قد حكم، قال: ان الله عزوجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد اذ يقول ﴿يُحْكَمْ بِهِ ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٢) فكيف في امامة قد اشكلت على المسلمين، فقالوا: بعد ان بطلت حجتهم، انه قد حكم عليه فلم يرض، فقال: ان الحكومة كالامامة ومتى فسق الامام وجبت معصيته^(٣) وكذلك الحكماء لما خالفا بُذت اقاويلهما، فلما أُسقط في أيديهم وعدموا الحجة تنادوا بينهم لاتجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم فان هذا من القوم الذين قال الله عزوجل فيهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٤)، وكانوا قبل هذا قد قالوا لابن عباس: اذا كان علي على حق لم يشك وقد حكم مضطراً فما باله حين ظفر لم يسب؟ فقال لهم ابن عباس: قد سمعتم الجواب في التحكيم، فاما قولكم في السب: افكنتم ساين امكم عائشة؟! فوضعوا اصابهم في اذانهم وقالوا امسك عنا حرب لسانك يا بن عباس فإنه طلق.. دلق، غواص على موضع الحجة^(٥)، ولست ارى علاقة في ذكر ابن عباس لأُم المؤمنين عائشة، اذ انها لم تشترك من قريب او بعيد في حرب صفين والظاهر انه يعني سيرة الامام في من غلبهم في

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٢٢ .

(٢) سورة المائدة الاية ٩٥ .

(٣) ان قاعدة وجوب عصيان الامام بعد أن يثبت فسقه تعتبر بداية للفكر الشيعي في هذا الصدد.

(٤) الكامل في اللغة ٢ / ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق ص ١٧٤ .

معركة الجمل التي اشتركت فيها عائشة، وقد كانت سيرة الامام علي(ع) في حربي الجمل وصفين تمثل سابقة للفقهاء في كافة المذاهب الاسلامية في حرب اهل القبلة (عدا الخوارج) فهو لم يجهز على جريح ولم يقتل أسيراً.

عاد ابن عباس بعد أن عجز عن اقناعهم بالرجوع ونبذ الفرقة وقد سأله الامام ما رأيت؟ قال ابن عباس: والله ما أدري ما هم، فقال له الامام هل رأيتم منافقين، قال والله ماسيماهم بسيما المنافقين، ان بين اعينهم لأثر السجود وهم يتأولون القرآن فقال له الامام... دعوهم مالم يسفكوا دماً او يغضبوا مالا^(١)، ثم قرر الامام ان يحدثهم بنفسه عسى ان ينجح فيما فشل فيه ابن عباس، فسأل النفر الذين ارسلهم مع ابن عباس وهم صعصعة بن صوحان العبدى وزياد بن النضر الحارثي: بأي القوم رأيتم أشد إطفاء^(٢)، قالوا يزيد بن قيس الأرحبي فركب الامام الى «حروراء» فجعل يتخللهم حتى وصل الى مضرب يزيد بن قيس فصلى ركعتين ثم خرج فاتكأ على قوسه وأقبل على الناس قائلاً: هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة... ثم كلمهم وناشدهم مناشدة رجل يريد اصلاحهم حتى لانوا.. وقالوا: إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم، وقد تبنا، فتب الى الله كما تبنا نعد لك فقال الامام: أنا استغفر الله من كل ذنب... فرجعوا معه الى الكوفة وهم ستة الاف^(٣)، ولكن المبرد يذكر في الكامل في اللغة ان الذين رجعوا معه ألفان^(٤)، وبدا ان الامام قد استطاع احتواء هذا التمرد وتهيئة الوضع الداخلي للتمهيد لحرب معاوية وفرض سيطرة الدولة المركزية على هذا الطرف المتمرد والذي كان الواجب الأهم والتحدي الأخطر الذي يواجه الدولة، ولقد كانت كلمة الامام (انا استغفر الله من كل ذنب) لاتعني عودته عن الحكومة وانما جرى بها مجرى التعريض والمواربة وهي كلمة مجاملة يرددها المسلمون يومياً، وقد

(١) شرح النهج ٢ / ٣١٠ .

(٢) أطفاه، مصدر أطف بالشيء: احاط به.

(٣) شرح النهج ٢ / ٣٧٩ .

(٤) الكامل في اللغة ٢ / ١٣٥ .

رضي بها المتمردون وعدّوها اجابة على سؤالهم، ولم تكن هذه الكلمة تتضمن اعترافاً بكفر أو ذنب، ولما عاد المتمردون الى الكوفة قالوا:

انما ينتظر امير المؤمنين ان يسمن الكراع وتجبى الأموال ثم ينهض بنا الى الشام، وكان من الممكن ان يجوز كلامهم بدون أي رد فعل لأن معظم اهل الكوفة قد شعروا بخطئهم في قبولهم التحكيم واجبار الامام على قبوله، وكذلك اصرارهم على اختيار ممثلهم في الحكومة شخصاً لا يرغب فيه الامام، والشعور السائد يرى ان هذه الحكومة لن تتوصل الى حل فيه رضا الله او تطبيقاً لاحكام الكتاب وسنة الرسول(ص)، لذا فإن الحرب لامناص منها وهذا ماكان يتوق اليه اهل العراق ويستعدون له كرد فعل على خطأهم في مواقفهم السابقة.

في تلك الساعات التي بدا فيها ان الأمور قد استتبت كانت القوى المتآمرة التي كان لها اليد الطولى في اثارة الفتنة وتغذيتها منذ البداية لاتريد ان تهدأ الأمور ويتوحد جيش الامام، وفي مثل هذه الظروف الحرجة قد تحدث كلمة واحدة شرخاً لايمكن رتقه، وهكذا بادر الأشعث بن قيس وهو رأس الفتنة بسؤال الامام (بعد ان علم بما حدث) قائلاً: يا أمير المؤمنين ان الناس قد تحدثوا انك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرًا... وكانت غايته واضحة كل الوضوح فهو يريد هتك ستر التورية والكناية وتضييق الخناق على الامام ليبوح بما في صدره واضطر الامام الى ان يخرج فيخطب في الناس قائلاً: من زعم اني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالاً فقد ضلّ، فبادر الخوارج الى الخروج من المسجد وهم يحكمون وعادوا الى شبهتهم الأولى وكما يعبر ابن أبي الحديد اصدق تعبير أن الدول التي تظهر فيها امارات الانقضاء والزوال، يتاح لها أمثال الأشعث من أولي الفساد في الأرض ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^(١).

مضى الخوارج في عصيانهم الجديد حتى خرجوا من الكوفة متوجهين الى

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٢ .

«النهروان» وقد عقدوا النية على الخلاف، وكان عزمهم قد استحکم على تطوير حركتهم ولذا لم يبقوا في الكوفة حيث لم يعرض لهم أحد، ولقوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم واستوصوا بالنصراني خيراً، وقالوا احفظوا ذمة نبيكم^(١). ويبدو أنهم منذ تلك الفترة استحلوا قتل المسلمين بعد ان رأوا ان دار الاسلام دار كفر. كان عدد الخوارج اربعة الاف وخلال مسيرهم لقيهم عبد الله بن خباب وهو ابن الصحابي خباب بن الارت وفي عنقه مصحف وهو يمتطي حماراً ومعه امرأته، فقالوا له: ان هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياء القرآن فأحيوه، وما أمات فاميتوه، ثم قالوا له: حدثنا عن اييك قال: اني سمعت أبي يقول سمعت رسول الله(ص) يقول «ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يسمي مؤمناً ويصبح كافراً فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل» قالوا فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا فما تقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان في السنين الست الأخيرة فأثنى خيراً، قالوا فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال ان علياً أعلم بالله وأشد توكفاً على دينه وأنفذ بصيرة، فقالوا: انك لست تتبع الهدى وانما تتبع الرجال على اسمائهم، ثم قربوه فقتلوه على شاطئ النهر ذبحاً وقتلوا امرأته وبقروا بطنها وكانت حاملاً وقتلوا غيرها من النساء^(٢).

كان قتل عبد الله بن خباب وهو مسلم لم يقترب جنائية تستوجب القتل ومعه زوجته والتمثيل بها وقتل نساء أخريات نقطة التحول الأولى في ابراز العقيدة التي تبناها الخوارج الذين كان معظمهم من القراء، وهذا العمل الذي انتشرت انبأؤه بسرعة لما كان لعبد الله بن خباب وأبيه من سمعة وكونه ابن صحابي جليل قد أوضح بشكل جلي ان عقيدة استحلال دماء المسلمين تعني

(١) باعتبار ان النصراني من أهل الذمة الذين أوصى بهم الرسول(ص)، شرح النهج ٢ / ٢٨٠ .

(٢) شرح النهج ٢ / ٢٨٢، مروج الذهب ٢ / ٢٠٤ و ٤٤٩، الطبري ٦ / ٤٦، ابن الأثير ٣ / ٣٤٢، مع اختلاف طفيف في الرواية بأن الذين قتلوا عبد الله هم الخوارج القادمين من البصرة للقاء اخوانهم من أهل الكوفة بعد ان قرأ رأيهم على الخروج واتخذوا (النهروان) مكاناً للقاء.

تعريض الجميع للخطر وقد أفرع ذلك أهل الكوفة واثارهم. وكان الامام يستعد في هذه الأثناء للمسير الى الشام وقد انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفاً وأتاه من البصرة عشرة الاف فيهم الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعدي، وقد سار من معسكره في النخيلة حتى بلغ الأنبار وذلك في سنة ثمان وثلاثين للهجرة وهو ينتظر تكامل قواته من بقية الأمصار فبلغته انباء المجزرة التي ارتكبها الخوارج الا ان خطته كانت تقضي بأن يسير الى الشام باعتبار ان القضاء على التمرد فيها هو الهدف الاستراتيجي الذي لو تم القضاء عليه فان الأهداف الثانوية ستضعف وسيكون القضاء عليها اكثر يسراً وقد خطب الامام اصحابه في الأنبار قائلاً: «سيروا الى قتلة المهاجرين والأنصار قدماً فإنهم طالما سعوا في اطفاء نور الله، وحرصوا على قتال رسول الله (ص) ومن معه، ألا أن رسول الله امرني بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا اليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين ولم نلقهم بعد»^(١).

فأبى عليه بعض اصحابه الا أن يبدأ بالخوارج ثم يسير الى الشام وكانت حجتهم في ذلك ان ترك الخوارج وهم يعيشون في الأرض فساداً قد يعرض عوائلهم وأهلهم وضعفاءهم في الكوفة الى الخطر رغم ان الامام قد ترك في الكوفة حامية وأميراً، ولكن الامام وجد نفسه مرة اخرى مضطراً لتبديل خطته تحت الحاح اصحابه، وهكذا قرر المسير الى الخوارج.



(١) مروج الذهب ٢ / ٤٠٤، ابن الأثير ٣ / ٣٣٩، ويقصد بالناكثين أصحاب الجمل والمارقين الخوارج اما القاسطين فهم معاوية وحزبه.

معركة النهروان

أرسل الامام رسولاً الى الخوارج بعد مسيره من الأنبار يدعوهم للرجوع الى الطاعة ولكنهم استحلوا قتل الرسول وهو الحارث بن مرة العبدي، ثم بعثوا الى الامام قائلين ان تبث من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لانفسنا اماماً فإننا منك براء، فطلب منهم الامام الذي لايزال يأمل في تهدئة الأمور ان ابعثوا بقتلة اخواني فاقتلهم ثم اتارككم الى أن افرغ من قتال أهل الشام، ولعل الله يقلب قلوبكم. فبعثوا اليه: كلنا قتلة أصحابك^(١)، وكلنا مستحل لدمائهم مشتركون في قتلهم وكان الرسول بينهم من يهود سواد العراق لأنه لو كان مسلماً لقتلوه كما قتلوا الرسول السابق.

وكان معسكر الخوارج على نهر طبرستان الذي يجري جنوب شرق بغداد من اتجاه الحدود الايرانية وعليه قنطرة تدعى قنطرة البردان، فسار الامام اليهم بجيشه ولما وصل قريباً منهم وكان الخوارج على ضفة النهر أتاه أحد طلابه فارساً يلث قائللاً ان الخوارج قد عبروا النهر وهو يقصد أنهم فروا باتجاه الشرق فقال الامام والله ما كذبت ولا كذبت وإن مصارعهم دون النطفة^(٢)، ثم تواتر عليه الفرسان

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٣٩ شرح النهج ٢ / ٤٠٥ .

(٢) النطفة: ماء النهر.

بنفس الخبر الا انه كان مصرأ على انهم ليم يعبروا النهر وعندما وصل جيش الامام اليهم وجدهم قد استعدوا للقتال ولم يعبروا كما قال لاصحابه ولعل تقارير الطلائع عن عبورهم كانت تخميناً لظنهم ان هذا العدد من الخوارج لا يمكن ان يفكروا بالصمود تجاه قوّة كبيرة جداً وان الانسحاب هو الحل المعقول أمامهم.

أصدر الامام أوامره الى الناس ان يكفوا عن القتال حتى يبدأوهم، وأمر الصحابي ابا ايوب الأنصاري برفع راية امان وان ينادي فيهم بأن من لجأ الى هذه الراية ممن لم يشترك في قتل المسلمين او استعراضهم فهو آمن، ومن انصرف الى الكوفة او المدائن فهو آمن أو خرج من هذه الجماعة فهو آمن، وقد رجع منهم نحو من مائة الى جيش الامام^(١)، ومال منهم نحو الف رجل الى راية أبي أيوب الأنصاري في ميمنة جيش الامام^(٢)، وجعل بعضهم يتسلل هارباً، كان عدد الخوارج في النهروان لا يزيد على ستة الاف قبل ان يرجع من رجع وكان منهم في الكوفة زهاء الفين لم يشتركوا في القتال وكان هؤلاء يسرون عقيدتهم، وقد صرح الامام قبيل المعركة لاصحابه انه لا يقتل منهم عشرة ولا يفلت من الخوارج عشرة^(٣).

وتصافّ القوم للقتال ووقف علي(ع) عليهم بنفسه، وفي محاولة أخيرة لاصلاح الأمر وحقن الدماء دعاهم للرجوع والتوبة فأبوا عليه، ثم بدأوا برمي نبالهم على الجيش حتى قتلوا ثلاثة من اصحاب الامام وحمل رجل يتشحط في دمه الى علي(ع) فقال: الله أكبر، الآن حلّ قتالهم.. احمّلوا على القوم.

كان جيش الامام يزيد على خمسة وأربعين ألفاً وهو الجيش الذي جمعه لحرب معاوية ولم يكن ماتبقى من الخوارج يزيد على أربعة آلاف، وقبل المعركة

(١) الطبري ٤٩ / ٦ .

(٢) الكامل في اللغة ١٣٩ / ٢ .

(٣) المصدر السابق ١٤٠ / ٢، شرح النهج ٣ / ٥، ابن الأثير ٤٠٥ / ٢ .

جرت مبارزات فردية^(١)، ثم حمل جيش الامام عليهم من كل جانب فطحنوهم في ساعة واحدة نظراً للتفوق الهائل في العدد والنية الصادقة في قتالهم، وقد قتل في المعركة رؤسائهم عبد الله بن وهب الراسبي قتله هانئ بن حاطب الأزدي، وزباد بن خطفة، وقتل زيد بن حصين قتله أبو أيوب الأنصاري، كما قتل ذو النثدية حرقوص بن زهير..

الا أن نصر بن مزاحم يذكر في كتابه وقعة صفين ان الذين اصيبوا من الخوارج خمسة آلاف وان من قتل من جيش الامام الف وثلاثمائة^(٢).

بعد انتهاء المعركة ركب الامام علي ومزبهم وهم صرعى فقال: لقد صرعكم من غركم، قيل ومن غرهم؟ قال: الشيطان وأنفس السوء فقال له أصحابه: قد قطع الله دابرهم الى اخر الدهر، فقال: كلا والذي نفسي بيده، انهم لفي اصلاب الرجال وأرحام النساء، لا تخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين دجله والفرات مع رجل يقال له الأشمط يخرج اليه رجل من اهل البيت فيقتله، ولا تخرج بعدها خارجة الى يوم القيامة^(٣).

وفي رواية ابن أبي الحديد في شرح النهج ان علياً (ع) استنطقهم بقتل عبد الله بن خباب فأقروا به، فقال لهم: انفردوا كئائب، وأقرت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الأخرى من قتل ابن خباب وقالوا للامام لنقتلنك كما قتلناه، فقال علي: والله لو أقر أهل الأرض كلهم بقتله هكذا وأنا اقدر عليهم لقتلتهم به، ثم التفت الى

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٣٩، مروج الذهب ٢ / ٤٠٤، حمل رجل من الخوارج على صف جند الامام وهو يرتجز: أقتلهم ولا أرى علياً - ولو بدا أوجرته خطياً، فقتل ثلاثة من جيش الامام فخرج اليه الامام بنفسه فقتله فلما خالطه السيف قال: حبذا الرواح الى الجنة، فقال عبد الله بن وهب قائد الخوارج: ما أدري ألى الجنة أم النار، وهو يدل علي شكّه بما يقومون به فسمعه رجل من بني سعد احدى بطون تميم فقال: انما حضرت اغتراراً بهذا وأراه قد شك، فانخزل بجماعة من أصحابه.

(٢) وقعة صفين ص ٥٨٨، كما ذكر المبرد في الكامل ان من اصيب في النهروان من جيش الامام الفين وثلاثمائة ٢ / ١٣٩.

(٣) مروج الذهب ٢ / ٤٠٢، الطبري ٦ / ٥٠ شرح النهج ٢ / ٣١١، مع اختلاف طفيف في الرواية.

اصحابه فقال لهم: شدوا عليهم، وأنا أول من يشد عليهم، وحمل بذى الفقار حملة منكرة ثلاث مرات، كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه، ثم يخرج فيسوي به بركبيه، ثم يحمل به حتى أفناهم^(١).

ثم أمر الامام اصحابه ان يطلبوا ذا الثدية فطلبوه طلباً شديداً وقلبوا القتلى ظهراً لبطن فلم يقدروا عليه، فساء ذلك علياً وقال والله ما كذبت ولا كذبت، ثم وجدوه وقد صار بعضه في الماء عند موضع دالية، فلما سحبوه خارج الماء فإذا هو المخدج ووجدوا يده كثدي المرأة إذا مدت كانت بطول اليد الأخرى، وإذا تركت اجتمعت وتقلصت، عليها شعرات مثل شوارب الهرة، فلما وجدوه قطعوا يده ونصبوها على رمح^(٢).



(١) في نسخة أخرى: شدوا عليهم، وأنا أول من يشد عليهم، وحمل بذى الفقار حملة منكرة ثلاث مرات، كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه، ثم يخرج فيسوي به بركبيه، ثم يحمل به حتى أفناهم. (٢) في نسخة أخرى: شدوا عليهم، وأنا أول من يشد عليهم، وحمل بذى الفقار حملة منكرة ثلاث مرات، كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه، ثم يخرج فيسوي به بركبيه، ثم يحمل به حتى أفناهم.

(١) شرح النهج ٢ / ٣٨٢، ابن الأثير ٣ / ٣٤٨. (٢) نفس المصدر.

ذو الثَدِيَّة

يكاد يجمع المؤرخون ونقله الحديث على ان رسول الله (ص) قد صرح بظهور الخوارج ومروقهم عن الدين، وقد وصفهم الرسول (ص) بانهم «يقرأون القرآن ولا يجاوز تراقيهم، يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(١). وفي حديث آخر وصفهم بأنهم (أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم اجرا عند الله يوم القيامة)^(٢).

وتبدأ أول اشارة للخوارج بعد معركة خيبر اذ كان رسول الله (ص) يقسم الغنائم لمن شهد معه الحديبية اذ وقف عليه حرقوص بن زهير التميمي الملقب بذي الخويصرة فقال: «يا رسول الله أعدل»، فقال رسول الله (ص): «ويلك من يعدل اذا لم أعدل وقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل»، فقال عمر بن

(١) صحيح مسلم ١ / ٣٩٣، عن أبي سعيد الخدري (رض).

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٩٦، عن علي (ع)، سيرة ابن هشام ٤ / ٤٩٦.

الخطاب (رض): ائذن لي فاضرب عنقه، فقال رسول الله (ص): دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم... يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر الى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى قدذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة، او مثل البضعة تدردر (أي تذهب وتجيء متحركة) ويخرجون على حين فرقة من الناس^(١).

وفي رواية المبرد في الكامل^(٢)، أن النبي (ص) أمر أبا بكر الصديق (رض) بقتله فمضى ثم رجع فقال يارسول الله لم أره فقال الرسول: لو قتل هذا ما اختلف اثنان في دين الله وفي رواية اخرى ذكرها المبرد عن ابراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة في استاده ان علياً (ع) وجه الى رسول الله بغنائم اليمن فقسمها ارباعاً فأعطى ربعاً للأقرع بن حابس وربعاً لزيد الخيل الطائي وربعاً لعينة بن حصن الفزاري وربعاً لعلقمة بن علاقة الكلابي فقام اليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ناتئ الجبهة فقال: رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله حتى تورّد خذاه ثم قال: ايامني الله عزوجل على أهل الأرض ولا تأمنوني... ان من يجابة الرسول بهذا الخطاب لا يمكن ان يكون ايمانه تاماً بالله ورسوله.

وقد روي عن الرسول (ص) أحاديث عديدة ان الذي يقتل هؤلاء الخوارج ادنى الطائفتين الى الحق ولهذا رأينا الامام يحرص أشد الحرص على البحث عن ذي الثدي بعد المعركة لأن في هذا اثبات آخر للشاكين انه على الحق في تلك

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٤١، شرح النهج ٢ / ٢٧٦، صحيح البخاري ٢ / ١٨٤، صحيح مسلم ١ / ٣٩٣، وقد جمعت في رواية واحدة، وفي شرح النوري لصحيح مسلم ٦ / ٨٦ قال: ضبطوه في الصحيح بوجهين أحدهما على حين فرقه بخاء مهملة ثم ياء بعدها نون وثانيهما على خير فرقة بخاء معجمة مفتوحة بعدها ياء ثم راء والرأي الثاني هو القول المأثور عن الرسول (ص) والمراد بخير فرقة علي واصحابه كما حدث.

(٢) الكامل في اللغة ٢ / ١٤١.

الفتنة وان هذا الاثبات يأتي عن رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى، خاصة وأن تلك الفتنة كادت أن تزيع ابصار أشد الناس تمسكاً بالدين والتصاقاً بعلي (ع) فقد روي عن جندب بن زهير وهو من اصحاب الامام ومن خلص أوليائه انه قال: ^(١) لما فارق الخوارج علياً (ع) خرج في طلبهم وخرجنا معه فانتهينا الى عسكر القوم فإذا لهم دوي كدوي النحل من قراءة القرآن وإذا فيهم من اصحاب النقبات واصحاب البرانس (وهم القراء والمتفقهون في الدين والنسك) فلما رأيتهم دخلني من ذلك شدة، فتنحيت فرگزت رمحي ونزلت عن فرسي، ونزعت برنسي، فنشرت عليه درعي وأخذت بمقود فرسي ثم قمت أصلي وأنا أقول: اللهم ان كان قتال هؤلاء القوم لك طاعة فاذن لي فيه، وإن كان معصية فأرني براءك، فبينما أنا كذلك اذ أقبل علي (ع) فلما دنا مني قال: تعوذ بالله يا جندب من شر السخط وكأن الامام أحس بما يعتلج في صدر هذا المؤمن من شك في قتال قوم يقرأون القرآن ويتنسكون وجلهم من القراء، ويضيف جندب: ان الامام ركب وقال لي: يا جندب، اني باعث اليهم رجلاً يدعوهم الى كتاب ربهم وسنة نبيهم فلا يقبل عليهم بوجهه حتى يرشقوه بالنبل، ثم قال من يأخذ هذا المصحف فيمشي به الى هؤلاء القوم فيدعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه وهو مقتول وله الجنة، فأجابه شاب من بني عامر بن صعصعة، فخرج الشاب بالمصحف الى القوم، فلما دنا منهم نشبوه، فقال علي (ع) دونكم القوم، قال جندب: فقتلت بكفي هذه ثمانية قبل أن اصلي الظهر والحمد لله.

(١) كنز العمال في سنن الأقوال ٦ / ٧١، الحديث رقم ١١٧٩ كما ذكره الطبري في تاريخه ٤ /

(٢) شرح النهج ٢ / ٢٧٧. - راجع سابقاً في فهارس علماء الحديث.

وروي عن ابي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله(ص): «لاتقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان، دعوتهما واحدة، فيبنا هم كذلك مرقت منهم مارقة، يقتلهم اولى الطائفتين بالحق»^(١).

وقد جاءت تسمية المارقين التي كان يطلقها الامام عليهم من حديث الرسول(ص) «يمرقون من الدين...» اما كلمة الخوارج فقد جاءت كما اعتقد من حديث رسول الله(ص) «أما أنه سيخرج من ضئضي هذا قوم...» الحديث^(٢)، أو من خروجهم بالسيف على الحكام وكما يزعمون فانهم كانوا يعتبرون دار الاسلام دار كفر ينبغي الخروج منها ومحاربة أهلها، وهناك رأي آخر في تسميتهم بالخوارج اذ ينسبونها الى الآية الكريمة ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾^(٣).

وقد خطب عبد الله بن وهب الراسبي فيهم قائلاً: «أخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها.. الى بعض كور الجبال..» وهذا قول الخوارج في أنفسهم، أما كلمة الحرورية فقد جاءت من تجمعهم في حروراء قرب الكوفة، وعندما حاورهم الامام علي(ع) ورجع منهم ألفان قال لهم: مانسميكم؟ ثم قال: أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء، والنسب الى مثل حروراء حروري^(٤). وسرى أن كلمة المارقين والحرورية قد محا عليها الزمن تدريجياً وبقي اسم الخوارج وذلك ان كل من كان يخرج على الدولة وخاصة في زمن العباسيين كان يطلق عليه اسم خارجي ليختلط الأمر على الناس وهذا ما كان يخدم سياسة الدولة التي تستغل نفور الناس من الخوارج.

وقد اختلف المؤرخون في ذكر أول من حكم، اذ أن رفض التحكيم كان

(١) شرح النهج ٢ / ٢٦٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٦٦ .

(٣) النساء آية ١٠٠ .

(٤) الكامل في اللغة ٢ / ١٣٦، النسب الصحيح حروراي وكل ما كان في آخره ألف التأنيث المدودة، ولكنه نسب الى البلد بحذف الزوائد ف قيل حروري .

المبدأ الذي جمع الخوارج حوله واعتبروه شعاراً لهم في جميع مراحل حركتهم ويقال أن أول من لفظ بالحكومة ولم يرفع صوته بها رجل يدعى الحجاج بن عبد الله ويعرف بالبرك، وهو الذي ضرب معاوية على اليته بعد أن تأمر الخوارج على قتل علي(ع) ومعاوية وعمر بن العاص كما يزعمون.

ويقال ان البرك لما سمع بذكر الحكمين قال: ايحكم في دين الله لا حكم الا لله، فسمعه سامع فقال: طعن والله فانفذ^(١)، وأول من حكم بين الصنفين رجل من بني يشكر كان من أصحاب الامام، فانه حمل على رجل من جيش الامام فقتله غيلة ومرق بين الصنفين فحكم وحمل على اصحاب معاوية فكثروه فرجع الى ناحية جيش الامام فحمل على رجل منهم، فخرج اليه رجل من همدان فقتله وفي ذلك يقول شاعر من همدان:

وما كان أغنى يشكري عن التي تصلي بها جمرأ من النار حامياً

غداة ينادي والرماح تنوشه خلعت علياً بادياً ومعاوية^(٢)

وذكر ابن أبي الحديد^(٣)، عن كتاب (الأوائل) لأبي هلال العسكري ان اول من قال (لاحكم الا لله) عروة بن حدير قالها بصنفين وقيل ايضاً ان اول من حكم زيد بن عاصم المحاربي.



(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٤٠.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٤٠.

(٣) شرح النهج ٢ / ٢٧١.

دروس من معركة النهروان

مما يلفت النظر ان المؤرخين المسلمين لم يعيروا اهمية في سردهم للمعارك الحربية لتفاصيل الخطط الحربية الا فيما ندر، خاصة وان التاريخ هو سلسلة من الصراعات التي يستخدم فيها البشر والآلة وحسب الزمان والمكان وان من يستطيع ان يطور استخدام البشر والآلة هو الذي يضمن النصر في صراع الارادات التي يتوقف عليه مصير الامم، لذا فان العلم الحربي يعد من أهم العلوم الذي ينبغي الاعتناء بها طالما ان الصراع كان ولا يزال وسيبقى معتمداً على القوة اولا واخيراً للانتصار. لقد كان المؤرخون يهتمون بذكر تفاصيل المعارك والمبارزات الفردية والأراجيز والأشعار التي ترافق الصدامات الفردية وهذا دليل اعجابهم بالبطولة الفردية وعدم استيعابهم للبطولة الجماعية التي تكونها الخطط والاستخدام والاستعداد من كافة النواحي سواء كانت مادية او معنوية، وهذا النهج لا يكفي لاعطاء صورة واضحة للخطط الموضوعة للتغلب على العدو. ورغم ان المعارك الكبرى في الاسلام كانت ولا شك تبنى على خطط مبدعة ولكن الضوء لم يسلط عليها بدرجة كافية، ولذا فاننا - في عصرنا هذا - نحتاج الى ابراز هذا الجانب في سردنا للمعارك المهمة، وفي معركة النهروان عباً الامام

جيشه على الشكل التقليدي للتعبة الاسلامية وهي الميمنة والميسرة والقلب^(١)، وجعل على ميمنته حجر بن عدي وعلى ميسرته شيب بن ربعي^(٢)، وعلى الخيل ابا ايوب الأنصاري وعلى الرجالة ابا قتادة الأنصاري وعلى اهل المدينة وهم سبعمائة او ثمانمائة قيس بن سعد الأنصاري، اما الخوارج الذين كانوا بين اربعة الاف او الفين وثمانمائة على اختلاف الروايات فقد جعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين وعلى الميسرة شريح بن أوفى وعلى الخيل (وكانوا ثلاثمائة فارس) حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير وقد جعلوا خيلهم بعيدة نسبياً عن الرجالة فلما شاهدتهم الامام بعث الفي فارس ليكونوا بازائهم، وضع الامام خطته بتقديم الخيالة ليكونوا صفّاً أول ووضع خلفهم رماة السهام صفّاً ثانياً ووضع بقية الرجالة خلفهم، ولم يبدأهم بقتال، فلما هجم الخوارج وهم رجالة قطعوا مسافة طويلة ليصلوا مجهدين فشدوا على الناس فافترت الخيالة في الصف الأول الى فرقتين وصاروا في الجوانب تاركين للخوارج المجال للاصطدام بالرماة الذين استقبلوهم برمي كثيف ثم عطف عليهم الخيل من اليمين واليسار واطبقوا عليهم من كل جانب فلم يستطيعوا الحركة والقتال لانعدام مجال المناورة، فقتلوهم جميعاً في ساعة واحدة، اما خيلهم التي لم يسمح لها بالاشتراك في المعركة في البداية فانهم لما رأوا رجالتهم قد خمدوا بادروا بالترجل ليعينوا اصحابهم ولكن الخيل التي وضعها الامام بازائهم بقيادة الأسود بن قيس المرادي لم تسمح لهم بذلك واسرعت بمهاجمتهم حتى افنؤهم ولم تدم المعركة سوى ساعات، ويذكر الطبري في تاريخ الأمم عن أبي مخنف عن رواه قال: ما هو الا أن لقينا أهل البصرة فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا، قبل ان تشتد شوكتهم ونكايتهم^(٣).

(١) الطبري ٤ / ٦٤ .

(٢) ذكره الطبري، الا أن بعض المصادر تشير الى أن هذا الرجل مع الخوارج وقد جعلوه على صلاتهم قبل أن يؤمروا عبد الله بن وهب . انظر الكامل للمبرد ١٥٧ / ٢ - ١٦٣، ثم ذكره الطبري ٤ / ٦٨، وذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ أنه كان على حريهم (أي الخوارج) ٣ / ٣٢٦ .

(٣) الطبري ٤ / ٦٤، ويبدو من اشارة الطبري هذه ان معظم الخوارج في تلك المرحلة كانوا من أهل البصرة .

لقد اخطأ الخوارج حين مارسوا حرباً نظامية تجاه قوة تفوقهم عدة اضعاف خاصة وان جيش الامام كان يقاتل بعزيمة صادقة ومعنويات عالية كما كان يفعل الخوارج، وفي مستقبل الايام استطاع الخوارج القضاء على جيوش تفوقهم اضعافاً عديدة حينما كانت هذه الجيوش فاقدة للرجة في القتال وكانت ترى ان من يدفعها للقتال احق بأن يقاتل، ولقد تعلم الخوارج درساً من هذه المعركة، خاصة وان حركاتهم كلها كانت تتميز بقلّة عددهم نسبة الى الجيوش التي كانت تحاربهم، لذا لجأوا الى اسلوب الكر والفر، أو كما يسمى بالمصطلحات الحديثة في حروب العصابات، «اضرب واهرب»، وكانوا يتوخون مباغتة عدوهم، او بياته، او ضرب المجنّبات والمؤخرة وقد استخدموا الاستطلاع والحصول على المعلومات عن حركة عدوهم، ولقد اهلّتهم سرعة الحركة التي جاءت من قلة عددهم وعدم وجود ذيل اداري اضافة الى كون معظمهم من الخيالة لأن يمارسوا (حرب العصابات) وقد طوروها حتى استطاعوا في مناسبات عديدة ان يهزموا جيوشاً كبيرة بعد ان يجهدوها ويفرقوها ويحطموا معنوياتها وباعداد صغيرة لا يمكن تخيلها كما سنتطرق الى ذلك.



خلاف أهل العراق وطاعة أهل الشام

لقد اوقع رفع المصاحف في ذروة المعركة وجيش الامام يوشك على الانتصار وجني ثمار المعركة، الاختلاف والفرقة في هذا الجيش والتي ادت بالنتيجة الى انفصال جزء من هذا الجيش ووقوع الحرب بينهم، ولم يقع اي خلاف في جيش معاوية الذي قرر بنصيحة ومشورة من عمرو بن العاص الرجل الثاني في الجيش الذي كان يمر بساعات حرجة وكان قاب قوسين او ادنى من الهزيمة الكاملة ان يرفع المصاحف ويطلب وقف القتال والتحكيم، وفي هذا التبدل الذي يعتبر جوهرياً في سياسة معاوية الذي كانت مطالبه «الطلب بدم عثمان» لم يستشر اياً من قادته او رؤوس اصحابه، وهؤلاء بدورهم لم يبدوا أي اعتراض هم او عساكرهم ولم يسجل التاريخ كلمة واحدة تبين تدخل القيادات الدنيا او الجيوش في قرار القيادة السياسية الذي كان مفاجئاً للطرفين بدرجة متساوية، لقد كان الطرفان قريبي عهد بيدء الرسالة وتحمسهم لها متقارباً ومن المفترض انهم لا يقاتلون لغرض تثبيت ملك معاوية وانما كانوا يضحون بارواحهم بهذا الاندفاع بسبب خلفية ايمان بان ما يقاتلون من اجله هو الحق وان الدين والعقيدة تحتهم عليهم القتال وعليه فان اي تغيير في المطالب والسياسة العامة كانت مسألة تهم الجميع لأنهم لم يكونوا مجبرين على الاشتراك في القتال، لقد وافق جند الشام

على التحكيم بسهولة تدعو الى الدهشة، وكان من الممكن ان يقبلوا أي اجراء اخر حتى لو كان طلب الصلح والمودة او حتى الرضوخ الكامل لمطالب الامام علي(ع)، لم يكذب يميني على هجرة الرسول الأكرم(ص) سوى سبعة وثلاثين عاماً وهذه الهجرة التي تعتبر بداية انتشار الاسلام ليصل الى الاصقاع التي تكونت منها جيوش الشام واعني بها اليمن وبقية مناطق شبه الجزيرة العربية، وهذه الفترة لم تؤثر بدرجة كبيرة على مقاييس المسلمين الذين كان الدين وتعاليمه هو الدافع لكل تحرك سياسي او عسكري يقومون به، ويبدو موقف اهل الشام هذا غريباً ومتناقضاً اذا قارناه بالموقف الذي اتخذه اهل العراق قادة ومقاتلين، والذي كان فورياً ومتطرفاً سلباً وايجاباً تجاه التحكيم.

ان جيش العراق لم ينتظر رأي القيادة السياسية / الدينية المتمثلة بالخليفة الذي يقود المعركة والذي يمثل السلطة الشرعية التي اختارها المسلمون لانفسهم باسلوب لانتشوبه شائبة والتي كانت مفترضة الطاعة شرعاً، لقد قاتل اهل العراق مع هذه القيادة في معركة الجمل وصفين وقدموا الالف الشهداء بهدف اخضاع المتمردين على الشرعية وانهاء تمردهم، اما في الجانب الآخر الذي كان من الأولى شرعاً وعقلاً ان تظهر فيه امارات الخلاف فلم يحدث شيء رغم ان القيادة لم تكن شرعية، ومن الواضح ان الملك هو الهدف الذي تسعى اليه وليس الطلب بدم عثمان اذ انها تركت الخليفة المقتول لمصيره عندما كانت تستطيع ان تنجده وتحميه.

لقد اتخذ جند العراق قرارهم بسرعة بين موافق على التحكيم ومعارض عليه، ثم تبدلت هذه المواقف بنفس السرعة اذ اعترض الموافق ووافق المعارض، كل ذلك والامام الذي حاول في بداية الأمر احتواء الموقف وابداء الرأي تجاهه يبدو عاجزاً عن كبح جماح التطرف الذي وصل الى حد التهديد بقتله، لقد حذرهم من أن رفع المصاحف ماهو الا خدعة وان التحكيم - بعد ان بلغ الحق مقطعه - واخذت السيوف من أهل الشام ما أخذت ليس الا محاولة لتجنب الهزيمة وبالتالي تجنب الرضوخ للشرعية، لقد حاول الامام ان يقنع المتطرفين ان قيادة الشام المتمثلة بمعاوية وأناس سماهم ليسوا باصحاب دين حتى يحتكموا الى الكتاب، ولكن كل

محاولاته ذهبت ادراج الرياح فلقد كانت المعارضة حاسمة وقوية مما يشكل خروجاً على الشرعية والطاعة المفترضة لأمر المؤمنين على المؤمنين، لقد أدت حدة الموقف الى اسكات الأصوات التي كانت ترفض التحكيم في البداية، ولم يكن اختلاف جند العراق على مستوى المقاتلين وحسب، بل ان القادة انفسهم كانوا في الواقع هم المحركون لمسار الفتنة والاختلاف، وكان اكبر قائدين في جيش الامام وهما مالك الأشتر^(١) والاشعث بن قيس على طرفي نقيض، الأول يرى ما يراه الامام من أن التحكيم خدعة سوف تؤدي الى انكسار أهل العراق الى جانب مخالفة الشرعية، اما الثاني فيرى ان الناس فئيت ولا بد من وضع حد للقتال حتى لو أدى ذلك الى الفرقة والافتتال او الى هزيمة سياسية او عسكرية لأهل العراق (ولعل هذا ما كان يريد في اعماقه).

والواقع ان موقف الأشتر الذي لا يشابهه احد في اخلاصه وشده وولائه يوضح الجانب الايجابي في تمسك فئة كبيرة من أهل العراق بالطاعة المتبصرة وفق ماتمليه الشريعة كما أن الأشعث ومن تبعه يمثل الانتهازية التي لاتجد رادعا من دين في سبيل تحقيق غاياتها ولو أدى ذلك الى كوارث تمس الأمة. ان سيرة

(١) في المعركة الرئيسية وهي التي جرت يوم الهير، وكان يوماً من أيام الشعرى طويل شديد الحر، ترامى الناس بالنبل، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت رماحهم، ثم نزل القوم عن خيولهم فمشى بعضهم الى بعض بالسيوف والعمد فلم يكن يسمع سماع الا تغمغم القوم وصليل الحديد على الهام وتكادم الأفواه، وكسفت الشمس وضلت الألوية والرايات ومرت مواقيت الصلاة لم يسجد لله فيهن الا تكبيراً، في تلك الحالة أقبل الأشتر على فرس كميت محذوف وقد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا معاشر المؤمنين فقد حمي الوطيس، وهنا يقول أحد المقاتلين لصاحبه (أي رجل هذا لو كانت له نية) فيرد عليه صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلك، إن رجلاً فيما ترى قد سبغ في الدماء وما اضجرته الحرب وقد غلت هام الكمة من الحر وبلغت القلوب الحناجر وهو كما تراه جذعاً يقول هذه المقالة... اللهم لاتبقنا بعد هذا (وقعة صفين ص ٤٨٠) ويضيف ابن ابي الحديد في شرحه ٢ / ٢١٣ بعد أن ينقل هذا النص: لله أم قامت عن الأشتر! لو أن انساناً يقسم ان الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم اشجع منه إلا استأذه عليه السلام لما خشيت عليه الاثم.

هذا الرجل تمثل الاستعداد الكامل لتبديل المواقف حسب المصلحة الشخصية وحسب ماتمليه عليه تقييماته الخاصة بالمستقبل بغض النظر عن موافقة هذه المواقف مع القيم والمبادئ الاسلامية بل إن هذه المواقف كانت تتبدل وفق هواهم دون الرجوع الى القيادة او سماع رأيها، فبعد الخلاف على التحكيم وقبوله اختار معاوية عمرو بن العاص ممثلاً له وكان اختياره صحيحاً ومنطقياً، فعمرو أحد أبرز قاداتهم وممن كان على بينة من هواه في خلع علي(ع) لإحني واحقاد قديمة، وهو موعود بملك مصر طعمة ان انتصر معاوية، ولذا فهو في النهاية خير من يدافع عن قضيته ويلتزم بموقفه من الأزمة ولم يلق هذا الاختيار اي اعتراض من أهل الشام ولو جرى اختيار شخص آخر لما كان هناك اعتراض، اما أهل العراق فقد أجبروا الامام على تعيين ابي موسى الأشعري رغم علمهم بانحرافه عن الامام ومواقفه السابقة على ما فيه من غفلة وسذاجة لا يصلح معها للتحكيم في امر مهم وحاسم من أمور المسلمين، لقد تم هذا الاختيار ووافق عليه الامام مرغماً بعد أن كان قد رشح اناساً يثق بأهليتهم لهذه السفارة ومرة اخرى نشاهد الامام مأموراً وليس آمراً على حد تعبيره رغم ان اصرار من أصر على أبي موسى قد أدى الى تغيير الأمور بشكل حاسم على كل الأصعدة وكانت له نتائج سلبية على أهل العراق أنفسهم وعلى سير الخلافة الطبيعية المفترض ان تستمر به وحولها الى ملكية وراثية لا دخل للمسلمين في خياراتها بل ان هذا الاختيار كان بدايةً لحرب ابادة شنها الأمويون على الخوارج وهم الذين اصروا عليه، وكان المفروض ان يحدث العكس تماماً، اذ ان معاوية كان والياً على احدى ولايات المسلمين وكان أمر تعيين الولاة بيد الخليفة الذي له ان يعين او يعزل من يشاء وفق معايير الاسلام، لقد اشتكى الامام في مناسبات عديدة من خلاف اهل العراق وعصيانهم لأوامره حتى في اشد الظروف، ففي الغزوة التي قام بها النعمان بن بشير على العراق بعد التحكيم^(١) حتى وصل الى عين التمر والأنبار وهي قرية جداً من عاصمة الخلافة

(١) تاريخ الطبري ١٠٢ / ٤ .

(الكوفة) استنهض الامام جيشه للتصدي لهم وملاحقتهم الا أنهم خذلوه وتقاعسوا ولولا همة احد قواده واندفاعه^(١) لما نهض منهم احد وقد كان نفورهم الى عدوهم متأخراً ولذلك لم يثمر عن نتيجة تذكر، وفي الغزوة التي قام بها بسر بن ارطأة احد قواد معاوية على الحجاز واليمن استثار الامام جنوده وقواده ولكنه جوبه بالتردد الى ان نهض احد قواده (جارية بن قدامة السعدي) لمحاربة بسر وطرده. وأرسل معاوية جيشاً بقيادة عبد الله بن مسعدة الفزاري وأمره ان يأتي تيماء ومكة والمدينة وأن يجبي الأموال، فأرسل له الامام جيشاً بقيادة (المسيب بن نجبة الفزاري) فحاصر جيش معاوية ولكنه لما أوشك على النصر رق لهم لأنهم من قومه وقال لجنده ان عيوني اخبرتني ان جنداً اقبل اليكم من الشام ليبرر انسحابه، وانسحب بقواته رغم ان هذا القائد ممن يعتمد عليه الامام وقد وقف فيما بعد موقفاً استشهادياً يعبر عن ندمه واصلاح شأنه^(٢).

ان السر في خلاف أهل العراق وطاعة اهل الشام يعود الى اسباب سياسية واجتماعية ونفسية ولا يمكن - في وقتنا هذا - الجزم في صحة هذه الأسباب التي ستتطرق اليها لأن حالة الفتنة التي حدثت وما سبقها من قتل الخليفة الثالث لا يمكن تفسيرها على ظواهرها فقط - فالسياسة هي السياسة - كانت وستظل تدار من وراء الكواليس وان ما يظهر من الحقائق عن دوافع الأحداث لا يمثل الا الجزء فقط، إذ أن المؤامرات وشهوة الحكم والتحالفات السرية والاغراء والانحراف عن الجادة والطموحات الشخصية تشكل دائماً الجانب الخفي لتحريك الأحداث المهمة، وفي هذه الفتنة التي ادت الى انقسام جيش العراق وظهور الخوارج وسقوط الخلافة وتحولها الى ملكية يمكن تلمس بعض الأسباب

(١) هو سعيد بن قيس الهمداني.

(٢) كان المسيب القائد الثاني في حركة التوابين التي تشكلت بعد استشهاد الامام الحسين(ع) وقد تحرك هؤلاء التوابون لمقاتلة بني مروان والتفوا مع الجيش الذي ارسله مروان الى العراق في «عين الورد» حيث استشهد معظمهم وفشلت حركتهم التي كان دافعها الندم على عدم نصرة الحسين(ع) وكان فشل هذه الحركة تمهيداً لظهور المختار في الكوفة وسيطرته عليها وطرده ولادة ابن الزبير منها حتى قُتل هو الآخر على يد مصعب بن الزبير.

التي ادت اليها «في جيش العراق»:

١ - كانت خلافة الامام علي(ع) امتداداً لعصر الرسول(ص) في تطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بها الاسلام ولم يكن الامام يتساهل في صغيرة أو كبيرة فيما يخص ذلك وعلى سبيل المثال فإن الامام ساوى بين المسلمين في العطاء ولم ير فضلاً لعربي على اعجمي او لقرشي على عربي او لهاشمي على سائر العرب الا فضل التقوى، والامام رفض تعيين الولاة الذين لا يرى فيهم الأهلية وإن ادى ذلك الى خلق مشاكل كبيرة امامه كما رفض استرضاء طلحة او الزبير بتسليمهما ولايتي البصرة والكوفة للذين كانا يطمحان فيهما، ولم يكن يرتضي كسب الأنصار من رؤساء القبائل بالمال كما كان معاوية يفعل وكما نُصح أكثر من مرة وبعد هذا فقد كان في سيرته الشخصية رجلاً كسائر المسلمين يجالس الفقراء ويلبس الأزار الخشن ويأكل ما يأكل أدنى المسلمين، ولم تكن هذه السيرة لتعطي اي مجال لطامح ان يطمح بما ليس له ولذا فقد نفرت منه قلوب من كان يعمل او يقاتل من أجل الدنيا او من كان يطمح بمنصب او ولاية فاستثقل الكثير من الرؤساء خلافته وطمحوا بابصارهم الى معاوية، وكان لهؤلاء الرؤساء دورٌ بارزٌ في العصيان والفتنة ظاهراً وباطناً.

٢ - كان جند الفتح الذين فتحوا لشام وسكنوها لاحقاً من أهل اليمن في غالبيتهم وكان عمر بن الخطاب(رض) قد استنفرهم لفتح الشام وهم بعيدون عن عاصمة الخلافة الأولى (المدينة) ورغم اسلامهم الا أنهم لم يمروا بمركز الاسلام ولم يلتقوا باصحاب رسول الله(ص) وجلهم لم يتفقه في الدين وكان الجهل متفشياً فيهم^(١) حتى أن الصحابة الذين سكنوا الشام او ابعدوا اليها بسبب ما... هالهم ماشاهدوا من امور تختلف عما تعودوا عليه في المدينة فضجوا بالشكوى

(١) ذكر المسعودي في مروجه ٣ / ٣٢ وما بعدها أن بعض الأخباريين ذكر انه قال لرجل من اهل الشام من زعمانهم وأهل الرأي منهم: من هو أبو تراب هذا الذي يلعنه الامام على المنبر؟ قال أراه لصاً من لصوص الفتن، وعندما استولى عبد الله بن علي العباسي على الشام وجه الى الخليفة ابي العباس السفاح اشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام فحلفوا لأبي العباس انهم ماعلموا لرسول الله(ص) ==

والتذمّر^(١).

أما جند العراق فقد كانوا في معظمهم من القراء ومن المتفقهين في الدين وكان معظم الصحابة الأحياء في هذا الجيش بما فيهم سبعون بدرياً^(٢)، وكان انتقال مركز الخلافة الى الكوفة قد جعل منها مركزاً للعلوم الاسلاميه لكثرة من تلقى العلم عن رسول الله(ص) فيها وهذه الميزة قد جعلت معظم جند العراق يقاتلون عن نية وعقيدة دينية ليس الا، لذا كان لرفع المصاحف ردّ فعل قوي وفوري خاصة عند القراء الذين تأولوا القرآن ولم يميزوا بين خدعة الحرب وبين احكام القرآن وقد قبلوا التحكيم للوهلة الأولى، ولما تبين لهم بعد فترة قصيرة خطؤهم بادروا الى رفض التحكيم بنفس الاندفاع، ولكن بعد ان وافق عليه الامام بناء على اصرارهم وأعطى عهداً ولم يكن بوسعه بعد أن ينقض عهداً.

== قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة، ويضيف المسعودي في ذكر أخلاق العامة انهم يسودون غير السيد، ويفضلون غير الفاضل، ويقولون بعلم غير العالم وهم اتباع من سبق اليهم ثم يقول انظر الى اجماع ملثهم ان رسول الله(ص) اقام يدعو الخلق الى الله اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوحي وعلمه على أصحابه فيكتبونه ويدوتونه ويلتقطونه لفظاً لفظاً، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله، ثم كتب له صلى الله عليه قبل وفاته بشهور، فاشادوا بذكره، ورفعوا منزلته: بأن جعلوه كاتباً للوحي وعظموه بهذه الكلمة، و اضافوا اليها وسلبوها عن غيره واسقطوا ذكر سواه .

(١) أبعد الصحابي أبي ذر الغفاري الى الشام في زمن الخليفة الثالث وكان معاوية والياً عليها فأخذ يحرض الناس على معاوية لما شاهده من اسراف وبذخ لم يتعوده في مدينة الرسول(ص) ومن مظاهر الملك التي تختلف عن الحياة البسيطة التي كان الخليفة والصحابة يعيشونها هناك، مما اضطر معاوية الى أن يطلب من الخليفة ابعاده عن الشام لئلا يفسد أهلها على حد قوله.

(٢) من كلام لقيس بن سعد بن عبادة في صفين جواباً على مناشدة النعمان بن بشير: ولكن انظر أين المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، الذين رضي الله عنهم، ثم انظر يانعمان هل ترى مع معاوية الا طليقاً او اعرابياً أو يمانياً مستدرجاً بغرور، ثم انظر هل ترى مع معاوية الا أنت وصويحك ولستما والله بيدريين ولا عقبيين ولا أحدين ولا لكما سابقة ولا آية في القرآن، صفين / ٤٩٩ . والمقصود بالبيدريين من حضر معركة بدر مع الرسول(ص) والأحدين من حضر معركة أحد، والعقبيين من شهد بيعة العقبة مع الرسول(ص)، ويمثل هؤلاء صفوفه أصحاب الرسول ممن قام الاسلام على تضحياتهم وقد نزلت فيهم آيات من القرآن وأحاديث لرسول الله تبين مكانتهم في الاسلام.

٣ - كانت التطلعات الأموية لاستلام السلطة قديمة وهناك شواهد تاريخية عديدة على ذلك، ومن يتصفح تاريخ فجر الاسلام سوف يلحظ بوضوح هذه التطلعات، وعندما انتخب الخليفة الثالث قال ابو سفيان عميد هذه الأسرة «تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة ولتصيرن الى صبيانكم وراثه» وقد وبخه الخليفة على قوله. ولقد كان واضحاً ايضاً ان الامويين يعتبرون مسألة السلطة صراعاً بينهم وبين بني هاشم وامتداداً لصراع الرئاسة الذي كان في الجاهلية، وعلى هذا فان معاوية كان يتصرف وفق ماتقتضيه طبيعة هذا الصراع، وهذا يفسر كما يقول العديد من المؤرخين تباطؤ معاوية عن نجدة الخليفة الثالث وتركه امام الثوار الذين حاصروه بلا حماية حتى يقتل فيكون ولي الثأر للخليفة المقتول عندها يستطيع أن يحصل على الورقة التي تتيح له الوصول الى مسعاه، خاصة وأن معاوية لم يكن له سند حقيقي يستطيع به منافسة الامام على (ع) أو أي من الصحابة من ذوي السابقة والهجرة والذين شهدوا المشاهد مع رسول الله (ص) وصحبوه لفترات طويلة ونزل في بعضهم ايات من القرآن وقال الرسول (ص) في بعضهم الاخر احاديث تبين مكانتهم المتميزة، فمعاوية من الطلقاء الذين اسلموا بعد فتح مكة، وكان لأبيه واسرته الدور الأول في محاربة الرسول (ص) في المعارك الحاسمة، بدر وأحد، وكانت الفتنة التي وقعت على أثر مقتل الخليفة الثالث هي المبرر الذي كان معاوية ينتظره بفارغ الصبر، وبما أنه كان والياً على الشام منذ زمن عمر بن الخطاب (رض) فقد استطاع تركيز سلطته وكسب الأعوان والمؤيدين في مجتمع بعيد نسبياً عن التشدد في تفاصيل التعاليم الاسلامية، فلقد حول معاوية ولايته على الشام الى مملكة بعد وفاة عمر بن الخطاب الذي كان شديداً في مراقبة ولاته، وكان عثمان يعتمد على معاوية بحكم العلاقة الأسرية ولذا فقد وطّد معاوية عزمه على اتباع كل الطرق للوصول الى السلطة فأخذ يوزع الأموال - التي يفترض أن توزع وفق نظام واضح - على هواه وبما يخدم غايته واستخدم التحالفات القبلية والمصاهرات لكي يضمن ولاء القبائل الرئيسية وخاصة قبيلة (كلب) التي صاهاها والتي وقفت معه ومع من

توارث العرش من الأمويين وبني مروان بكل حزم وقوة.

ومنذ تولي الامام علي(ع) الخلافة استخدم معاوية مايسمى بالحرب النفسية وحرب الاستخبارات، فقد وقف متفرجاً على حرب الجمل التي دارت بين الامام من جهة وطلحة والزبير من جهة أخرى ليضعف الطرفين بعد أن غذى هذا الصراع في بدايته وشجّع المتمردين على الخلافة، وبعد ان حسم الامام معركة الجمل لصالحه اخذ معاوية يرسل رؤساء العشائر وولاة الامام في الأمصار يمنيهم ويعددهم، واستمر في ذلك قبل معركة صفين. ولقد نقل لنا المؤرخون قسماً من تلك الرسائل ولكن من المؤكد ان القسم الأكبر منها والوعود التي بذلت فيها ومدى الاستجابة لها لا يمكن ان تقع بين أيدي المؤرخين^(١)، واتبع معاوية سياسة مغايرة تماماً لما نهج عليه الخلفاء في المدينة وما كان يتبعه الامام في تعامله مع الرعية، لقد اتخذ معاوية الحجاب والمقاصير وسكن القصور وبدأ يوضع مراسم ملكية تشابه ماكان موجودا في الأمبراطورية البيزنطية واقتصر على الخاصة ولم يختلط بالرعية وقد ادى كل ذلك الى ان تتخذ القرارات المهمة من قبل القيادة بمعزل عن باقي المسلمين وقد تعود المجتمع على هذا الاسلوب وخضع له، وعلى العكس من هذا ماكان يجري في المدينة المنورة عاصمة الخلافة الأولى او في الكوفة بعد انتقال الخليفة اليها فقد كان الخلفاء لايقطعون امراً الا بعد مشورة اصحاب رسول الله(ص) الذين كانوا يحيطون بالخليفة على قاعدة الشورى التي

(١) راسل معاوية زياد بن أبيه والي فارس التي كانت تابعة لولاية البصرة كما ارسل عبد الله بن عباس والي البصرة ومحمد بن أبي بكر والي مصر ومن قبله قيس بن سعد اضافة الى الكثير من رؤساء القبائل كالاشعث بن قيس وخالد بن المعمر رئيس ربيعة واستطاع اغراء الكثير منهم واقناعهم بالانضمام اليه كمصقلة بن هبيرة وغيره كما استطاع أن يضم الى جانبه عمرو بن العاص بعد أن ضمن له ولاية مصر في حال انتصاره وحتى بعد استشهاد الامام(ع)، واستطاع معاوية اغراء عبيد الله بن العباس الذي كان على مقدمة الجيش الذي سيّره الامام الحسن بن علي(ع) لحرب معاوية مما ادى الى هربه الى جانب معاوية وقد ساهم هذا الحدث في انهيار موقف جيش الامام الحسن، انظر ابن الاثير ٣ / ٣٦١. وعندما استعصى عليه استمالة زياد بن أبيه ادّعاه لنفسه أخاً من ابي سفيان وأشهد شهوداً على ذلك ليكسب ولاءه .

ارساها الكتاب الكريم، ورغم ان القرار الأخير بيد الخليفة الا أن الخلفاء كانوا يقتدون بصيغ الحكم والادارة التي مارسها الرسول(ص) والذي كان يدير الدولة من المسجد ولم يكن هناك مايفصل بينه وبين سائر المسلمين على اختلاف مستوياتهم، اما الامام علي(ع) فقد جسّد ذلك الطراز المثالي من التعامل وهو اقرب الى سيرة الرسول(ص) بحكم التصاقه الوثيق به طيلة مدة حياته ولأنه اعقب الخليفة الثالث الذي بدأت الأمور في عهده تبتعد تدريجياً عما كان يجري في زمن الخلفاء من قبله وكان على الامام ان يعيد الأمور الى نصابها، وتصرفه هذا يتوافق مع طبيعته ومع ما جبل عليه، وقد تمسك بحزم بهذا الاسلوب ليزيح الآثار التي ادت الى ثورة المسلمين. ولم يكن أصدقاء الامام والمحيطون به سوى الفقراء والضعفاء كرشيد الهجري وميثم التمار وعمار بن ياسر وأويس القرني وكميل بن زياد وأبو الهيثم بن التيهان، وغيرهم، وكان الامام يمارس حياته الطبيعية بدون مراسم، يتجول في الأسواق ويناقش في الاسعار ويستشير الناس لذا فقد تعودوا ان يناقشوا او يجادلوا في كل الأمور وقد ادى ذلك الى تجاوز الحدود وتناسي القاعدة الأصلية التي تحكم بان القرار الأخير بيد القائد، لذا نرى ان أهل العراق الذين تعودوا على معرفه كل مايدور قد تجاوزوا هذه الحدود في أخطر القرارات بأن فرضوا رأيهم على الإمام وضد رغباته بل وتماذوا في ذلك الى التهديد في حالة عدم رضوخ الامام لقراراتهم، يضاف الى ذلك وجود المؤامرات الداخلية التي تغذي هذه النزعة لتحقيق أغراضها^(١).

٤ - ذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الاسلامية ان العرب السوريين قد تعودوا الخضوع للنظام الذي يقتضيه قيام الدولة اذ ان الكثرة المطلقة من السكان العرب في العراق لم تخرج من الصحراء الى مواطنها الجديدة الا نتيجة لحروب الفتوح، اما العرب السوريون فمعظمهم كانوا يعيشون في بلاد الشام منذ قرون متطاولة وأنهم احتكوا بالكنيسة المسيحية والامبراطورية الرومانية ولذا فإنهم

(١) للمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يراجع كتاب النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم للمقريري، وذيله رسالة أبي عمرو الجاحظ .

اعتبروا معاوية، الذي جعل مقر حكمه في دمشق الوارث الشرعي لامرائهم القدماء من آل جفنه^(١)، وهذا الرأي لا يتناقض مع ما ذكرناه في الفقرة [١]، إذ أن سكان الشام كانوا اما من الذين ذكرهم بروكلمان او من عرب اليمن الذين دخلوا الشام مع الفتح.

ولعل أهم الاسباب عن تقاعد العرب عن الامام ما ذكره ابن ابي الحديد^(٢)، من أن الامام لم يكن يفضل شريفاً على مشروف ولا عريباً على اعجمي، ولا يصانع الرؤساء وامراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل احداً الى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك، ولما شكوا الامام ذلك الى الأشتر اجابه: أنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتنصف الوضيع من الشريف فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق اذ عموأ به، واغتموا من الحق اذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس الى الدنيا، وقلّ من ليس للدنيا بصاحب وأكثرهم يجتوي الحق ويشتري الباطل ويؤثر الدنيا.

وقد قال أبو عثمان الجاحظ في هذا الصدد: العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام ان اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ثاقبة ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقذح والترجيح بين الرجال والتميز بين الرؤساء واطهار عيوب الامراء وما زال العراق موصوفاً بقلّة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة^(٣).



(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ١٢٣ .

(٢) شرح النهج ٢ / ١٩٧ . تاريخ الخلافة لمركبة النوراد في ١٧ قرناً سنة ٦٨٨ .

(٣) شرح النهج ١ / ٣٤٣ . في سنة ٦٦٦ ، ليكون التاريخ بينهما ستاد واربعه أشهر .

تطور حركة الخوارج

بعد ان قضى الامام على القوة الرئيسية للخوارج في النهروان حاول ان يستمر الى هدفه الاساسي الذي حشد الجيش من أجله وهو القضاء على التمرد في الشام، الا أن الجيش لم يبد رغبة في التوجه الى الشام وقد خطبهم الامام حاضاً اياهم على الجهاد فلم ينفع فيهم قوله وخاطبه الأشعث قائلاً: يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا فارجع الى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا^(١).

فاضطر الامام الى العودة بعد ان آيس منهم ولكنه أمر الجيش بلزوم معسكره في (النخيلة) قرب الكوفة ولكنهم بدأوا يتسللون الى الكوفة حتى لم يبق منهم الا بعض وجوه الناس... عاد الامام الى الكوفة في النهاية بعد ان تأكد من عدم رغبة اهل الكوفة في المسير وتجاهل هذا الهدف لفترة.

خلال السنتين بين عام ٣٨ التي حدثت فيها معركة النهروان وعام ٤٠ التي استشهد فيها الامام^(٢) كانت حركة الخوارج تتفاعل في النفوس، ويبدو أنها

(١) الطبري ٦٧ / ٤ .

(٢) كارل بروكلمان - يذكر التاريخ الميلادي لمعركة النهروان في ١٧ تموز سنة ٦٥٨ واستشهد الامام في ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١، فيكون التاريخ بينهما سنتان واربعة أشهر.

اجتذبت عدداً من الناس وخاصة اولئك الذين وتروا لقتل ذويهم في النهروان، فبعد القضاء على الخوارج في النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على الامام في (الدسكرة) في مائتين، ثم سار الى (الأبنار) فوجه اليهم الامام، الأبرش بن حسان فقاتلهم حتى قتل اشرس، وخرج هلال بن علفه ومعه اخوه فأتى (ماسبذان) فقتله معقل بن قيس وقضى على حركته وذلك عام ٣٨ للهجرة^(١)، وخرج الأشهب بن بشر من قبيلة بجيلة في مائة وثمانين رجلاً فقاتلهم جارية بن قدامة السعدي أو حجر بن عدي في رواية فقاتلهم في (جرجرايا) وخرج بعده سعيد بن قفل التيمي ومعه مائتا رجل فأتى (درزنجان) وهي تبعد عن المدائن فرسخين، فخرج اليهم عامل المدائن سعد بن مسعود فقاتلهم، ثم خرج ابو مريم السعدي ومعه كثير من الموالي بين مائتين واربعمئة رجل فأرسل اليه الامام شريح بن هانئ في سبعمائة فهزمهم ابو مريم وصمد شريح في مائتين ثم انحاز الى قرية فخرج الامام علي(ع) بنفسه اليهم وارسل أمامه جارية بن قدامة، فواقعهم وقتلهم ونجا منهم خمسون رجلاً وكان هؤلاء أشجع من قاتل من الخوارج وقد كانت هذه الحركات جميعاً عام ٣٨ للهجرة^(١).

كانت نتائج معركة النهروان تتفاعل في نفوس من نجا من المعركة او من كان يرى رأي الخوارج ولم يخرج معهم، وقد كانت حركاتهم التي اعقبت معركة النهروان ضعيفة مما يدل على ان افكارهم لم تلق الانتشار، قرر الخوارج الانتقال الى مرحلة اخرى من مراحل صراعهم مع الدولة، فقد عقدوا اجتماعاً في مكة مستغلين فترة الحج فتدارسوا أمرهم وتذاكروا أمر المسلمين فعابوهم وعابوا اعمالهم وذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم وقال بعضهم لبعض: لو أنا شربنا انفسنا لله عزوجل فأتينا أئمة الضلال وطلبنا غرتهم وأرحنا منهم العباد والبلاد وثأرنا باخواننا الشهداء يوم النهروان^(٢)، وتم الاتفاق بينهم

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٧٣ .

(٢) شرح النهج ٦ / ١١٣ .

على القيام بعملية اغتيال للامام علي(ع) ومعاوية وعمرو بن العاص في رمضان عام ٤٠ للهجرة^(١)، وكان عبد الرحمن بن ملجم المرادي قد قال لهم: أنا أكفيكم علياً وأتى الكوفة واتصل بالخوارج فيها وأنتدب له رجلان لمعاونته وهما شبيب بن بجره ووردان من تيم الرباب وقد ساعدته في امضاء عزمته قطام ابنة الشجنه^(٢)، بعد ان وقع في غرامها وطلب الزواج منها فاشتريت عليه أن يكون مهرها قتل الامام علي(ع) وثلاثة الاف درهم وقينه، وكان اخوها وأبوها قد قتلوا يوم النهروان، ويذكر المؤرخون ان ابن ملجم هذا قد اتصل باخوانه من الخوارج في الكوفة كما اتصل بالأشعث بن قيس، وفي الليلة التي تواعدوا فيها لتنفيذ مؤامرتهم كان ابن ملجم مجتمعاً مع الاشعث فمر بهما حجر بن عدي وهو من خلّص اصحاب الامام(ع)^(٣) فسمع الأشعث يقول لابن ملجم: النجاء.. النجاء

(١) ذكر المبرد في الكامل ان زهاء الفين من الخوارج ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب وقوم ممن استأمن الى ابي أيوب الأنصاري يوم النهروان تجمعوا وأمرؤا عليهم رجلاً من طيء فارسيل اليهم الامام رجلاً وهم بالنخيلة فدعاهم ورفق بهم فأبوا فعاودهم فأبوا فقتلهم جميعاً وخرجت طائفة منهم الى مكة فوجه اليهم معاوية بسر بن أرطاة فتوافقوا الى ان ينتهي الحج على أن يصلي بالناس رجل من بني شيبه، وبعد انقضاء الحج اتفق رأي هؤلاء على اغتيال الامام(ع) ومعاوية وعمرو بن العاص - الكامل للمبرد ١٤٦ / ٢ .

(٢) ورد اسمها مختلفا في بعض المصادر ففي شرح النهج ورد قطام بنت سخينه، كما ذكر ابن الأعمش في الفتوح ان اسمها قطام بنت الاضيع كما أن هناك اختلافاً بيناً في اسماء المتأمرين، اذ يذكر المبرد في الكامل وغيره ان عبد الرحمن بن ملجم تطوع لقتل الامام وان الحاج بن عبد الله الصرمي الملقب بالبرك تطوع لقتل معاوية وان زاذويه وهو مولى لبني عمرو بن تميم تطوع لقتل عمرو (انظر الكامل في اللغة ١٤٦ / ٢ وما بعدها) أما ابن الأثير فيذكر ان الذي تطوع لقتل عمرو بن العاص هو عمرو بن بكر التميمي السعدي (انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣ / ٣٨٩).

(٣) حجر بن عدي الكندي - من النساك والمتعبدين، شيخاً رئيساً في كنده ومن فرسانها، أخلص للامام، وبعد استشهاد الامام اقام بالكوفة يناصب ولايتها العداء مجابهة في مسجدها الجامع حتى أرسله زياد ابن ابيه مع مجموعة الى معاوية في الشام وعند وصوله الى (مرج عذراء) قرب دمشق قُتل وخمسة من اصحابه صبراً بعد أن رفضوا البراءة من الامام، وقطعت رؤوسهم، وهم أول من قتل صبراً في الاسلام، قبره معروف في منطقة مرج عذراء والتي تسمى اليوم (عذراء) وقد بُني مؤخراً في أحسن عمارة ويزوره الاف المؤمنين.

الى حاجتك فقد فضحك الصبح فقال له حجر: قتلت يا أعور وكان الأشعث أعوراً^(١).

والذي يتمعن في دراسة الروايات التي تناقلها المؤرخون عن هذا الموضوع يستطيع أن يتلمس ان المؤامرة كانت تستهدف الامام علي(ع) بالدرجة الأولى وانها كانت اوسع من تدبير الثلاثة الذين اجتمعوا بمكة على تنفيذها وان عناصر عديدة اشتركت في الاعداد لها وتديرها وما الأشعث بن قيس وهو أحد كبار وجوه العراق الا احدهم وهناك علامات على ان المؤامرة برمتها كانت من تدبير معاوية لاستغلال اندفاع الخوارج للتخلص نهائياً من الامام علي(ع) الذي يشكل العقبة الوحيدة في طريق طموحه للملك وما قصة استهداف المؤامرة قتله وقتل عمرو بن العاص (وهو الجزء الذي نفذ بطريقة تدعو الى الشك) الا جزء من هذه المؤامرة، اذ ان المرجح أن هناك من اوحى للخوارج بهذا التدبير وان معاوية وعمرواً اللذين كانا يعلمان بها وتوقيتها اتخذا الاحتياطات اللازمة لخلاصهما، يؤيد ذلك أن معاوية لم يكن يتورع عن استخدام الاغتيال^(٢) كوسيلة لتحقيق اهدافه، اما الأشعث فقد كان ذا ماض عريق في التآمر والخلاف على الامام، فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه نقلاً عن ابي الفرج الاصفهاني^(٣) أن الأشعث دخل على الامام فأغلظ الامام له، فعرّض له الأشعث انه سيفتك به فقال له الامام: اباالموت تخوفني او تهددني فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي! وهكذا استطاع ابن ملجم ومن كان وراءه تنفيذ عملة الاغتيال واستشهد الامام علي(ع) وطويت صفحة من تاريخ الاسلام لها خصائصها المتميزة وبدأت صفحة جديدة تحولت فيها الخلافة الى ملكية عاصمتها الشام تتوارثها الاسرة

(١) شرح النهج ٦ / ١١٧ كما ذكرها أبو الفرج في اغانيه في قصة استشهاد الامام علي(ع) وذكرها الطبري في ٦ / ١١٥ .

(٢) سبق لمعاوية أن دبّر مؤامرة اغتيال الحارث بن مالك الاشر وتنفذها فعلاً، انظر تاريخ الامم للطبري ٤ / ٧١، ابن الأثير ٣ / ٣٥٣ .

(٣) شرح النهج ٦ / ١١٧ .

الأموية يفرو عنها، ولم يكن يدور في خلد منفذ الجريمة انه يجرمته تلك قد وضع عقيدته التي آمن بها (عقيدة الخوارج) امام قوة أخرى لاتستخدم سوى السيف على كل من يحاول الخروج عليها ولا تتورع عن سفك الدماء ولا تتخذ من قيم الاسلام وتشريعاته مقياساً للتعامل مع من يعارض الدولة، لقد وضع الخوارج انفسهم امام دولة تقتل على الشبهة والظنة بل وتضرب البريء والمذنب كما سيأتي في أخبار الخوارج في الدولة الأموية^(١).

آراء في الخوارج

في خطبة للامام علي بن ابي طالب قال: ولا تغفلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأ كمن طلب الباطل فأتى به، وهذا الكلام صريح في طلبه من المسلمين عدم قتال الخوارج من بعده وفي شرح النهج البلاغة تحت ابن أبي الحديد رأي المعتزلة بالخروج، وأما المعتزلة فمعتزلة بالخروج، لأن الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم وأنتم كنتم على الهدى ولكنهم أخطأوا وكان لهم تسك في الدين ومحاماة عن عقيدة اعتقدها، وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق ويحامي عن اعتقاد قد بناه على الشبهة، وأحواله تدل على ذلك، فإنه لم يكن من أرباب الدين ولا ظهر عنه تسك أو صلاح... وأنه إذا كان ذلك فلا يجوز أن يتصر المسلمون سلطاناً ويحاربوا عليه الخوارج (أي سلطان معاوية) حتى وإن كانوا

(١) مما يؤد وجود مؤامرة واسعة النطاق لاغتيال الامام هذا الشعر الذي قاله ابو الأسود الدؤلي وهو شاعر معروف وشخصية تاريخية مرموقة لباعه الطويل في انشاء علم النحو:

ألا ابلغ معاوية بن حرب	فلا قرمت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتونا	بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتهم خير من ركب المطايا	ورحلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها	ومن قرأ المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه أبا حسين	رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت	بأنك خيرها حسباً ودينا

وفيه اتهام واضح لمعاوية، انظر الطبري ٤ / ١١٦ .

آراء في الخوارج

في خطبة للامام علي (ع) قال: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» وهذا الكلام صريح في طلبه من المسلمين عدم قتال الخوارج من بعده، وفي شرح نهج البلاغة يبين، ابن أبي الحديد رأي المعتزلة بالخوارج^(١)، باعتباره معتزلياً فيقول: «ان الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم وانتم كانوا يطلبون الحق ولكنهم اخطأوا وكان لهم تمسك في الدين ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، واما معاوية فلم يكن يطلب الحق ويحامي عن اعتقاد قد بناه على الشبهة، واحواله تدل على ذلك، فانه لم يكن من ارباب الدين ولا ظهر عنه نسك او صلاح.. وانه اذا كان ذلك فلا يجوز أن ينصر المسلمون سلطانهم ويحارب عليه الخوارج (أي سلطان معاوية) حتى وأن كانوا اهل ضلال لانهم احسن حالاً منه لأنهم كانوا ينهون عن المنكر ويقاتلون أئمة الجور. ويضيف: ان المعتزلة يرون ان الخروج على أئمة الجور واجب على المسلم، ورأي ابن أبي الحديد هذا يناقض تماماً ما ذكره عنهم سواء في بدء خروجهم من قتل عبد الله بن خباب وزوجته وقتل نساء مسلمات بدون ذنب اقترفه وأنهم

(١) شرح النهج ٥ / ٧٨، ويذهب الامام محمد عبده الى رأي مشابه في شرحه ١ / ١٠٣.

كانوا يستعرضون المسلمين وقد ذكر مفصلاً اخبارهم الدالة على ذلك فقال: ان من طريف اخبارهم انهم اصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم واطلقوا النصراني واستوصوا به خيراً^(١)، فلقد اعتبروا المسلم كافراً يحق قتله لمجرد كونه مسلماً، وذكر ان واصل بن عطاء وهو الفقيه المعروف أقبل في رفقة له فأحس بهم الخوارج، فقال واصل لاصحابه: ان هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني واياهم وكانوا قد اشرفوا على العطب، فقالوا شأنك، فخرج اليهم فقالوا ما أنت واصحابك؟ قال قوم مشركون مستجبرون بكم ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده قالوا قد اجرناكم، قال: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم احكامهم، ويقول واصل قد قبلت أنا ومن معي، قالوا فأمضوا مصاحبين فقد صرتم اخواننا، قالوا بل تبلغوننا مأمنا لأن الله تعالى يقول ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه﴾^(٢)، قال فينظر بعضهم الى بعض ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا معهم بجمعهم حتى ابلغوهم المأمن. وذكر ابن أبي الحديد وغيره ان نافع بن الأزرق وهو من رؤساء الخوارج كان يرى استعراض الناس وقتل الاطفال واستلاب الأموال^(٣) واستحلال الأمانة من المخالفين وهم بزعمهم عموم المسلمين حتى ان نافعاً وفرقة من الأزارقة كفروا القعدة من الخوارج وهم الذين كانوا يرون رأي الخوارج ولكن لا يشاركونهم الخروج على السلطان بل ان الأزارقة يعتبرون دار الاسلام (دار كفر) وانهم جميعاً في النار وكل من فيها كافر ولا يحل للمؤمنين (أي الخوارج) ان يجيبوا داعياً منهم الى الصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يناكحوهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره من المسلمين، وهم مثل كفار العرب وعبداء الأوثان لا يقبل منهم الا السيف أو الاسلام والقعد بمنزلتهم^(٤)، ومن كان يرى هذه الآراء لا يجوز السكوت عنه بل ان محاربته

(١) شرح النهج ٢ / ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦ .

(٣) شرح النهج ٤ / ١٤٠ .

(٤) شرح النهج ٤ / ١٣٦ .

واجبة كما أن محاربة أئمة الجور واجبة.

أما الشيعة الإمامية فيرون أن الخوارج قد خرجوا عن الدين بخروجهم على الإمام علي(ع)، ويرون أن هناك نصوصاً متضاربة في قتل الخوارج وردت عن طريق أهل البيت وغيرهم كقول الرسول(ص) في حديث وصفهم فيه: «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لمن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(١). وفي حديث آخر «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»^(٢)، وهذه الأحاديث وغيرها الواردة في الصحاح دالة على التحريض على قتلهم بسبب كفرهم وإن قتلهم كقتل عاد وثمود^(٣).

وقد حفلت الصحاح الستة بأحاديث كثيرة عن الخوارج وأفعالهم وصفاتهم الخلقية والخلقية، وإن هذه الأحاديث هي من اعلام النبوة وآيات الإسلام لما فيها من أنباء الغيب التي ظهرت بعد الرسول(ص) للناس كفلق الصبح، كما أن في هذه الأحاديث توضيحاً لا لبس فيه أن الفئة التي تقاتلهم (في بدء خروجهم) هي خير فئة أو أنها على خير لأن خروجهم كان على افتراق من الناس في صفين إلى فئتين أحدهما مع علي(ع) وهي التي قاتلتهم والأخرى مع معاوية.

ولنعد إلى خطبة الإمام في فتواه بعدم قتال الخوارج من بعده، إذ أن التفسير الظاهر لكلامه أن لا تتم مجابهة هذه الفئة على الرغم من استعراضها للناس وذلك يتنافى مع فكر الإمام وسيرته مع الخوارج وحرصه على حماية المسلمين لأن الخوارج لم يكونوا يميزوا بين مسلم وآخر بل اعتبروا الجميع كفاراً والتفسير الأكثر اقناعاً وأقرب إلى العقل هو أن الإمام كان يقصد أن الدول التي يظهر فيها الخوارج بعده اعتباراً من الدولة الأموية هي أكثر دموية وقتلاً وانتهاكاً لقيم

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري في باب ذكر الخوارج، ص ٣٩٣ من الجزء الأول من

صحيحه.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٤، الجزء الأول من صحيح مسلم.

(٣) النص والاجتهاد - الإمام عبد الحسين شرف الدين ص ١٢٧ وما بعدها.

الاسلام من هؤلاء الخوارج، وأن عمل الدولة بالباطل وظلمها أكثر تعميماً لأنه يشمل مساحة الدولة الاسلامية، اما الخوارج فإن عملهم يشمل مساحة صغيرة وان الأولى بالمحاربة هي الحكومات الظالمة وأئمة الجور وقد اثبتت الحكومات التي تلت الخلافة الراشدة أنها كذلك فقد قتل زياد بن أبيه والحجاج مئات الألوف من المسلمين على الظنة^(١)، وهكذا فعل غيرهم وكتب التاريخ خير شاهد على اعمالهم، وهناك من يرى ان الامام كان يخاطب شيعته ومريديه بعدم قتال الخوارج من بعده لأن في ذلك قوة للدولة الجائرة واضعافاً للشيعه أنفسهم الا أن هذا الرأي ضعيف يدحضه خروج الكثير من الشيعة لحرب الخوارج ومنهم معقل بن قيس وشريك الحارثي. وقول المهلب في تحريض جيشه على قتال الخوارج «قاتلوهم كما كان يقاتلهم أوائلكم امير المؤمنين علي بن أبي طالب» ويعزز اصحاب هذا الرأي رأيهم بامتناع الامام الحسن عن قتال الخوارج وتولي حربهم عندما كلفه معاوية بذلك، على أن هناك رأياً يقتصر خطبة الامام على كلمة «ليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فاصابه» وبذلك ينتهي نهى الامام عن محاربتهم.

أما أهل السنة فيجمعون على وجوب محاربتهم بسبب الحديث النبوي «من خرج على المسلمين وهم جميع فاقتلوه كائناً من كان» والى عدم جواز الخروج على الحاكم حتى وان كان جائراً حفاظاً على وحدة المسلمين فقد روي عن الحسن البصري بعد أن وصف الحجاج بأنه الطاغية الذي سفك الدم الحرام في

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل ٤ / ٥٨٧، مايلي: (أحصي من قتله الحجاج صبراً، فكانوا مائة الف وعشرين الفاً، وقيل: ان الحجاج مرّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشيته فقال رجل لخالد: من هذا؟ قال خالد بنخ بنخ! هذا عمرو بن العاص، فسمعها الحجاج فرجع وقال: والله مايسرني ان العاص ولدني ولكني ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش وأنا الذي ضربت بسيفي هذا مائة الف كلهم يشهد أن اباك كان يشرب الخمر ويضمر الكفر. ثم ولى وهو يقول: بنخ بنخ عمرو ابن العاص!! فهو قد اعترف في بعض ايامه بمائة الف قتل على ذنب واحد) انتهى كلام ابن الأثير وهذا مثال واحد على استهتار ولاية بني أمية بارواح الناس ودمائهم واموالهم مما يجعل اعمال الخوارج الى جانبها ضئيلة الشأن.

البيت الحرام «أرى الا تقتاتلوه» ويقول الامام أحمد بن حنبل: السمع والطاعة للائمة: البر منهم والفاجر، فمن ولي الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف فليس لأحد ان يطعن عليه ولا ينازعه وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل وال جائزة ومن اعادها فهو مبتدع خرج على امام من ائمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه واقرؤا له بالخلافة بأي وجه من وجوه الرضا او بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية. وعلى هذا فالخوارج يعتبرون خارجين عن الطاعة وشاقين لعصا المسلمين وان مدافعتهم واجبة^(١).

خرج بعد عصر الخلافة الراشدة

بعد استشهاد الامام علي (ع) على ايدي الخوارج بهذه الطريقة الفجة يادر أهل الكوفة بمهاجرة الامام الحسن للعراق ولكن الأحوال للضرورة وانقسام أهل العراق وعجزهم عن توحيد كلمتهم والمؤامرات التي لحقت في الحقاء لاهتمام جنود الفتنة مشغولة من قبل معاوية الذي وطد اموره واصبح يخاطب في الشام بأمر المؤمنين كل هذا جعل من المعتز علي الامام الحسن أن يوطد حكمه، وكان الامام علي (ع) قبل استشهادهم قد أعد جيشاً قوامه أربعين ألف مقاتل من نخلة اصحابه وسبائهم (شرطة الجيش) وجيشاً عليهم بن سعد بن حيان، فلما استشهد الامام وتولى الحسن (ع) الخلافة بعث إلى عشر ألف عليهم قيس بن سعد وعبيد الله بن العباس إلى الشام كمنقعة لجيشه وسار على الرعم، فينما هو في (مظلم ساباط) قرب المدائن إذ نادى منه في الجيش ألا أن قيس بن سعد قد قتل فاتقروا.. فنفروا ونهبوا من اقد الحسن (ع) حتى نازعوه بساطه الذي تحته لم طعن في فخذه من قبل أحد الخوارج وسقطت القوس في الجيش مما اضطره إلى الانتقال إلى المدائن للمعالجة وبأثر بقصد محادثات مع رجل معاوية لعقد الصلح وحقق الدعاء بعد ان أسس من استقامة الأمور له ولا وصلت الأخبار إلى مقلعة طاعة امام مقلعة

(١) مجلة عالم الفكر، راجع مقالة للدكتور أحمد محمود صبحي العدد ٢٢ .

الخوارج بعد عصر الخلافة الراشدة

بعد استشهاد الامام علي (ع) على ايدي الخوارج بهذه الطريقة المفجعة بادر أهل الكوفة بمبايعة الامام الحسن للخلافة، ولكن الأحوال المضطربة وانقسام أهل العراق وعجزهم عن توحيد كلمتهم والمؤامرات التي تحاك في الخفاء لابقاء جذوة الفتنة مشتتة من قبل معاوية الذي وطد اموره واصبح يخاطب في الشام بأمرير المؤمنين، كل هذا جعل من المتعذر على الامام الحسن أن يوطد حكمه، وكان الامام علي (ع) قبيل استشهاديه قد أعد جيشاً قوامه اربعين الف مقاتل من خلّص اصحابه وسماهم (شرطة الخميس) وجعل عليهم قيس بن سعد بن عباد، فلما استشهد الامام وتولى الحسن (ع) الخلافة بعث اثني عشر ألفاً عليهم قيس بن سعد وعبيد الله بن العباس الى الشام كمقدمة لجيشه وسار على اثرهم، فبينما هو في (مظلم ساباط) قرب المدائن اذ نادى مناد في الجيش الا أن قيس بن سعد قد قتل فانفروا.. فنفروا ونهبوا سرادق الحسن (ع) حتى نازعوه بساطه الذي تحته ثم طعن في فخذه من قبل احد الخوارج وسادت الفوضى في الجيش مما اضطره الى الانتقال الى المدائن للمعالجة وباشر بعقد محادثات مع رسل معاوية لعقد الصلح وحقن الدماء بعد ان آيس من استقامة الأمور له، ولما وصلت الأخبار الى مقدمة الجيش خاطبهم اميرهم قيس بن سعد وخيّرهم بين الدخول في طاعة امام ظلالة

أو القتال من غير امام، فاختاروا الدخول في طاعة امام ضلالة فبايعوا لمعاوية وانصرف قيس بن سعد عنهم بعد أن أقسم أن لن يكون بينه وبين معاوية الا السيف^(١).

ويبدو من سياق الحوادث ان الأيدي الخفية كانت تعمل على أكثر من صعيد في سبيل زعزعة الأمور ونقض امر الحسن(ع) وإن مؤامرة مبيتة ادت الى انتشار اشاعة كاذبه عن مقتل قيس بن سعد ومن ثم طعن الخوارج للحسن(ع)، ولا يستبعد ضلوع الخوارج في هذه المؤامرة ولكن من المؤكد ان لمعاوية يدأ فيها، وهكذا تلتقي رغبات الفئتين في صرف الأمر عن الحسن(ع)، وبما أن الخوارج لم يكن لهم برنامج بديل او اعداد سياسي لاستغلال الموقف فقد أدى عملهم الى توطيد الأمر لمعاوية ليس الا.

وبدأ عصر الدولة الأموية بعد ان بويع معاوية خليفة للمسلمين وقد حضر بنفسه الى الكوفة ليثبت ملكه، وإحساسه بأن العراق لن يستقيم له لأن غالبية اهله من الشيعة الذين يوالون علياً(ع) وهؤلاء يعتبرون معاوية مبتزاً للحكم وان خلافته غير شرعية، أو من الخوارج الذين يرون نفس الرأي ويكفرون معاوية وكل من لا يخرج على حكومته بالسيف، لذا فقد كانت سياسته ان يضرب هذين الجناحين ببعضهما ليضعفهما معاً وليلهيها عن التفرغ لمقاومته وزعزعة ملكه، وعلى هذا فقد طلب من الامام الحسن(ع) أن يتولى حرب الخوارج، وكان الحسن(ع) قد سار يريد المدينة فكتب اليه معاوية يدعوه للعودة لقتال الخوارج

(١) الطبري ٤ / ١٢٤ ولكن مصادر أخرى ذكرت ان الذي تولى قيادة جيش المقدمة قيس بن سعد وعبيد الله بن العباس وأن الأخير اتصل بمعاوية سراً ثم التحق به بعد أن وردت أخبار عن صلح الامام الحسن، وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج كما ذكر الحادثة ابي الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبين ص ٤٠ في قصة استشهاد الامام الحسن(ع) ولكنه ينص على أن جيش المقدمة اختار أن يقاتل من غير امام وأنهم خرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم الى مصافهم، أما ابن الأثير فيذكر في الكامل في التاريخ ان عبد الله بن عباس كان هو القائد وهذا غلط يتن قد يكون من عمل النساخ، ثم يعود ويذكر قصة تسليم عبيد الله بن عباس وان القوم اختاروا القتال من دون امام، انظر ابن الأثير ٣ / ٤٠٧ - ٤٠٨ .

فلحقه رسول معاوية بالقادسية أو قريباً منها فلم يرجع وكتب الى معاوية: لو
أثرت أن اقاتل احداً من أهل القبله لبدأت بقتالك، فاني تركتك لصالح الأمة
وحقق الدماء^(١)، ولكن السياسة الأموية ظلت تتبع هذا النهج كلما أمكنها ذلك،
وسنرى أن الشيعة الذين اتجهوا الى تنظيم انفسهم والاعداد للوثوب على الدولة
عند سنوح الفرصة كانوا يتجنبون - جهد امكانهم - حرب الخوارج لتفويت
الفرصة على الدولة الأموية لاضعافهم وعندما كانوا يساقون الى الحرب قسراً
فانهم كانوا ينسحبون عند أول فرصة وفي مناسبات عديدة كانت أعداد الجيوش
التي ترسلها الدولة لمحاربة الخوارج تزيد بأكثر من خمسين مرة على عدد الخوارج
الا أن نتائج المعارك كانت لصالح الخوارج بسبب هزيمة الجيوش عند أول صدمة
لهم، ولقد سبب ذلك حرجاً وتهديداً مستمراً للدولة وأدى بها في عنفوان حركة
الخوارج الى ان تستعين بجيش من الشام لحربهم كما سنرى.

أما الخوارج فقد استفادوا من معركة النهروان التي كادت أن تستأصلهم لذا
عمدوا الى أساليب جديدة سواء في نشر دعوتهم او في حربهم ضد الدولة، فقد
تجنبوا الدخول مع جيوش الدولة في مواجهة تقليدية لأن ذلك ليس في
مصلحتهم بسبب التفوق الهائل في العدة والعدد لصالح الدولة، لذا لجأوا الى
حرب العصابات التي تتمثل بقيام مجاميع صغيرة بالهجوم على قوات الدولة
بشكل مباغت وضربها ضربات موجعة في مجنبتها ومؤخرتها والانسحاب
السريع عبر طرق وعرة غير صالحة لتنقل الجيوش، وعندها تضطر القوات
لملاحقتهم متحملة مصاعب جمة تنهكها باستمرار كما ان هذه القوات
لا تستطيع مواكبة حركتهم لأن أغلب عناصرها من المشاة الراجل كما أن حركة
قوات كبيرة مع ذيلها الاداري وحاجتها الى تأمين هذه الحركة من مباغته الخوارج
يجعلها تسير على تعبئة وهذا يقابل بالمصطلحات العسكرية اتخاذ تشكيل المعركة
لفترات ومسافات طويلة وهذا لايسبب البطء فقط بل يحطم المعنويات ايضاً،

(١) ابن الأثير ٣ / ٤٠٩ .

وكانت القوات تصل الى الخوارج وهي متعبة محطمة المعنويات فكان الخوارج يعطفون عليها ويباغتونها ليلاً او نهاراً ويوقعون فيها الخسائر، بالاضافة الى ذلك فإن الخوارج الذين كانوا خيالة في معظم الأحيان كانوا يتنقلون باستمرار، فبينما هم في منطقة وتصل اخبارهم الى الولاة كانوا يظهرون في منطقة أخرى تبعد مئات الكيلومترات، وكانوا يختارون قادتهم من الشجعان وهؤلاء يستهدفون في بداية حملاتهم قواد الجيش المقابل ليقتلوهم وبذلك ينفرط عقد الجيش ويفر منهزماً، اما عملهم التنظيمي داخل المدن فقد اتسم بالسرية وكسب الأنصار والمؤيدين واستطاعوا اجتذاب الكثير من الفقهاء والمعرفين الى صفوفهم لذا نرى أن السلطة كلما استطاعت القضاء على حركة للخوارج ظهرت حركة أخرى^(١).



(١) لقد اجتذب الخوارج الى عقيدتهم العديد من الفقهاء ورواة الحديث ومنهم على سبيل المثال مالك بن أنس الفقيه وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد وعمرو بن دينار وكذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي الذي كان يرى رأي الصفرية واليمان بن رباب وكان على رأي البهسية وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كافل وهؤلاء اباضية وقد نسب الى هذا المذهب ايضاً ابو هارون العبيدي وأبو الشعثاء، واسماعيل بن سميع وهبيرة بن مريم وكلهم معروف في كتب الحديث، ومن الغريب أن ابن ابي الحديد نسب أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الى رأي الخوارج لاطنابه في كتابه المعروف بالكامل في اللغة والأدب في ذكرهم الا أن ذلك وهم إذ أن ابن أبي الحديد نقل نفس المعلومات عن المبرد وليس هذا بدليل، ولقد استطاع الخوارج التغلغل الى مكائنات حساسة قريبة من الولاة فقد كان يزيد بن مسلم وهو مولى الحجاج والمقرب منه على رأيهم (انظر شرح النهج ٥ / ٧٦، الكامل في اللغة ٢ / ١٥٩) وقد ذكر الطبري رأيه في عكرمة انه يرى رأي الصفرية من الخوارج ٨ / ١٢٢، من ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين في المجلد الثامن من تاريخ الأمم والملوك وتاريخ المسعودي ٣ / ٤٤٩، الملل والنحل ١ / ١٣٧ .

حركات الخوارج في الدولة الأموية

بدأت حركات الخوارج تأخذ دور المعارضة المسلحة للدولة الأموية منذ بدايتها، وقد اعتمد الخوارج نهج الكفاح المسلح للقضاء على الدولة، وكان الخروج بالسيف على الحاكم وعدم التعايش مع بقية المسلمين يشكل العمود الفقري لعقيدتهم، وهذا يعني مغادرة المدن وحمل السلاح وتفتيش عقيدة الآخرين فمن لم يكن على رأيهم قتلوه وهذا النهج اتبعه الازارقة من الخوارج على الخصوص وكان الآخرون كالصفورية والبيهسية والاباضية أقل تطرفاً كما سنرى، ولقد استمر الخوارج في حرب لم تهدأ مع الدولة الأموية حتى سقوطها ولا بدّ من القول ان حكوماتهم قد ساهمت بشكل فعال في اضعاف الدولة الأموية مما أدى في النهاية الى سقوطها الى جانب العوامل الاخرى، وسنحاول تتبع حركات الخوارج على الدولة الأموية حسب تسلسلها الزمني...

وكان معاوية قد وليّ والي البصرة بن شعبة على الكوفة وعبدالله بن عامر على البصرة ومجستان وخراسان، فلما ورد عبدالله بن عامر على البصرة خرج فيها (الخطيم) وسمى الخطيم البصرة اسمائه على وجهه وسمه سهم بن غالب

(١) الطبري ١ / ٤٠٠ ابن الأثير ١ / ٤٠٩. قوله يذكر ان بني تولى قتلهم بعد فريقة عبد الله بن أبي الحسنة.

المرحلة الاولى

كان خمسمائة من الحرورية قد اعتزلوا في منطقة (شهرزور) وهي سهل في الشمال الشرقي من العراق وكان عليهم «فروه بن نوفل الاشجعي»، فلما سمعوا بما جرى من تولي معاوية للخلافة وقدمه الى الكوفة سنة ٤١ للهجرة تعاهدوا على المسير الى الكوفة ومجاهدة معاوية فأقبلوا اليها حتى دخلوها، فأرسل لهم معاوية خيلاً من أهل الشام فالتقوا معهم فكشفوا أهل الشام، فطلب معاوية من أهل الكوفة أن يقاتلوهم قائلاً لهم: أن لا أمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقكم، فاضطر أهل الكوفة للخروج اليهم فلما تصافوا قال لهم الخوارج: اليس معاوية عدونا وعدوكم؟ فدعونا نقاتلهم، فرفض أهل الكوفة دعوتهم، وكانت (اشجع) قبيلة رئيسهم فروه بن نوفل قد أخذته كرهاً، فأمر الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحر فالتقوا وأهل الكوفة فقتل الخوارج جميعاً^(١).

وكان معاوية قد ولي «المغيرة بن شعبة» على الكوفة و«عبدالله بن عامر» على البصرة وسجستان وخراسان، فلما ورد عبدالله بن عامر على البصرة خرج فيها (الخطيم) وسمي الخطيم لضربة أصابته على وجهه ومعه سهم بن غالب

(١) الطبري ٤ / ٤٠، ابن الأثير ٣ / ٤٠٩، غير أنه يذكر أن الذي تولى قيادتهم بعد فروه، عبد الله بن أبي الحوساء.

الهمجيمي، فلما وصلوا الى جسر البصرة وجدوا عبادة بن قرص الليثي وكان له صحبة فقتلوه، ثم سألوا بعد ذلك الأمان فأمنهم ابن عامر فكان فروة والخطيم اول من حكم من الخوارج بعد تولي معاوية وخرج بالسيف على السلطان.

وأما المغيرة بن شعبة فقد اتبع في الكوفة سياسة التهدة فلم يفتش اهل الاهواء عن اهوائهم وأحب العافية فلم يحاول استثارة الخوارج او الشيعة ولكن الخوارج استمروا في تحركاتهم فقد خرج ابو مريم ومعه امرأتان هما قطام وكحيله فوجه اليهم المغيرة جابر البجلي فقتلهم في (بادوريا) وحكم في الكوفة المدعو ابا ليلي على باب مسجد الكوفة فلم يعرض له أحد ثم تبعه ثلاثون رجلاً من الموالي فأرسل اليه المغيرة معقل بن قيس فقتلهم في سواد الكوفة سنة ٤٢ للهجرة وبلغ المغيرة ان معين بن عبدالله يريد الخروج فكتب الى معاوية بذلك فأجابه أن استنطقه فإن أقر أني خليفة فاطلق سراحه وإن أبى فاقتله، فاستنطقه فأبى فقتله^(١)، وكان حوالي اربعمائة من الخوارج ممن جرحوا في النهروان وعفا عنهم الامام علي(ع) وبينهم حيان بن ضبيان السلمي قد تسللوا الى الري، فلما بلغهم استشهاد الامام قرروا القدوم الى الكوفة والخروج على السلطان، فلبثوا حتى قدم المغيرة الى الكوفة والياً عليها، فاجتمع الخوارج وولوا عليهم المستورد بن علفه التميمي وقرروا الخروج في شعبان سنة ٤٣ للهجرة ومن ثم تجمعوا في الحيرة وهم يعدون انفسهم، فبلغت اخبارهم المغيرة فجمع اهل الكوفة ورؤساءها وطلب منهم ان يكفوه سفهاءهم وكان الخوارج بعد أن عُرف مكانهم قد دخلوا الكوفة وانشروا فيها مستترين فلما علموا بخطبة المغيرة خرجوا متفرقين وساروا الى الصراة، وهم ثلاثمائة رجل فبعث اليهم المغيرة ثلاثة آلاف عليهم معقل بن قيس وهو من الشيعة وكان على شرطة الامام علي(ع) ولكن المغيرة أرسل معه جاسوساً يقتنص له الاخبار وهو قبيصة بن الدمون، فغادر الخوارج الى (بهرسير)، وهي قبالة المدائن وأرادوا عبور دجلة اليها إلا أن واليها منعهم، فلما علموا بمسير

عن نسخة من نسخة بخطه في تاريخ بغداد ٦١٠٠ ج ١٢ ص ١٠٨ (١)

(١) ابن الأثير ٣ / ٤١٢ - ٤١٣ .

معقل وجيشه اليهم قرروا ان ينهكوا الجيش فساروا مع نهر دجلة جنوباً حتى دخلوا حدود ولاية البصرة التي كان عليها عبدالله بن عامر فأرسل اليهم ثلاثة آلاف رجل عليهم شريك بن الاعور وهو من الشيعة الذين قاتلوا مع الامام في الجمل وصفين، فخشي الخوارج ان يحاصروا بين جيش الكوفة من الشمال وجيش البصرة من الجنوب فعادوا واشتبكوا مع جيش الكوفة وجرت بينهم عدة وقعات وأخيراً اشتبكوا في معركة حاسمة قبالة المدائن فالتقى أميراً الجيشين مبارزة وهما معقل والمستورد فقتل كل منهما صاحبه وانتهى الامر بإبادة جيش الخوارج^(١)، وفي سنة ٤٥ للهجرة ولي زياد ابن ابيه على البصرة خلفاً لعبد الله بن عامر وذلك بعد أن ادعاه معاوية^(٢) أخاً له من ابي سفيان، فلما قدم البصرة خطب في اهلها خطبته المعروفة فقام اليه مرداس بن إديه ورد عليه مقالته وكان مرداس هذا من الخوارج، ثم ان زياداً بدأ بتتبع الخوارج والشيعة وقد كان بهم عليماً اذ انه كان مع الامام قبل ان يدّعيه معاوية، فكان يقتل على الظنة والشبهة وأمر الناس بعدم التجول في المدينة بعد صلاة العشاء، فمن وجد بعد هذا قتل فوراً^(٣) وقد ظهر الخوارج في اطراف البصرة فمنهم سهم بن غالب الهجيمي الذي حكم في الاهواز ثم اختفى وطلب الامان فلم يؤمنه زياد الى ان قبض عليه وصلبه على باب داره، وبعدها قُتل احد الخوارج وهو الخطيم واسمه يزيد بن مالك الباهلي كما يروي ابن الاثير خلافاً للطبري الذي ذكر ان الخطيم خرج في ولاية عبدالله بن عامر واضاف ابن الاثير ان زياداً سيره الى البحرين ثم أعاده وقتله سنة ٧٦ للهجرة.

(١) الطبري ٤ / ١٥٥، شرح النهج ٤ / ١٣٤، ابن الأثير ٣ / ٤٢٠ .

(٢) كان زياد عاملاً على فارس في زمن الامام وقد راسله معاوية يستميله، فأجاب معاوية: كيف تصل الي وبينني وبينك ابن عم رسول الله معه مائة الف سيف وان وصلت الي لتجدني أحمر ضراباً بالسيف (كناية عن انه مولى) ثم ادّعه معاوية ابن سفاح لأبي سفيان رغم الحديث النبوي (الولد للفراش وللعاهر الحجر) واخلص بعدها لمعاوية . ابن الأثير ٣ / ٤١٦ - ٤٤٤ .

(٣) الطبري ٤ / ١٦٧ .

وبعد وفاة المغيرة بن شعبة جمعت الكوفة والبصرة لزياد فكان يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة أشهر في البصرة وكان يولي على البصرة حين يغادرها سمرة بن جندب فقتل هذا من اهل البصرة بشراً كثيراً، ويُقال ان اول من خرج بعد اهل النهروان قريب (وزحاف) فحكما وأخذوا يستعرضان الناس ويقتلون من مروا به فبلغ أمرهما مرداس بن أدية فقال قريب لا قرّبه الله وزحاف لا عفا الله عنه، ركبها عشاء مظلمة، يريد استعراضهما للناس - ثم ان اهل البصرة تكاثروا عليهم فقتلوهم ومن خرج معهم. ويبدو ان تقارب فترة خروج هؤلاء قد اشكلت على المؤرخين لذا حدث خلط بينهم في تاريخ خروجهم، وكان قريب وزحاف قد بدأوا حركتهم بقتل ابناء القبائل في البصرة وتركوا السلطان مما ادى الى تضافر الناس عليهم^(١).

اشتدت مطاردة زياد للخوارج في البصرة بعد هذه الحركات وقد هدد زياد اهل البصرة انه سيعزبهم من العطاء إن أفلت احد من الخوارج، وكان سمرة بن جندب يتلذذ بقتل الناس وقد ذكر الطبري عن رواته انه شهد جندباً وقد أتى بناس كثير، وآخرين بين يديه، فيقول للرجل: ما دينك فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وإني برئ من الحرورية، فيُقدّم فيضرب عنقه حتى مرّ بضعة وعشرون رجلاً^(٢)، وفي سنة ٥٢ للهجرة خرج زياد ابن فراس العجلي في ثلاثمائة فارس في منطقة مسكن في وسط العراق فارسل اليه زياد جيشاً عليه سعد بن حذيفة فقتلهم وخرج على أثره رجل من طي يدعى معاذ فبعث اليه زياد من قتله وقيل انه استأمن.

وكان زياد قد حبس قوماً من الخوارج في البصرة ثم دعا بهم وعرض عليهم ان يقتل بعضهم بعضاً ويطلق سراح القاتلين ففعلوا ذلك ثم ندموا على عملهم وتذامروا للخروج على زياد فحكّموا في البصرة وكانوا سبعين رجلاً فارسل زياد

(١) شرح النهج ٤ / ١٣٥، الطبري ٤ / ١٧٧، ابن الأثير ٣ / ٤٦٣ يذكر ان خروجهما سنة ٥٠ للهجرة.

(٢) الطبري: ٤ / ٢١٧.

شرطته من البخارية (اهل بخارى) فقتل الخوارج البخارية وتابعوهم الى داخل البصرة حتى تكاثروا عليهم الناس فقتلوا جميعاً وذلك سنة ٥٨ للهجرة وكان اميرهم طواف بن غلاق^(١).

وفي سنة ٥٨ للهجرة تولى الكوفة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان، وكانت طائفة ممن بايعوا المستورد بن علفة الذي مر ذكر خروجه قد أخذوا وسجنوا بعد ان هزم جمعهم، ثم أخرجوا من السجن بعد وفاة المغيرة بن شعبة والي الكوفة، فاجتمعوا في الكوفة وقرروا الخروج على بني امية وبايعوا حيان بن ضبيان، فتدارسوا امرهم ثم اتوا «بانيقيا» فبعث اليهم عبدالرحمن جيشاً فقتلوا جميعاً.

ثم تولى عبيدالله بن زياد الكوفة فاشتد في طلب الخوارج ولم يكن له همّ سواهم وقتل منهم صبراً جماعة كبيرة، وكان ممن قتل عروة بن اديه وهو اول من حكم، وكان ابن زياد قد خرج الى ظاهر الكوفة يراهن على سباق الخيل فوبخه ابن اديه هناك فظن ابن زياد انه ما جابهه إلا ومعه قوم على رأيه فتركه ودخل الكوفة ثم بعث اليه من أتاه به، فقطع رجله ويديه ثم قال له ابن زياد كيف ترى، قال: أرى أنك افسدت دنياي وأفسدت آخرتك، ثم قتله وارسل إلى ابنته من قتلها، على اثر ذلك خرج مرداس بن اديه شقيقه في الاهواز في اربعين رجلاً، فبعث اليهم ابن زياد جيشاً قوامه الفي رجل عليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج وقتلوا العديد من رجاله^(٢).

وكان مرداس قد شهد صفين مع علي(ع) وأنكر التحكيم وشهد النهروان مع الخوارج ونجا فيمن نجا وقد حبسه ابن زياد فيمن حبس من الخوارج، وحدث ان قتل الخوارج رجلاً من الشرط فأمر ابن زياد بقتل جميع من في السجن منهم، فهرب مرداس مع سجنائه الذي رأى من نسكه وعبادته ووفائه بالعهد ما أعجبه، وكانت امرأة من الخوارج تدعى البلعاء قد ذكرها ابن زياد في ليلته ليقتلها،

(١) ابن الأثير ٣ / ٥١٦.

(٢) الطبري ٤ / ٢٣٢.

فأنذرها مرداس وحذرهما ولكنها ابت الهرب فلما كان اليوم التالي رآها مرداس في السوق وقد قُطعت يداها ورجلاها فعرج إليها فنظر ثم عض على لحيته وقال لنفسه: لهذه اطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس، وعزم على الخروج فخطب اصحابه (انه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين، تجري علينا احكامهم مجانبين للعدل مفارقين للفصل، والله ان الصبر على هؤلاء لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم، ولكننا ننتبذ عنهم ولا نجرد سيفاً ولا نقاتل إلا من قاتلنا) ويظهر من خطبته هذه انه لا يشارك الخوارج وخاصة الازارقة في معتقداتهم من استعراض الناس وإخافتهم او اعتبار دار الاسلام دار كفر، وقد اجتمع الى مرداس زهاء ثلاثين من اصحابه وفيهم كهمس بن طلق الصريمي وهو من الشجعان ومن معروفهم، ومضى مرداس حتى نزل «أسك» وهي بين «رامهرمز» و«أرجان»، فمر به مال لابن زياد فأخذ منه إعطيته واصحابه وترك الباقي، فلامه اصحابه فقال لهم: انهم يقيمون هذا الفئ كما يقسمون الصلاة فلا نقاتلهم، فجهز له عبيدالله بن زياد جيشاً من الفي رجل عليهم اسلم بن زرعة في اسرع وقت وقد تمام اصحاب مرداس أربعين رجلاً، فالتقوا بأسك فهزمهم الخوارج شر هزيمة ثم ندب لهم ابن زياد أربعة آلاف عليهم عباد بن أخضر فسار اليهم، وكان جمع من جيش الدولة قد قدم من خراسان عليهم القعقاع بن عطية الباهلي يريدون الحج فوصل وقد التقى جيش عباد والخوارج فلما رآهم القعقاع قال: ما هذا قالوا: الشراه فحمل عليهم فاسره الخوارج ثم أطلقوا سراحه، فحمل عليهم ثانية فأسروه وقتلوه، وحين وقت الصلاة فنزل الخوارج وجيش عباد بن أخضر كل يصلي في ناحية فاسرع جيش عباد في صلاتهم او لعلهم لم يصلوا ثم حملوا على الخوارج وهم ما بين راكم وساجد فقتلوهم جميعاً، ولما بلغت اخبار قتل مرداس الى الكوفة ائتمر الخوارج فيها على قتل عباد بن أخضر ثأراً لمرداس، فأقبل يوماً على بغلة ومعه ابنه فقال له رجل منهم: أسألك عن مسألة، قال: قل قال: رأيت رجلاً قتل رجلاً بغير حق وللقاتل جاه وقدر وناحية من السلطان الولي المقتول أن يفتك به إن قدر عليه، قال بل يرفعه الى السلطان، قال

ان السلطان لا يُعدي عليه لمكانه وعظيم جاهه، قال: اخاف عليه أن يفتك به السلطان، قالوا: دع عنك السلطان، قال لا تلحقهم تبعة، فحكموا وخبطوه بأسيافهم^(١).

وفي معركة «آسك» قال شاعر الخوارج

وَيَقْتُلُهُمْ بِآسِكَ أَرْبَعِينَا	أَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ
وَلَكِنْ الْخَوَارِجُ مُؤْمِنُونَ	كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ
عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يَنْصُرُونَا ^(٢)	هِيَ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ



كانت هذه المرحلة من حركة الخوارج تتميز بعدم انتشارها خارج نطاق الكوفة والبصرة وبعض نواحي الاهواز ولم يكن نشاطهم الفكري والتنظيمي قد امتد عميقاً لذا نرى ان خروجهم في اعداد قليلة يدل على عدم وجود الانصار بشكل كاف ولهذا السبب لم تكن حركاتهم تشكل عبئاً كبيراً على الولاة لامتلاكهم المال والرجال الكافيين للقضاء على هذه الحركات، إلا أن الولاة كانوا يشعرون ان حركة الخوارج يمكن أن تشكل خطراً أكيداً على الدولة لو اتيح لها المجال للعمل بحرية وذلك بسبب النقمة المتزايدة على الدولة في هذه الامصار. لقد كان السبب المباشر لحركة الخوارج في البداية هو التحكيم ولما انقضى الامر واستتبت الامور لبني امية اتضح لاهل العراق عامة والخوارج بشكل خاص ان الخلافة الاسلامية التي عرفوها قد انقضت وتحولت إلى ملك عضوض لا يهم المسؤولين فيه سوى تثبيت اركان الملك ولو ادى ذلك الى ضرب التعاليم الاسلامية عرض الحائط، وكان الولاة الذين تعاقبوا على البصرة والكوفة في

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٨٦، ابن الأثير ٣ / ٥١٧ / ٤ / ٩٤ .

(٢) ابن الأثير ٣ / ٥٢٠ .

منتهى القسوة ولم يكن يهمهم قتل الالاف بما فيهم الابرياء في سبيل تثبيت الملك، وقد اضاف ذلك سبباً آخر للثورة المتأججة للخوارج، وقد احس الخوارج انهم بحاجة الى نشر فكرهم ودعوتهم في البلدان الاسلامية وقد بدأت بوادر فكرهم تصل الى اليمن واجزاء شبه الجزيرة العربية وقد نما وترعرع هذا الفكر في ظل عدم وجود الملاحقة الشديدة هناك مما جعل هذه المناطق فيما بعد موطناً دائماً للخوارج، ولما كانت حركة الخوارج هي الحركة الوحيدة التي كانت تقاوم الدولة بالسلاح فقد انظم اليها تدريجياً عدد كبير من الناقمين على الدولة، خاصة وان الخوارج كانوا في معظمهم من القراء، ويذكر الاستاذ سعيد ايوب في كتابه معالم الفتن^(١) أن عمر بن الخطاب (رض) أمر بقراءة وتعلم القرآن وإن القراءة فقط هي بذرة الخوارج التي بنيت عليها شجرتهم وان هؤلاء القراء كانوا يظهرون العبادة والنسك مما جعل افئدة بعض الناس تهوي اليهم، هذا السبب يضاف الى ظلم الدولة وتعتتها وأخذها الناس بالشبهات علناً دون تحرز او اهتمام بمشاعر المسلمين^(٢). على أن هؤلاء القراء كانوا يتأولون القرآن ويفسرونه على هواهم مما افقدهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل، ولما كانت المنطقة الرئيسية لتحرك الخوارج وهي العراق تميل الى رأي الشيعة الذين ينقمون على الدولة ويعتبرونها غير شرعية ويروون محاربتها وفق توفر شروط معينة، اضافة الى ان الشيعة اكثر تنظيماً وانضباطاً بسبب وجود الامام الذي يرجعون الى رأيه في النهاية وعلى هذا فلم يكن للشيعة حركة مسلحة ظاهرة تقاوم الدولة فلم يبق في الساحة سوى

(١) معالم الفتن ١ / ٣٨٩ .

(٢) خطب الحجاج في أهل الكوفة قائلا: من اعياء داؤه فعليج دواؤه، ومن استبطأ أجله فعليج أجله، ومن استثقل رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفاً، وإن للسلطان سيفاً فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صليبه، إني لا أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر... انظر صبح الأعشى ١ / ٢٢٠ . ومن خطبة له: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، أما والله لا ألحونكم لحو العصا، ولا أعصينكم عصب السلم ولا أضربنكم ضرب غرائب الابل... يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الاماء... الخ.

الخوارج الذين كانوا لا يطيقون الانتظار ولم يمارسوا الاعداد الجيد والتنسيق وجمع الانصار قبل خروجهم كما انهم - في تلك المرحلة - لم يحاولوا ان ينسقوا بين الحركات التي تجري في آن واحد في اماكن مختلفة بسبب عدم نضوج الخطاب السياسي او الديني وعدم توحيده اضافة الى عدم وجود قيادة مركزية موجهة ولقد وضح الاختلاف في العقيدة بين اولئك الذين يرون استعراض الناس وتجريد السيف وهو رأي أغلبية الخوارج وبين من لا يرى ذلك كمرداس بن أدية، وكانت سياسة زياد ومن بعده ابنه عبيدالله في الخوارج ليس فيها هوادة ولا لين فقد كانوا يجسئونهم تارةً ويقتلونهم تارةً وأكثروا فيهم القتل واشتدت قسوة عبيدالله بن زياد عليهم بعد مقتل عباد بن أخضر قائده غيلة اذ كتب الى عبد الله بن ابي بكرة خليفته على البصرة أن لا يدع أحداً يُعرف بهذا الرأي إلا حبسه ثم قَدِمَ البصرة وأمر بقتل كل مسجون ثم أمر بإحضار عُروة بن اديه وذلك بعد خروج أخيه مرداس فقتله^(١) وكانت سيرة أبيه أخف وطأة على الناس منه إذ كان يقتل المعلن عن رأيه ويستصلح المسر^(٢).

وكان لهذه السياسة أثرها في منع الخوارج من اظهار امرهم لفترة اتجهوا فيها الى تنظيم أنفسهم ونشر أفكارهم في مناطق أخرى بعيدة عن مركز الخطر في الكوفة والبصرة. ولما توفي معاوية وخلفه ابنه يزيد امتنع عبدالله بن الزبير في مكة وسمى نفسه العائد بالبيت وهو ينتظر الفرصة للوثوب على خلافة يزيد الذي اجمع المسلمون في مكة والمدينة والعراق أنه لم يكن لها أهلاً، وأما الحسين بن علي(ع) فقد دعاه أهل الكوفة الى انفسهم ولم يزالوا به حتى ترك مكة وتوجه الى الكوفة، وكان ابن الزبير والحسين قد رفضا بيعه يزيد وغادرا المدينة سراً الى مكة، ولم يكن شيء اثقل على قلب ابن الزبير في مكة من وجود الحسين(ع) بسبب ميل اهلها اليه فلما خرج منها صفا له الجوّ وبدأ يدعو الى نفسه، وأما الحسين(ع) فقد أرسل له عبيدالله

(١) الكامل في اللغة ٢ / ١٩٠، وذكر الطبري في ٤ / ٤٠٣ ان زياد وابنه قتل ثلاثة عشر ألفاً

وحبسوا أربعة آلاف من الخوارج.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٩٢ .

بن زياد جيشاً بأمر الخليفة يزيد فالتقاه في كربلاء.. حيث جرت ملحمة اسطورية استشهد فيها الحسين (ع) واهل بيته وأخذ من بقي منهم حياً من نساء واطفال اسرى الى الشام، وكان لواقعة كربلاء واستشهاد الحسين اثرها العميق في نفوس المسلمين اذ شكلت حافزاً اساسياً لكل الحركات المناوئة للدولة الاموية وخاصة الشيعة الذين بدأوا يعيدون تنظيم انفسهم ويمهدون لثورات مستمرة أدت في النهاية الى اضمحلال الدولة الاموية الى جانب العوامل الاخرى - وكان استخلاف يزيد وهو فتى غر مترف لم يُعرف سوى بشرب الخمر والتجاهر بالمعاصي وملاعبة القروء وما تبعه من استشهاد الحسين (ع) واستباحة المدينة التي اندلعت فيها ثورة قادها ابناء الانصار والمهاجرين مما حدا بيزيد الى ارسال جيش من الشام لقمعها، وقد قام قائد هذا الجيش وهو مسلم بن عقبة باعمال وحشية لا تصدق اذ استباح المدينة ثلاثة أيام لجيشه يقتل ويعذب وأجبر الناس على البيعة — وفيهم بعض الصحابة — على أنهم خَوَّلَ ليزيد^(١) ويذكر الرواة ان مئات المسلمين حملن سفاحاً في هذه الغزوة، كل هذا كان حافزاً جديداً لتطور ونمو حركة الخوارج وانتشارها وفشل السلطة في القضاء عليها، وفي عام ٦٤ للهجرة هلك يزيد وبويع ابنه معاوية الثاني (يلاحظ انهم قلدوا النظام التقليدي في الامبراطوريات المجاورة حتى في التسمية) ولم يلبث هذا إلا اربعين يوماً حتى خلع نفسه وتخلّى عن الحكم موضعاً للملأ عدم احقية الاسرة الاموية لان تحكّم المسلمين واضطربت أثر ذلك الامور في الشام، اما في الحجاز فقد سار جيش مسلم بعد ان استباح المدينة الى مكة وفي الطريق هلك مسلم ولما وصلوا الى مكة حدثت مناوشات بينهم وبين ابن الزبير ثم أتاهم نبأ هلاك يزيد فأرادوا البيعة لابن الزبير إلا ان هذا كانت تنقصه روح المغامرة وبعد النظر فرفض الاتفاق مع قائد الجيش (الحصين بن نمير)^(٢)، اما في العراق فإن عبيد الله بن زياد قد ضعف أمره وهرب من البصرة وقد سرق بيت المال^(٣) وبدأ ان الاوضاع كلها تمهد الطريق

(١) ابن الأثير ١١٩ / ٤ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير ١٢٩ / ٤ .

(٣) المصدر السابق .

للحركات المناوئة، إلا ان الخوارج كما يبدو لم يكونوا مهيبين في الكوفة او البصرة للوثوب على السلطة واستغلال الفراغ الناشئ عن انسحاب ولاة الامويين من العراق.

وكان للخوارج دور في افساد الامر على عبيدالله بن زياد في البصرة إذ كان في سجنه منهم اربعمائة رجل فلما ضَعُفَ امره وكلَّهم فيهم أطلق سراحهم، فافشوا في الناس يدعون الى محاربة السلطان^(١) واطهروا ما هم عليه، وكانت الحرب قد نشبت في البصرة بين ربيعة والازد من ناحية وبين بني تميم وذلك بسبب لجوء ابن زياد في الازد في بداية تنحيه عن الولاية وقد اعتزل الخوارج هذه الحرب إلا قليلاً فيهم عبس بن طلق الصريمي فإنهم اعانوا قومهم، وكانت هذه التجربة قد اظهرت ان ولاء الخوارج كان لعقيدتهم أقوى منه لقبائلهم.

وكان نافع بن الازرق قد ترك البصرة الى الاهواز حيث استولى عليها وطرده عمال الامويين فيها واستطاع ان يسيطر على الامور بعد ان حدث الاختلاف العقائدي بين الخوارج، وهذا الاختلاف هو المفرق الرئيسي لتشعب فرق الخوارج، وذلك بسبب الافكار المتطرفة لنافع بن الازرق وقد انخزل عنه نجدة بن عامر الحنفي الذي استطاع ان يضم اليه جماعة من الخوارج من اصحاب «أبي طالوت» «سالم بن مطر» وسار بهم الى اليمامة واستولى عليها وبدأ يتوسع في سلطانه حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر مستغلاً ضعف السلطة المركزية^(٢). ثم ذهب الى مكة وفيها عبدالله بن الزبير فكان يصلي بحذائه في كل جمعة وكانا يمسكان عن القتال رغم اختلافهما، إلا أن الخلاف دب بين نجدة وأصحابه، إذ نقموا عليه احكاماً احدثها في مذهبهم منها قوله ان الخطيئ بعد الاجتهاد معذور وأن الدين أمران، معرفة الله، ومعرفة الرسول وما سوى ذلك فالتناس معذرون في جهله إلى ان تقوم عليهم الحجة، فمن استحل محرماً عن طريق الاجتهاد فهو معذور، حتى ان من يتزوج اخته او امه

(١) الكامل في اللغة ١ / ٢٠٨ .

(٢) شرح النهج ٤ / ١٣٣، الكامل في اللغة ٢ / ٢٠٨ .

مستحلاً ذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن، فاجتمع عليه أصحابه وخلعوه ولكنهم جعلوا اختيار الامام الذي يخلفه له!! فاختار لهم أبا فديك فجعله امامهم، وهنا يجدر بنا ملاحظة خلعه وترك أمر الاختيار له ثم انصياعه للخلع بسهولة وبدون اعتراض، ولكن ابا فديك — خليفته — ارسل اليه من قتله غيلة وقد تولاه بعد قتله طائفة منهم وقالوا قتل مظلوماً.



(١) ابن الأثير ١١٩/٤ وما بعده. (٢) ٢١٨٠/٢ قتلاً في راجز (٣) ابن الأثير ١٢٩/٤. (٤) ٢١٨٠/٢ قتلاً في راجز (٥) ١٢٩/٤ وما بعده. (٦) المصدر السابق.

اختلاف الخوارج

في هذه الفترة التي هي بين انهيار حكم سلالة معاوية بعد مقتل معاوية الثاني الذي قيل انه اغتيل بالسهم وتولي بني مروان السلطة وما نشأ عنها من فوضى واضطراب وضعف في كافة اقاليم الدولة الاسلامية برزت الخلافات الفقهية للخوارج - وهي نقطة ينبغي ملاحظتها لانها تدل على عدم وجود منهجية ، اضافة إلى جهل بالعمل السياسي وما يُسمى بالمرحلية والاستراتيجية كما تدل على ان ايدي خفية قد يكون لها دور في بروز هذه الاختلافات، وكان للاختلافات الفقهية بين الخوارج نتائج مهمة في تعاقب الانقسامات، رغم انهم استولوا فعلياً على أجزاء كبيرة من الدولة الاسلامية وقد ظلت الانقسامات المستمرة هي السمة المميزة لحركاتهم وكانت السبب الرئيسي في عدم تطورها، وكان بدء الخلاف ان مولى لبني هاشم قال لنافع بن الازرق وهو في الاهواز: إن اطفال المشركين في النار بسبب شرك اباؤهم قاصداً بذلك المسلمين واطفالهم فأجابه نافع: كفرت وأدلت نفسك، فأجابه: إن لم أتك بهذا من كتاب الله فاقتلني، إن نوحاً نبي الله كان اعلم مني ومنك وقد قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ۚ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضَلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(١).

(١) سورة نوح الايات ٢٦ - ٢٧ .

وقد استطاع هذا المولى ان يقنع نافع بمقالته فتبنى افكاراً تقول بأن جميع المسلمين في النار ورأى قتلهم، وأن الدار اي دار المسلمين دار كفر إلا من اظهر ايمانه، ولا يحل اكل ذبائحهم ولا تجوز مناكحتهم ولا يجوز ان نوارثهم وهم ككفار العرب على عهد الرسول(ص) لا يقبل منهم إلا الاسلام أو السيف، وإن القعد (وهم الممتنعون عن الخروج بالسيف) بمنزلتهم وأن التقية لا تجوز^(١) واستحل الغدر بالامانة لمن خالفه، فخالفه نجدة بن عامر وقال إن نافعاً قد كفر القعد ورأى الاستعراض وقتل الاطفال، ثم انفصل الى اليمامة كما ذكرنا، ثم جرت بينهما مراسلات رأينا ان ندونها هنا لما فيها من اهمية في بيان تطور افكار الخوارج وعقائدهم فقد كتب نجدة الى نافع:

«اما بعد فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر تعاضد قوى المسلمين، لا تأخذك في الله لومة لائم ولا ترى معونة الظالم، كذلك كنت انت واصحابك، أما تذكر قولك لولا اني أعلم أن للإمام العادل مثل اجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين، فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه وأصبحت من الحق فصح^(٢) وصرت على مَرَّةٍ تَجَرَّدَ لك الشيطان ولم يكن أحد اثقل عليه وطأة منك ومن اصحابك، فاستمالك واستهواك وأغواك فغويت، وأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قَعْدَةِ المسلمين وضعفتهم، قال الله تعالى وقوله الحق ووعد الصديق ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون خرج إذا نصحووا لله ولرسوله﴾^(٣) ثم سماهم تعالى احسن الاسماء فقال ﴿ما على المحسنين من سييل﴾^(٤) ثم استحللت قتل الاطفال وقد نهى رسول الله(ص) عن قتلهم وقال جل ثناؤه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وقال سبحانه في القعدة خيراً فقال

(١) الكامل في اللغة ٢ / ٢٠٩، شرح النهج ٤ / ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) فصح: كنهه.

(٣) سورة التوبة آية ٩١ .

(٤) سورة الأسراء آية ١٥ .

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾.

فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين، أو ما سمعت قوله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾^(١). فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم، ورأيت أن لا تؤدي الامانة الى من خالفك والله يأمر ان تؤدي الامانات الى اهلها، فاتق الله وانظر لنفسك واتق يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فإنه عز ذكره بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصل والسلام.

فكتب اليه نافع جواباً: «بسم الله الرحمن الرحيم. اما بعد فقد أتاني كتابك تعضني فيه وتذكرني وتنصح لي وتزجرني وتصف ما كنت عليه من الحق وما كنت أؤثره من الصواب، وإنني أسأل الله جل وعز ان يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه، وعبت علي ما دنت به من اكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الامانة، فسأفسر لك لم ذلك ان شاء الله، أما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله(ص) لانهم كانوا بمكة مهجورين محصورين لا يجدون الى الهرب سبيلاً ولا الى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد فقهوا في الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم اذ قالوا ﴿كنا مستضعفين في الارض﴾^(٢) فقال ﴿ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وقال سبحانه ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾^(٣) وقال ﴿وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم﴾^(٤) فخير بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم فانظر الي اسمائهم وسماتهم، وأما الاطفال فإن نوحاً نبي الله كان أعلم بالله مني

(١) سورة النساء آية ٩٥. (٢) سورة النساء آية ٩٧. (٣) سورة التوبة آية ٨١. (٤) سورة التوبة آية ٩٠.

- (١) سورة النساء آية ٩٥.
- (٢) سورة النساء آية ٩٧.
- (٣) سورة التوبة آية ٨١.
- (٤) سورة التوبة آية ٩٠.

ومنك وقد قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كُفَّارًا﴾ فسماهم بالكفر وهم اطفال وقبل ان يولدوا فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا نقوله في قومنا والله تعالى يقول ﴿كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾^(١) وهؤلاء كمشركي العرب لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم الا السيف او الاسلام وأما استحلال امانات من خالفنا فإن الله تعالى أحل لنا اموالهم كما أحل دماءهم لنا، فدمائهم حلال لنا طلق وأموالهم فيء للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا والسلام على من أقر بالحق وعمل به»^(٢).

ثم كتب نافع الى عبدالله بن الزبير في مكة يعيب عليه معتقدهاته وكتب الى من في البصرة من الخوارج يدعوهم للخروج وكان فيها من معروفهم (ابو ييهس هيصم بن جابر الضبعي وعبدالله بن أباض المري) فأقبل ابو ييهس على ابن اباض قائلاً: إن نافعاً قد غلا فكفر وإنك قصرت فكفرت وكان ابن ييهس يرى أن الإقامة تحل لهم في ديار المسلمين كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وان احكام المشركين تجري عليهم (اي على المسلمين) وان مناكتهم ومواريتهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام وإن كان حكمهم عند الله حكم المشركين.

ثم كتب نافع كتاباً الى ابن اباض وابن الصفار يدعوهما اليه فأما ابن الصفار فإنه لم يقرأ الكتاب خشية تفرق اصحابه وأما ابن اباض فقد قرأه ثم قال: قاتله الله أي رأي رأي! صدق نافع، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً، ولكنه قد كذب فيما يقول، إن القوم براء من الشرك ولكنهم كفار بالنعم والاحكام ولا يحل لنا سوى دمائهم وما سوى ذلك فهو حرام علينا فقال ابن الصفار: برئ الله منك فقد قصرت وبرئ من ابن الازرق فقد غلا فقال الآخر: برئ الله منك ومنه، وتفرقوا^(٣).

(١) سورة القمر آية ٤٣ .

(٢) الكامل في اللغة ٢ / ٢١٠ وما بعده، شرح النهج ٤ / ١٣٩، ابن الأثير ٤ / ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) ابن الأثير ٤ / ١٦٨ .

وهكذا تفرّق الخوارج الى عدة فرق: فرقة نجدة بن عامر في اليمامة واليمن وفرقة نافع بن الازرق وهم الازارقة الذين يقرون البراءة والاستعراض واستحلال الامانة وقتل الاطفال وفرقة ابن بيهس التي ذكرنا قولها وسموا البيهسية^(١) وفرقة عبدالله ابن أباض وهم الاباضية اما الصفرية فكانت مقاتلهم الين وأكثر مرونة من بقية الخوارج خاصة في أمر القعد وقد سموا صفرية لانهم اصحاب ابن الصفار وقال آخرون انما سموا لصفرة عَلتهم.

نجدة بن عامر الحنفي

اما نجدة بن عامر فقد كان في بداية أمره مع نافع بن الازرق في اليمامة فلما اظهر نافع مقالته وأفكاره فارقه نجدة وسار الى اليمامة بعد ان توجه نافع نحو البصرة، وكان في اليمامة أحد الخوارج يظهر أمره ويدهي سالم بن مظن فدعاة اليه فهاجمه وسيطر نجدة على قلعة قادمة من البحرين الى البصرة متوجهة الى ابن الزبير في مكة. وكان في القلعة أسوار ومجيد فقال لأصحابه اقتحموا المال وردوا العبيد ليعملوا في الأرض فإن ذلك خير لكم (وكان ذلك قبل مبايعة ابي طالبوت له) فأعجب قوله أصحاب ابي طالبوت فخلعوه وناموا ليلتي وقد بدأ بالسير الى قبائل بني كعب فقتلهم قتلاً ذريعاً فذكر أصحابه حتى بلغوا ثلاثة آلاف فعاد الى اليمامة ثم سار منها الى البحرين سنة (٦٧) للهجرة فالتفت اهلها بين من يريد الدخول في طاعة نجدة وبين من يعارض ذلك وجرت بين قبائل الازرق التي تريد نجدة وبين قبائل عبدالقيس التي تعارضه حروب انتهت بانتصار الازرق فارسل نجدة

(١) البيهسية: كان ابن بيهس قد بقي الى زمن الحجاج حينما ولي على العراق في زمن عبد الملك بن مروان، فطلبه الحجاج فهرب الى المدينة فظفر به عثمان بن حيان واليها وحجسه، وكان قد أعجب بفصاحته وعلمه فابقى عليه وكان يستدعيه ليسامره الى أن ورد كتاب الوليد بن عبد الملك يأمره فيه بأن يقطع يديه ورجليه ففعل به ذلك ثم قتله.

نجدة بن عامر الحنفي

أما نجدة بن عامر فقد كان في بداية أمره مع نافع بن الأزرق في اليمامة فلما أظهر نافع مقالته وأفكاره فارقه نجدة وسار إلى اليمامة بعد أن توجه نافع نحو البصرة، وكان في اليمامة أحد الخوارج يُظهر أمره ويدعى سالم بن مطر فدعاه إليه فبايعه وسيطر نجدة على قافلة قادمة من البحرين أو من البصرة متوجهة إلى ابن الزبير في مكة وكان في القافلة أموال وعبيد فقال لأصحابه اقسموا المال وردوا العبيد ليعملوا في الأرض فإن ذلك خير لكم (وكان ذلك قبل مبايعة أبي طالوت له) فأعجب قوله أصحاب أبي طالوت فخلعوه وبايعوا نجدة، وقد بدأ بالسير إلى قبائل بني كعب فقتلهم قتلاً ذريعاً، فكثر أصحابه حتى بلغوا ثلاثة آلاف، فعاد إلى اليمامة ثم سار منها إلى البحرين سنة (٦٧) للهجرة فاختلف أهلها بين من يريد الدخول في طاعة نجدة وبين من يعارض ذلك وجرت بين قبائل الأزديين وبين نجدة وبين قبائل عبد القيس التي تعارضه حرب انتهت بانتصار الأزديين، فأرسل نجدة جمعاً إلى المنهزمين من عبد القيس فيهم ابنه المطرح فقتلوا ابنه وهزموا جمعه، ثم أرسل جمعاً إلى منطقة «الخط» فقاتل أهلها وظفر بهم.

ولما ولي مصعب بن الزبير البصرة سنة (٦٩) للهجرة بعث أربعة عشر ألفاً عليهم عبدالله بن عمير لقتال نجدة في البحرين، فبيتهم نجدة وقتلهم حتى

هزمهم، وأرسل نجدة جيشاً الى عمان فاستولى عليها قائده عطية بن الاسود الحنفي الذي اقام بها اشهرأ واستخلف عليها وعاد إلا أن أهل عمان ثاروا على خليفته وقتلوه وطرردوا الخوارج، وبعد أن استقر أمر نجدة سير جباته الى البوادي ليجبوا صدقاتها وسار هو الى اليمن فبايعه اهلها ثم بعث قائده (ابا فديك) الى حضرموت فجبى الصدقات، وكان نجدة قد ذهب في سنة (٦٨) للهجرة الى مكة للحج ومعه جماعة من اصحابه واتفق مع ابن الزبير على ان يصلي كل منهم باصحابه، ثم سار الى المدينة فتأهب اهلها لقتاله ولبس عبدالله بن عمر السلاح فلما سمع نجدة بذلك عدل عن المدينة وتوجه نحو الطائف، ثم ارسل الى ابن عمر يسأله مسائل في الدين فقال لرسوله اسألوا عبدالله بن عباس وقد جرت بين ابن عباس ونجدة حوارات معروفة. ثم بعث عماله الى الطائف وثبالة والسراة ونجران، وقطع الميرة عن الحرمين فكاتبه ابن عباس في ذلك فعدل عن منع الميرة، وبدأت الخلافات تدب بين صفوف اصحاب نجدة وضعف أمره فوثب أهل الطائف على عامله المسمى (الخاروق) فقتلوه، ثم اختلف نجدة مع قائده عطية الحنفي لاسباب عديدة منها ان عبدالمملك بن مروان كاتب نجدة يدعوه الى طاعته على ان يوليه اليمامة، فاتهمه الخوارج بالمداينة فافترق عنه عطية وذهب الى عمان وتركه معظم من معه وبايعوا (ابا فديك عبدالله بن ثور) فهرب نجدة واختفى وتعقبه اصحاب ابي فديك حتى قتلوه، عند ذاك سخط قوم منهم على قتله ففارقوا ابا فديك بعد ان طعنوه اثنتي عشرة طعنة لكنه شفى منها وأقام في البحرين حتى سنة (٧٢) للهجرة حيث أمر عبدالمملك بن مروان بانفاذ جيش قوامه عشرة آلاف رجل عليهم عمر بن عبدالله وكان الجيش من اهل الكوفة والبصرة فساروا حتى بلغوا البحرين، ثم التقوا بالخوارج في معارك وانتصروا عليهم وقتل قائدهم ابو فديك وقد قتل من الخوارج نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة وبذلك انتهت حركة نجدة ولكن آثارها الفكرية ظلت في تلك المناطق^(١) ووفق سياق الحوادث فإن ارسال مصعب بن الزبير لجيشه الى نجدة كان قبل عام (٦٩) للهجرة.

(١) ابن الأثير ٤ / ٢٠١، ٤ / ٣٦٢ .

نافع بن الأزرق

بعد ان أظهر نافع مقالته منفرداً بها عن بقية فرق الخوارج أقام في أصحابه في الاهواز التي سيطر عليها ناشراً الرعب والفرع في صفوف المسلمين اذ كان يقتل من خالفه، وقد أرسل عماله الى كور الاهواز يجبون الفيء، حينذاك ايقن اهل البصرة ان الخطوة التالية لنافع ستكون البصرة لقربها من الاهواز ففرع الناس الى «الاحنف بن قيس» سيد بني تميم وأهم وجوه البصرة وسألوه ان يتخذ ما يلزم لحماية المدينة من الخوارج بسبب ضعف الولاة الذين تعاقبوا على البصرة والذي نتج عن انهيار الحكومة المركزية في الشام بسبب الخلاف على السلطة بين آل امية وآل مروان، وكانت البصرة آنذاك خاضعة لسلطة عبدالله بن الزبير وقد ولى عليها عبدالله بن الحارث بن نوفل المعروف بـ(بيسه) فاجتمع به الاحنف ووجوه الناس فقر رأيهم على انتداب عشرة آلاف مقاتل واختاروا عليهم مسلم بن عبيس وهو معروف بالشجاعة والتدين، فخرج بالناس حتى اذا كان عند جسر البصرة خطبهم قائلاً انه سيحارب قوماً ليس وراءهم إلا السيوف والرماح، وإن من كان شأنه الجهاد فلينهض معه، ومن أحب الحياة فليرجع، فعاد منهم نفر يسير^(١).

(١) الكامل في اللغة ٢ / ٢١٤، شرح النهج ٤ / ١٤٠، ابن الأثير ٤ / ١٩٤.

ثم سار صوب الاهواز والتقى بنافع وجيشه في قرية (دولاب) على مسافة اربعة فراسخ عن الاهواز، وجرت معركة قاسية حتى تكسرت السيوف والرماح وعقرت الخيل وتضاربوا بالسيوف والعمد حتى قتل أميرا الجيشين نافع ابن الازرق ومسلم بن عبيس، واستمرت المعركة اكثر من عشرين يوماً وكان نافع قد استخلف على الخوارج عبيدالله بن البشير بن الماحوز الذي استمر في القتال، ثم فترت الحرب وتوافق الطرفان وليس فيهم غالب او مغلوب. ثم ولى عبدالله بن الزبير على البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر التيمي الذي ولى أخاه عثمان حرب الخوارج، فخرج من البصرة في اثني عشر ألفاً والتقى بجيش البصرة الذي كان قد اشترك في معارك دولاب وكان عليهم - بعد أن قتل قائدهم - حارثه بن بدر الغداني الذي اجمعوا عليه من دون ان يوليه أحد، فلما عبر اهل البصرة نهر دجيل وشاهدوا الخوارج - وكانوا قلة - استخف بهم عثمان قائد الجيش وقرر ان يقاتلهم فوراً إلا أن حارثة بن بدر طلب منه التريث قائلاً له ان هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعسف فابق على نفسك وجندك ولكنه أبى عليه وهاجم الخوارج حتى غربت الشمس فقتل عثمان وانهزم اهل البصرة، فجمعهم حارثة بن بدر في نهر (ثيري) على طريق الاهواز، فعبر اليه الخوارج وكان اصحابه قد تسللوا عنه وبقي في قلة من الناس، فهرب حارثة والناس معه وركب سفينة يريد البصرة إلا انه راح ضحية شهامته إذ ان رجلاً من بني تميم عليه كامل سلاحه وكان الخوارج يطاردونه خاطبهم وهو على البر وهم في السفينة وطلب منهم ان يستصحبوه ولا يضيعوه فلما قربوا السفينة من الجرف قفز اليها فغرقت بمن فيها ومات حارثة^(١)،

(١) من طريف أخبار حارثة بن بدر أنه كان صاحب شراب لا يصبر عليه مائلاً للمزاج، فلما عقدوا له الرئاسة بعد مقتل عثمان قائد الجيش قال لهم: اذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين وللموالي زيادة فريضة محرصاً إياهم فلما انهزم القوم قال لاصحابه: كربوا ودولوا أو حيث شئتم فاذهبوا. وقال:

أير الحمار فريضة لعبيدكم والخصيتان فريضة الأعراب
راجع الطبري ٤ / ٤٧٧، شرح النهج ٤ / ١٤٤، الكامل في اللغة ٢ / ٢١٤ وما بعدها، ابن الأثير ٤ / ١٩٥.

فلما هزم جيش البصرة واستعلى الخوارج توجهوا نحو البصرة وعليهم الزبير بن علي السليطي فحاصروها فخاف أهلها خوفاً شديداً وفزعوا إلى الاحنف بن قيس الذي اجتمع مع والي المدينة وبعد مشاورات استقر الرأي على تولية المهلب بن ابي صفرة حرب الخوارج بعد شروط اشترطها لنفسه منها ان له ان ينتخب من يشاء وإمرة كل بلد يغلب عليه وأن يأخذ ما يشاء من الفبيء، وهي شروط تعسفية املاها المهلب بعد ان رأى ان والي وأهل البصرة مضطرون لاجابته عليها بسبب التهديد القوي الذي يشكله الخوارج الذين كانوا يحاصرون المدينة.

المهلب بن ابي صفرة وحرب الخوارج

تبدأ مع تولي المهلب مرحلة جديدة من تاريخ حركة الخوارج، إذ ان هذه الحركة التي بدأت تنمو نتيجة عوامل عديدة أهمها ضعف السلطة المركزية في الفترة التي تلت وفاة معاوية الثاني والحروب التي دارت في الشام والتي انتهت بانتصار مؤيدي مروان بن الحكم في معركة (مرج راهط) مما جعل الدولة تظهر عن قسوتها أطرافها لعدم استقرار المركز، كما ان ابن الزبير في مكة كان ضعيفاً متردداً، وبعد ان تولي مروان الحكم استمرت الخلافات في الشام، وكان الولاة يتعاقبون على البصرة ويهزلون أضعفهم مما قوى شوكة الخوارج كما ان البصرة تعرضت في سنة ٥٦ هـ للهجرة إلى طاعون الطاعون الذي سمي «الطاعون الجارف» الذي اهلك خلقاً كثيراً من أهلها، وقد شجع الخوارج انتصاراتهم التي حققوها على جيوش البصرة وأطمعهم بالنزول عليها وسيطرة إخوانهم على اليمن والحدادة والبحرين وسيرهم إلى مكة والمدينة.

كان للمهلب بن ابي صفرة قد نجح والياً على خراسان من قبل عبدالله بن الزبير وكان يستعد للمسير إليها إلا ان الخطر اثنى عنيته والنجاح أهلها وأشرافها وواليتها جعله يعدل عن مسيره خاصة وأن أهل البصرة اقبلوا كتاباً على لسان عبدالله بن الزبير يأمره فيها بتولي حرب الخوارج ومن ثم يسير إلى خراسان.

المهلب بن ابي صفرة وحرب الخوارج

تبدأ مع تولي المهلب مرحلة جديدة من تاريخ حركة الخوارج، اذ ان هذه الحركة التي بدأت تتوسع نتيجة عوامل عديدة اهمها ضعف السلطة المركزية في الفترة التي تلت وفاة معاوية الثاني والحروب التي دارت في الشام والتي انتهت بانتصار مؤيدي مروان بن الحكم في معركة (مرج راهط) مما جعل الدولة تلهو عن تثبيت اطرافها لعدم استقرار المركز، كما ان ابن الزبير في مكة كان ضعيفاً متردداً، وبعد ان تولى مروان الحكم استمرت الخلافات في الشام، وكان الولاة يتعاقبون على البصرة ويعزلون لضعفهم مما قوى شوكة الخوارج كما ان البصرة تعرضت في سنة ٥٦ للهجرة الى وباء الطاعون الذي سمي «الطاعون الجارف» الذي اهلك خلقاً كثيراً من اهلها، وقد شجع الخوارج انتصاراتهم التي حققوها على جيوش البصرة واطمعهم بالوثوب عليها وسيطرة إخوانهم على اليمن واليمامة والبحرين وسيرهم الى مكة والمدينة.

كان المهلب بن ابي صفرة قد عُيِّن والياً على خراسان من قبل عبدالله بن الزبير وكان يستعد للمسير اليها إلا ان الخطر المحيق بمدينته والحاح اهلها واشرافها وواليها جعله يعدل عن مسيره خاصة وأن أهل البصرة افعلوا كتاباً على لسان عبدالله بن الزبير يأمره فيها بتولي حرب الخوارج ومن ثم يسير الى خراسان^(١).

ويذكر الطبري وابن الاثير ان تعيين المهلب كان قبل هزيمة اهل البصرة ومقتل حارثة^(٢) إلا أن وصول الخوارج الى البصرة وسيطرتهم على جسرهما يرجح تعيينه بعد هزيمة الجيش.

انتخب المهلب اثني عشر ألفاً و جهز جيشه تجهيزاً جيداً - بعد ان استدان من التجار - وكان المهلب رجلاً خبيراً بالحرب متمرساً بها، فقد كان في حربه مع الخوارج حذراً لا ييات إلا على تعبئة ويُخندق على جيشه ويث الجواسيس في مقعد الخوارج ويكابدهم ويث الفتنة في صفوفهم، ولم يكن يتبع الخوارج حين ينسحبون امامه لأنه خبر اساليهم في الكمائن، وكان يتولى الامور بنفسه اضافة الى اولاده الذين كانوا شجعاناً معروفين، وقد اختار المهلب رجلاً ممن كانوا على نية في حرب الخوارج لقيادة جيشه كعطية بن عمرو العنبري الذي كان من فرسان تميم وشعرائها والذي يقول في حربه للخوارج:

يُدعى رجال للعطاء وإنما يدعى عطية للطعان الاجرد

وعبيد الله بن زياد بن ضبيان وهو من فتاك العرب وقاتل مصعب بن الزبير^(٣) وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قرة الذي كان مستبصراً في قتال الخوارج والذي كان يقول لو جاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربت الحرورية، وقد أقرّ الخوارج انه لم يقاتلهم انسان اشد عليهم من المهلب ولا أغىظ لقلوبهم^(٤) باشر المهلب بعبور النهر ودفع الخوارج عن البصرة بعد معركة استمرت يوماً

(١) الطبري ٤ / ٤٨٧، ابن الاثير ٤ / ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) عبيد الله هذا حمل راس مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان فلما رأى عبد الملك الرأس سجد فاستل عبيد الله سيفه من غمده حتى استل اكثره ثم تردد وقد قال بعدها: كدت أضرب عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في آن واحد ولكن ذهب الفتك من الناس، وكان الحجاج يتحسر على أنه لم يظفر بعبيد الله لقوله السابق، ولأن عبيد الله خطب ذات يوم فقال الناس له: كثر الله أمثالك، فأجابهم عبيد الله: لقد سألت الله شططاً (مروج الذهب ٣ / ١٠٨) .

(٤) شرح النهج ٤ / ١٤٧، الطبري ٤ / ٤٨٨، الكامل في اللغة ٢ / ٢٢٧ .

واحداً كمرحلة تمهيدية ثم تقدم في كور الالهواز يجبي خراجها - ويبدو ان جهده في هذا المجال كبيراً لان معظم الخراج كان تحت تصرفه - ثم استعلم اخبار الخوارج فأخبره جواسيسه ان معظمهم من رعاع الناس ما بين قصار وصباغ وداعر وحداد وهذا يبين ان معظم الخوارج كانوا من فقراء الناس او من الموالي الذين كانوا يمتهنون تلك المهن كما يشير الى اول بوادر الصراع الطبقي بعد تسلط الارستقراطية الاموية على الحكم، ومضى المهلب الى سوق الالهواز وقد تمام جيشه عشرين الفاً وكان المهلب يخاطب اصحابه قائلاً: انكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وإنهم إن قدروا عليكم فتتوكم في دينكم وسفكوا دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولكم علي بن ابي طالب صلوات الله عليه، وكانت شجاعة من المهلب ان يذكر علياً(ع) بخير في الوقت الذي كان بنو امية يلعنونه على المنابر وبعد كل صلاة حتى زمن الخليفة عمر بن عبدالعزيز حيث الغى ذلك وكان رأي ابن الزبير في علي(ع) مثل رأيهم، تحرك الخوارج الى «مناذر الصغرى» فقتبهم المهلب فارتفعوا الى «سولاف» وهناك دارت معركة كبرى، انتهت بهزيمة معظم اصحاب المهلب وبقائه في المعركة مع الفين من اصحابه وفي هذه المعركة يقول أحد الخوارج:

وكائن تركنا يوم «سولاف» منهم أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها
وفيها يقول رجل من بني تميم ممن كان مع المهلب:

تبعنا الاعور الكذاب طوعاً يربجي كل أربعة حماراً

فيا ندمي على تركي عطائي معاينة وأطلبه ضمارة

إذا الرحمن يسر لي قفولاً فحرق في قرى سولاف ناراً

وأصحاب المهلب يسمونه الاعور الكذاب لان احدى عينيه كانت قد عارت بسهم اصابها، وكان المهلب فقيهاً ربما صنع حديثاً ليشد به أزر المسلمين ويضعف أمر الخوارج وهو يستحل ذلك مستنداً على قول الرسول(ص) كل كذب يكتب كذباً الا ثلاثة، الكذب في الصلح بين الرجلين وكذب الرجل

لإمرأته يعدها وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويهدد^(١).
بعد هزيمة جيش المهلب خرج فرسان الخوارج يطاردون فلول الجيش المهزوم
فاستغل المهلب الفرصة بعد ان ثاب اليه جماعة ممن انهزم وبلغ من معه ثلاثة
آلاف فباغت معسكر الخوارج وهم آمنون وصدّهم من جوانبهم فلم يلبثوا الا
ساعة حتى قتل عبيدالله بن الماحوز قائدهم واستولى المهلب على معسكر
الخوارج^(٢).

وفي رواية ابن ابي الحديد أن المهلب بعد ان تمام اصحاب اربعة آلاف أقام
ثلاثة ايام ثم تحرك نحو الخوارج والتقوا في (سلي وسلبري) حيث دارت معركة
قتل فيها ابن الماحوز، وغادر الخوارج بعد مقتل زعيمهم الى منطقة أرجان فبايعوا
الزبير بن علي الذي عاد بهم الى جيش المهلب ليباغته فوجده مستعداً، وحاولوا
مراراً ان يجدوا فرصة لمهاجمته ولكنهم عجزوا عن ذلك، فلما يؤسوا منه توجهوا
الى «اصفهان وأرجان» وجمعوا جموعاً وأعادوا تنظيم انفسهم ثم عادوا كرة
اخرى الى جيش المهلب وجرت بينهم مناوشات ولم يتمكنوا من مباغتته لأنه
أخذ بأفواه الطرق وبث الحرس والطلائع.

ولما تولي مصعب بن الزبير البصرة بدأ يتهيأ لحرب المختار بن ابي عبيدة الثقفي
الذي استولى على الكوفة وطرد عمال ابن الزبير منها، لذا استدعى المهلب
ليشاركه في حربه، وولى عمر بن عبيدالله بن معمر بلاد فارس وقد بادر هذا
بالتوجه نحو الخوارج في «أرجان» فقاتلهم قتلاً شديداً حتى قتل ابنه في المعركة
فحمل على الخوارج وهزمهم شر هزيمة، في تلك المعركة جرح قطري بن الفجاءة
الذي نصح الخوارج بالانسحاب قبل الهزيمة فلم يسمعوا له. ولم يلبث الخوارج
ان عادوا بعد هزيمتهم الى «أرجان واصفهان» والى «الاهواز»، اما عمر فارتحل الى
«اصطخر».

(١) الكامل في اللغة ٢ / ٢٣٠، ابن الأثير ٤ / ١٩٨ .

(٢) الطبري ٤ / ٤٨١، ابن الأثير ٤ / ١٩٨ .

استغل الخوارج فترة الهدوء لجمع شتاتهم وجبي الخراج من قرى البلدان التي يمرّون بها.

طلب مصعب بن الزبير من عمر ان يتولى بنفسه قتال الخوارج وعمد مصعب نفسه الى الخروج من البصرة لمقاتلتهم إلا انهم فضلوا عدم الاشتباك مع قوتين في آن واحد فارتفعوا الى «السوس» ثم الى المدائن^(١)، وهناك بدأو بشن غاراتهم على القرى يقتلون النساء والاطفال ويقرّون بطون الحبالى^(٢) وعلى الكوفة يومئذ الحارث بن ابي ربيعة الملقب (بالقباع) وكان جباناً رعديداً فضجت اليه الناس يطلبون منه التحرك لقتال الخوارج فخرج مكرها يسير متثاقلاً حتى قال فيه الناس سار بنا القباع سيراً نكراً يسير يوماً ويقيم شهراً^(٣)

وقد ارتكب الخوارج في وجههم هذا اعمالاً منكراً اذ أنهم مروا على قرية اسمها (جوبر) يملكها رجل اسمه (سماك بن يزيد) فخرّبوا القرية وأخذوا ابنة الرجل فقتلوها واسمها ام يزيد فقالت لهم قبل قتلها: يا أهل الاسلام إن أبي مصاب فلا تقتلوه وأما أنا فإنما انا جارية والله ما أتيت فاحشة قط ولا أذيت جارة لي ولا تطلعت ولا تشرفت، فلم يثنهم ذلك عن أن قطعوها بأسيا فمهم بعد أن قتلوا اباها.

عبر الخوارج النهر الى المدائن إلا ان قتالاً لم يحدث وتابعهم الحارث في ستة آلاف حتى خرجوا من ارض ولاية الكوفة ثم انصرف عائداً.

توجه الخوارج الى (اصفهان) وحاصروا مدينة (جي)^(٤) التي كان فيها عتاب بن ورقاء وأقاموا شهراً على حصارها حتى أيقن اهلها بالهلاك، فطلب منهم عتاب ان يقاتلوا الخوارج بالعراء، فبيتهم وفجأهم حتى انهزموا وقتل زعيمهم

(١) شرح النهج ٤ / ١٦٣، ابن الأثير ٤ / ٢٨٢ .

(٢) الطبري ٤ / ٥٨١ .

(٣) ابن الأثير ٤ / ٢٨٣ .

(٤) ذكر ابن الأثير منفرداً ان عتاب بن ورقاء كان في اصفهان وان الخوارج حاصروه فيها، ٤ / ٢٨٥ .

الزبير بن علي^(١). فولى الخوارج عليهم (قطري بن الفجاءة) الذي سار بهم نحو «كرمان» من بلاد فارس وبدأ يستعد ويجمع الجموع ويجبي المال فلما قوي انحدر نحو الاهواز فاضطر مصعب بن الزبير أن يعيد المهلب الى الاهواز ويوليه حرب الخوارج مرة أخرى، وكان مصعب قد شاور الناس فيمن يوليه امر حرب الخوارج فاستقر الرأي على المهلب فبلغ ذلك الخوارج فقال قطري: ان جاءكم عتاب بن ورقاء فهو فاتك يطلع في اول المقنب (جماعة الخيل) ولا يظفر بكثير وإن جاءكم عمر بن عبيدالله ففارس يُقدم إما عليه وإما له وان جاءكم المهلب فرجل لا يناجزكم حتى تناجزوه ويأخذ منكم ولا يعطيكم فهو البلاء الملازم والمكروه الدائم^(٢)، فلما احس الخوارج بتوجيه المهلب ساروا الى «الري» وعليها يزيد بن الحارث بن رويم فحاصروه فلما طال عليه الحصار خرج اليهم وقتلهم فظفروا به وقتلوه وهرب عنه ابنه ويدعى حوشباً وترك امه وتدعى لطيفة فقتلها الخوارج وكان يعترّ بذلك فيما بعد^(٣) وكانت لطيفة هذه جارية اشتراها الامام علي من السبي واهداها الى يزيد بن الحارث.



(١) ٢٨٧ ج ١ ص ١٧٢، ٢٧٢ ج ١ ص ١٧٢.

(٢) ١٨٥ ج ١ ص ١٨٥.

(٣) ٢٨٧ ج ١ ص ١٧٢.

(٤) شرح النهج ٤ / ١٦٥.

(٥) ابن الاثير ٤ / ٢٨٥.

قطري بن الفجاءة

بعد مقتل الزبير بن علي رغب الخوارج في تولية عبيدة بن هلال إلا أنه رفض وقال لهم هل أدلكم على من هو خير لكم مني؟ من يطاعن في قُبل ويحمي في دُبر عليكم «بقطري بن الفجاءة»، فبايعوه، وهذه المواقف من الخوارج التي تكررت في بداية دعوتهم تدلل على زهد الكثير منهم في الامارة لانهم كانوا يقاتلون على نية في الدين وإن كانت هذه النية خاطئة ومنحرفة كما تدلل على الاسلوب الذي يتم فيه انتخاب الامراء والذي يحمل الكثير من روح العصر الديمقراطية. خاطبوا قطرياً بعد مبايعته قائلين: يا أمير المؤمنين امض بنا الى فارس لكن قطرياً الذي يتطلع نحو البصرة قرر التوجه الى الاهواز - حتى اذا خرج منها مصعب - دخلها وكان مصعب قد بدأ يستعد لمواجهة الجيش الاموي الذي تحرك نحو العراق للقضاء على سلطة ابن الزبير.

ولكي يحمي مصعب ظهره فقد أمر المهلب أن يكفيه أمر الخوارج، فخرج اليهم المهلب وهم في «الاهواز» فلما علموا به توجهوا صوب «كرمان» فأقام المهلب بالاهواز، فكرر عليه الخوارج يريدون غرته فوجدوه مستعداً. هذا، وكان الخوارج في كل مراحل حركتهم أحسن عدة وسلاحاً وأكثر خيلاً ممن يقاتلهم وحاول الخوارج الاصطدام بجيش المهلب فلم يحصلوا منه على طائل، فغادروا

الى «رامهرمز»، وفي هذه الفترة التقى مصعب بن الزبير بجيش الامويين في معركة «مسكن» حيث قتل مصعب وانهار ملكه وقد وصل خبر المعركة الى الخوارج قبل أن يعلم به المهلب وجيشه، فتوافقوا يوماً فناداهم الخوارج: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: امام هدى فقال الخوارج: فما تقولون في عبد الملك بن مروان؟ قالوا: ضالّ مضلّ، ثم ورد كتاب عبد الملك الى المهلب يخبره فيه بمقتل مصعب وتوليته حرب الخوارج فسألهم الخوارج: ما تقولون في مصعب؟ فسكتوا قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: امام هدى .. فقال الخوارج: يا اعداء الله، بالأمس ضالّ مضلّ واليوم امام هدى، يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله^(١)، اليست هذه حال الناس في كل زمان ومكان!!

وتولى خالد بن عبدالله بن أسيد ولاية البصرة من قبل عبد الملك بن مروان فعزل المهلب عن الاهواز وخرج بنفسه الى الاهواز ومعه المهلب فالتقوا بالخوارج في منطقة (كريع) فمنعهم الخوارج من حط اثقالهم وحاربوهم لمدة شهر واقاموا في مناطقهم، فحفر الخوارج خندقاً حول معسكرهم وهذه هي المرة الاولى التي يفعلون فيها ذلك وفعل المهلب بجماعته مثل ذلك إلا أن أمير الجيش خالد رفض حفر الخندق لقلّة خبرته بحرب الخوارج، وكان معسكره الى جانب نهر «ثيري» واثقاله محملة في السفن وقد أمدهم بشر بن مروان أمير الكوفة بجيش كثيف عليه عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث، وبعد اربعين يوماً من المناوشة أحرق الخوارج سفناً عليها حطب وأرسلوها الى سفن خالد فاحرقتها وساروا على اثرها فوجدوا أن المهلب قد خندق عليه فمالوا على جيش خالد حتى خالطوهم فأخذوا يقتلونهم قتلاً ذريعاً فكانوا لا يمرون برجل الا قتلوه ولا بدابة إلا عقروها ولا بفسطاط إلا هتكوه^(٢) وكادوا ان يهزموهم إلا ان المهلب وأولاده

(١) ابن الأثير ٤ / ٣٣٤ .

(٢) كان الخوارج عندما تتوقف الحرب يلتقون بالمسلمين ويتساءلون بينهم عن امور الدين والشعر، وكان الناس قد اختلفوا في تفضيل الفرزدق وجريز حتى تواتبوا ثم اتوا الى المهلب محكمين له، فلم يجيبهم لخوفه من تفضيل احدهم على الآخر وأحالهم على الخوارج اللذين فضلوا جريز لقوله:

وعبدالرحمن بن محمد ورجل من الموالي يدعى «فيروز حصين» قاتلوا قتالاً شديداً حتى ردوا الخوارج، بعد هذا حفر خالد خندقاً حول معسكره، وكان الخوارج يسمون المهلب بالساحر المزوني لانهم كانوا يدبرون المكائد فيجدون المهلب قد سبق الى نقض تدبيرهم، والعرب تسمى الازد عشيرة المهلب بالمزون. بعد فشل الخوارج ويأسهم من دخول البصرة مضوا الى «كرمان» من أرض فارس ثم عادوا الى «دار بجر» فأرسل اليهم خالد جيشاً قوامه ثلاثين الف رجل وأمر على الجيش اخاه عبدالعزيز، وكان المهلب يتوقع هزيمة عبدالعزيز وجيشه لقلة خبرته ومعرفته بأساليب الخوارج لذا ارسل معه من يوافيه باخبار الجيش أولاً بأول لئلا يوافيه الخوارج وهو غافل وكان قد تخلف عن الجيش.

اما عبدالعزيز فقد استمر في تقدمه نحو الخوارج فلما وافاهم طلب منه الناس ان يعسكر فرفض، فنزل الناس وعصوه ولم يكادوا يفعلون حتى هاجمهم الخوارج وهم خمسمائة عليهم «سعد الطلائع» وهو من شجعانهم، ثم انقلب الخوارج منهزمين مكيدة منهم فتبعهم عبدالعزيز فلما تجاوز الجيش مضيقاً في طريقهم خرج عليهم كمين للخوارج وعطف عليهم سعد الطلائع فكانت الهزيمة وتبعهم الخوارج يقتلون منهم كيف شاءوا، وانهزم عبدالعزيز بعد ان قاتل قتالاً

== وطوى الطراد مع القياد بطونها طي التجار بحضرموت برودا

وكان عبيدة بن هلال احد قادة الخوارج اذا تكاثف الناس عن القتال ناداهم: ليخرج الي بعضكم فيخرج اليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيما أحب اليكم اقرأ عليكم القرآن أم انشدكم الشعر، فيقولون له: اما القرآن فقد عرفناه معرفتكم ولكن تنشدنا، فيقول: لهم يافسقة، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن، ثم لازل ينشدهم الشعر حتى يملوا ويتفرقوا. [الأغاني ٦ / ١٥٠ - ١٥١].

وروي أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من اشجعهم وأجملهم وجهاً وأحسنهم بالدين تمسكاً!! وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجبهم، فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز فتقول: احمل رأساً قد سثمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني قتله

والخوارج يقدونها بالآباء والامهات، فما رأينا قبلها ولا بعدها مثله. [الأغاني ٦ / ١٥٠، ابن الأثير ٤ / ٣٤٤].

شديداً تاركاً امرأته ام حفص سبية بيد الخوارج^(١)، وقد استطاع الخوارج أسر اعداد كبيرة من الجيش بينهم عدد من النساء فشدهم وثاقاً وقذفهم في غار ثم سدوا بابه وتركوهم حتى ماتوا جميعاً!! وبيعت نساء السبي في المزاد ولما وصل الدور الى ام حفص غولي في سعرها حتى وصل سبعين ألفاً فقام احد الخوارج ويدعى أبا الحديد فقتلها. وبلغ خبر الهزيمة المهلب وخالد امير البصرة وعاد الجيش مهزوماً مكسوراً الى البصرة وتبعهم الخوارج حتى الاهواز ثم تجاوزوها حتى وصلوا البصرة دون الفرات.

عزل عبدالملك بن مروان خالداً عن البصرة وعين أخاه بشر بن مروان عليها وطلب منه ان يجعل المهلب على حرب الخوارج وكان بشر لا يحب ذلك فتحايل على ذلك إلا انه رضخ في النهاية. وطلب عبدالملك من بشر ان يمد جيش المهلب بثمانية آلاف مقاتل من أهل الكوفة ففعل وولى عليهم عبدالرحمن بن مخنف الأزدي وطلب منه صراحة ان يخالف قائده المهلب ويضعف امره لغيظه منه ويبدو ان بشراً هذا لم يكن يهمه أن يهزم المهلب وأن ينكب الناس بقدر ما يهمه التنفيس عن كرهه للمهلب^(٢).

خرج المهلب من البصرة فأحس به الخوارج فانكشفوا عن الفرات فتبعهم حتى سوق الاهواز فانسحبوا عن الاهواز حتى رامهرمز فتبعهم حتى التقوا فيها وهزم الخوارج فدخلوا فارس، وبينما كان المهلب وجيشه مقيماً في رامهرمز اتاه نبأ موت بشر بن مروان فاضطرب جند الكوفة وانسحبوا وفعل ذلك قسم من جند البصرة وبقي المهلب في قلة حتى ولي الحجاج الكوفة^(٣).



(١) ابن الأثير ٤ / ٣٤٢ .

(٢) ابن الأثير ٤ / ٣٦٦ .

(٣) الطبري ٥ / ١٧ - ٧٤ وما بعدها، شرح النهج ٤ / ١٧٥، الكامل في اللغة ٢ / ٢٥٢ .

الحجاج والخوارج

تولّى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق بعد موت بشر بن مروان بشهرين وذلك عام ٧٥ للهجرة، فدخل الكوفة في اثني عشر ركباً وكان أهل الكوفة قد تركوا الجيش الذي كان يحارب الخوارج في الأهواز وعادوا بدون أمر إلى الكوفة، وكان أول ما فعله الحجاج أن دخل المسجد الجامع وهو ملثم بفضل عمامته وصعد المنبر فحسبه الناس خارجياً فهمّوا به، ثم كشف عن وجهه وقال:

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني
وخطب خطبته المليئة بالوعيد والتهديد قائلاً: إني لأرى رؤوساً قد اينعت
وحان قطافها وإني لانظر إلى الدماء بين العمام واللحي وتمثل قائلاً:

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدّي زيمٌ قد لفها الليل بسواقي حُطْمٍ^(١)
ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهرٍ وضم
قد لفها الليل بعصبيٍّ اورع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابيٍّ

(١) في ابن الأثير (هذا أوان الحرب فاشتدي زيم) ٤ / ٣٧٥.

إن أمير المؤمنين وجهني اليكم.. فإنكم طالما أوضعتم في الفتن وسنتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلف إلا وفيت، ثم يسترسل في خطبته فيقول.. وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم غصاة مخالفين وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثالثة إلا ضربت عنقه ثم اتاه رجل كبير السن فقال له إني شيخ كبير عليل وهذا إبني أشب مني فابعثه بدلي، فقال له ومن أنت؟ قال: عمير بن ضائب البرجمي قال: إني لأحسب في قتلك صلاح المسلمين، يا حרسي اضرب عنقه وكان عمير هذا ممن اشتركوا في قتل عثمان.

فتزاحم الناس على جسر الكوفة يريدون معسكرهم في النخيلة وإن الرجل منهم ليمضي ثم يُرسل له أهله ما يصلحهُ فيما بعد من زاد وعدة.

وهكذا يأتي رجل في اثني عشر ركباً ويخاطب اهل الكوفة وفيها من فيها من جمرة قبائل العرب ورؤسائها وأهل البيوتات فيها ويجابهم بكلام كله اهانة وتهديد ووعيد دون ان يشوبه ترغيب ولين ثم يأمرهم بالتوجه الى وجه لا يريدونه ثم يقتل بعضهم ويهدد الآخرين بالقتل ومع ذلك نراهم يخرجون مذعورين حتى يتزاحموا على جسر الكوفة الوحيد وكان هذا الجسر يغلق ليلاً فأمر الحجاج بفتحه ويقال انه امر بنصب جسر ثانٍ ليسهل عبور الناس.

كان من الواضح ان اهل الكوفة كانوا كارهين لقتال الخوارج ولم يكونوا يعتبرون فرارهم منهم وهزيمتهم في كل مرة فراراً من الزحف يترتب عليه تبعه شرعية، ومن الأكيد ان معظمهم كانوا يرفضون الحكم الاموي جملة وتفصيلاً ولا يعتبرون ان طاعة ولاتهم واجبة ومع ذلك ينقادون بيسر بدون ادنى اعتراض. وفي الامس كانوا يخالفون الامام علي(ع) وهو خليفتهم الشرعي المفترض الطاعة في كل صغيرة وكبيرة وقد طلب الامام من اهل الكوفة - ومعظمهم من شيعة - ان يخرجوا لمقاتلة عدوهم مراراً وتكراراً ولكنهم تناقلوا عنه وهو الذي كان فيهم كأحدهم ناهيك عن موقعه في الاسلام وزهده وعدله وتقواه وقتاله مع

الرسول(ص) في كل موطنه وما نزل فيه من الآيات وما قال فيه الرسول من الاحاديث اضافة الى قرابته القريبة من الرسول ومؤاخاته له وزواجه من ابنته الزهراء، ولكن الامام - كما صرح - يعرف دأهم ولكنه لم يكن يقر اصلاحهم بفساد نفسه.

أما الحجاج فقد ساقهم الى ما يكرهون بالسب والتهديد وهم يعرفونه والذي ولاه عليهم، وهذه الظاهرة تكررت مرات ومرات فقد دعا الحسين(ع) اهل الكوفة للخروج على الظلم ونصرة الحق بعد أن راسلوه واطمعهه بنصرهم ولكنهم انجحروا خائفين عندما بلغ الحق مقطعه ولكن عبيدالله بن زياد دعاهم لمقاتلة الحسين(ع) فخرجوا بعدد الحصى فقتلوا الحسين(ع) وكان بعضهم يبكي.

بعد ان تداعى الناس للخروج قال شاعرهم وهو عبدالله بن الزبير (وهو غير عبدالله بن الزبير بن العوام)^(١)

تجهّز وأسرغ والحق الجيش لا أرى
تخير فإما أن تزور ابن ضابئ
سوى الجيش إلا في المهالك مذهباً
عميراً وإما أن تزور المهلباً
هما خطتا خسف نجاؤك منهما
ركوبك حولياً من الثلج أشهباً
فحال ولو كانت خراسان دونه
رأها مكان السوق او هي أقربا
ولا يحتاج الانسان لكبير جهد لمعرفة حالة الناس النفسية وموقفهم السياسي فالايات السابقة تغني عن ذلك.

خرج الحجاج بعدها الى البصرة فخطب فيها وتوعد اهلها بمثل ما توعد به أهل الكوفة ثم قتل رجلاً منهم^(٢) فتداعى الناس للخروج الى المهلب، وخرج الحجاج نفسه حتى عسكر في «رستقباد» في اول شعبان سنة (٧٥) للهجرة على ثمانية عشر فرسخاً من جيش المهلب، ولكن اهل البصرة ثاروا عليه وعلى رأسهم

(١) ابن الأثير ٤ / ٣٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٤ / ٣٨١ .

عبدالله بن الجارود ولكن الحجاج استطاع التغلب عليه وقتله والقضاء على تمرد اهل البصرة^(١) وقد ساء ذلك الخوارج لما علموا به لأنهم كانوا يرجون فرقة الناس واختلافهم ليسهل عليهم قتالهم، وكان الحجاج قد ارسل رؤوس المتمردين لتعلق امام الخوارج ليحطم معنوياتهم^(٢).

وكان عبدالله بن أنس بن مالك الانصاري قد قتل مع ابن الجارود، فأرسل الحجاج الى أنس ووبخه توبيخاً شديداً قائلاً: «لا مرحباً ولا أهلاً يا ابن الخبيثة، شيخ ضلالة جوال في الفتن، مرّة مع ابي تراب ومرة مع ابن الزبير».. في خطاب شديد، فقال له أنس: من يعني الامير؟ قال: إياك أعني، ولما بلغ الأمر عبدالمالك وبخ الحجاج على فعله ومنعه من التعرّض لأنس^(٣)، ثم كتب الحجاج الى المهلب كتاباً قصيراً (اما بعد إذا أتاكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج والسلام) وكان على جيش

(١) المصدر السابق ٤ / ٣٨٥ .

(٢) كان الحجاج من أكثر الحكام الذين تعاقبوا على العراق اسرافاً في القتل وسفك الدماء وقد روى المبرد في الكامل وابن أبي الحديد عن أحدهم قال: انا لنتغدى معه يوماً اذ جاءه رجل من بني سليم برجل يقوده، فقال اصلح الله الأمير ان هذا عاص فقال له الرجل: أنشدك الله في دمي أيها الأمير فوالله ما قبضت ديواناً قط ولا شهدت عسكرياً قط وإني لحائك أخذت من تحت الحف (وهو المكوك) فقال الحجاج اضربوا عنقه فلما أحس بالسيف سجد فلحقه السيف وهو ساجد، فأمسكنا عن الأكل فأقبل علينا الحجاج وقال: مالي أراكم قد صفرت أيديكم واصفررت وجوهكم وحدّ نظركم من قتل رجل واحد!! الا إن العاصي يجمع خلافاً، يخل بمرکزہ ويعصي أميره ويغتر المسلمین وهو أجير لهم وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل والوالي مخير فيه ان شاء قتل وإن شاء عفا...

وذكر المسعودي في مروج الذهب ٣ / ١٢٤ - ١٢٥ ان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب امور لا يُقدم عليها غيره ولا سبق اليها سواء وقد احصى من قتله الحجاج صبراً عدا من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ستة عشر ألف امرأة مجرّمة وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستتر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد شتاء. المسعودي، مروج الذهب ٣ / ١٦٦. فما أشبه اليوم بالبارحة.

(٣) ابن الأثير ٤ / ٣٨٦، والغريب اتهام الحجاج لانس بموالاة ابي تراب ويعني به أمير المؤمنين علي(ع) فإن أنساً كان معروفاً بانحرافه عن الامام وقد دعا عليه على المنبر، ويدخل خطاب عبد الملك للحجاج في سياسة الشد والجذب التي يتبعها الحكام .

الكوفة عبدالرحمن بن مخنف، فزحف المهلب الى الخوارج وأجلاهم عن «رامهرمز» بغير قتال يذكر وتراجع الخوارج على تعبيتهم اما المهلب فقد عسكر في «كازرون»^(١) وخندق عليه ورفض أهل الكوفة أن يخندقوا عليهم وقالوا: خندقنا سيوفنا، فبيتهم الخوارج فوجدوا جيش المهلب قد أخذ حذره فمالوا على جيش عبدالرحمن، ويذكر الطبري في رواية أخرى أن الخوارج هاجموا جيش المهلب فاقتتلوا قتالاً شديداً فطلب المهلب من عبدالرحمن أن يمدّه بالفرسان والرجال ففعل فلما رأى الخوارج قلة من بقي مع عبدالرحمن حولوا هجومهم الرئيسي عليه بعد أن أبقوا جزءاً من قواتهم بمواجهة جيش المهلب، فلما رأى أهل الكوفة ذلك انهزموا وبقي عبدالرحمن في قلعة من أهل الصبر والبصائر فترجل وقاتل حتى قتل، وحاول ابنه الذي كان قد ارسله الى المهلب نجده إلا أن الخوارج حالوا بينه وبين أبيه^(٢).

بعد مقتل عبدالرحمن وُلِّيَ عَتَّاب بن ورقاء على جيش الكوفة إلا أنه اختلف مع المهلب فطلب من الحجاج أن يعفيه فوافق ذلك هوى من الحجاج^(٣) فصره اليه وكان شبيب الخارجي قد ظهر في اطراف الكوفة فأحب ان يكون الى جانبه في حربه مع شبيب وعين المهلب ابنه حبيب على جيش الكوفة، وأقام المهلب سنة على حرب الخوارج فلا يظفر منهم بطائل ولا يظفرون، ويبدو من كتب الحجاج المتعاقبة الى المهلب والتي يستحثه فيها على تصفية أمر الخوارج ورسله اليه أن المهلب كان يتباطأ متعمداً في استئصال الخوارج إذ أن القضاء عليهم سوف ينهي وضعه العسكري وكما يحدث في يومنا هذا في العديد من الحروب الاهلية فإن القادة الذين يجدون في الحرب المجد والمال والشهرة غالباً ما يتلكأون في القضاء على اعدائهم لأن ذلك ينهي امتيازاتهم ومكاسبهم، أقام المهلب «بسابور» وكانت «كرمان» بأيدي الخوارج وفارس بيد المهلب إلا جزءاً منها، وبعد مضي سنة على إقامته وبإلحاح

(١) مدينة من أخصب مدن سابور، ابن الأثير ٤ / ٣٨٨ .

(٢) الطبري ٥ / ٤٤ وما بعدها، شرح النهج ٤ / ١٨١، الكامل في اللغة ٢ / ٢٦٥، ابن

الأثير ٤ / ٣٨٨ .

(٣) ابن الأثير ٤ / ٣٩٠ .

الحجاج زحف الى الخوارج فواقعهم في يوم «بستان» حتى حاز على فارس كلها. وحدث الاختلاف بين الخوارج وكان سبب ذلك أن أحدهم ويدعى المقطر قتل رجلاً فطلب أصحابه أن يقيدوه به فقال قطري: إنه تأول فأخطأ ما أرى أن تقتلوه، فوقع الخلاف وقيل أن رجلاً من الخوارج يعمل النصول المسمومة فيرميها فائتر ذلك على عسكر المهلب فكاده المهلب وأرسل الى عامل النصول كتاباً وتعمد أن يقع الكتاب بيد قطري وجاء فيه: أما بعد فإن نصالك قد وصلت وقد أنفدت اليك ألف درهم، فأحضر الصانع فقرر فجدد التهمة فقتله قطري فأنكر عليه ذلك احد قادتهم وهو عبد رب الكبير فوقع الاختلاف، وارسل المهلب نصرانياً الى قطري فسجد له فقال الخوارج إن هذا قد اتخذك الهاً وقتلوا النصراني فزاد اختلافهم^(١).

فبايع معظمهم عبد رب الكبير وبقي خمسهم مع قطري ودخل عبد رب ومعه الخوارج وفيهم ثمانية آلاف من القراء مدينة جيرفت وتقاتلوا بينهم في المدينة فأسفرت الحرب في يومها الاول عن ألفي قتيل ثم عاودوا القتال فلما كان الغد وانتصف النهار أخرجت العجم العرب من المدينة وأقام عبد رب فيها وصار قطري خارجها، وعمل المهلب مكيدة خدع بها قطرياً فأجلاه عن مجاورة المدينة فتفرغ المهلب لقتال عبد رب وحاصره مدة حتى قرر الخوارج أن يخرجوا من المدينة فقاتلهم المهلب واجليت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح ومأسور من الخوارج وانتهت بذلك حركة عبد رب الكبير^(٢) وسبى المهلب نساءهم لأنهم كانوا يسبون نساء المسلمين، أما قطري ومن معه فقد وجه اليهم الحجاج جيشاً من اهل الشام عليهم سفيان بن الابرود الكلبي وآخر من اهل الكوفة عليه إسحاق بن محمد بن الاشعث وإمرة الجيش لسفیان الذي توجه نحو «الري» فخرج منها قطري حتى لحقوه «بطرستان» في منطقة جبلية وعرة المسالك فقاتلوه فيها حتى تفرق أصحابه عنه وسقط قطري عن دابته وتدهدى في وادي فأوهنته السقطة

(١) المصدر السابق ٤ / ٤٣٨ .

(٢) الطبري ٥ / ١٢٢، ابن الأثير ٤ / ٤٤٠ - ٤٤٣ .

ولم يستطع حراكاً ورآه أحد أهالي القرى ولم يكن يعرفه فقال له قطري اسقني ماءً فطلب منه شيئاً مقابل الماء فقال له ليس معي شيء سوى سلاحني فانا اعطيه لك إذا جلبت الماء، فرفض القروي وصعد الى اعلى الوادى وارسل حجراً على قطري فأصاب احدى وركبيه فزاده وهناً على وهن، ثم احس به نفر من اهل الكوفة فقتلوه واحتزوا رأسه وقتل جمع كبير من الخوارج وبعث برؤوسهم الى الحجاج في الكوفة.

وكان أحد قادة الخوارج وهو عبيدة بن هلال قد انحاز بقسم من الخوارج حتى تحصن في قصر «قومس» فتوجه اليه سفيان بعد أن فرغ من قطري وحاصره حتى اجهده وأكل الخوارج دوابهم ثم اضطروا الى الخروج مصلتين سيوفهم فقاتلهم سفيان حتى قتلهم جميعاً^(١).

وبهذا انتهت حركة الأزارقة عسكرياً - وقد كانت اشد فرق الخوارج تعصباً وتطرفاً - بمقتل قطري وعبد رب وعبيدة وكان أول رؤسائهم نافع ابن الأزرق وآخرهم قطري واستمرت حركتهم متصلة زهاء عشرين عاماً ويورد ابن الأثير انه يشك في أن صبيح المازني الذي خرج في ايام هشام بن عبد الملك من الأزارقة وقيل عنه - أي صبيح - انه من الصفرية^(٢).

(١) كان قطري بن الفجاءة المازني فارساً مذكوراً وشاعراً مجيداً وقد سُلّم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة، وكانت زوجته تقايل معه وتدعى أم حكيم وهي من اشجع الناس، ومن جيد شعره ما اختاره ابو تمام حبيب بن أوس الطائي في مختاراته قوله:

أقول لها وقد طارت شعاعاً
فإنك لو سألت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبراً
ولا ثوب البقاء بثوب عز
سبيل الموت غاية كل حي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم
وما للمرء خير في حياة
المختار من حماسة أبي تمام ص ٨٧.

من الأبطال ويحك لن تراعي
على الأجل الذي لك لن تطاعي
فما نيل الخلود بمستطاع
فيطوى عن أخي الخنع الكراع
فداعيه لأهل الأرض داعي
وُسُلمه المنون الى انقطاع
إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

(٢) ابن الأثير ٤ / ٤٤٣ .

وبالقضاء على قطري أخدمت أقوى حركات الخوارج خاصة وإن القضاء عليها جاء متزامناً مع القضاء على حركة قوية أخرى هي حركة شبيب الخارجي. لقد انطلقت حركة نافع بن الأزرق ومن تبعه من القادة الأزارقة من الأهواز والبصرة جنوب العراق أما حركة شبيب فقد انطلقت من وسط وشمال العراق وقد استطاعت هاتين الحركتين - في مراحل عديدة - أن تهدد البصرة والكوفة بل إن الخوارج استطاعوا دخولها لفترات محدودة. ولو قُيِّض لهما أن تستمكنا من المدينتين لكان في وسعهم أن يسيطروا على العراق وبلاد فارس وهما يشكلان الجزء الأكبر من الدولة الإسلامية والأكثر غنى، ولكن الخوارج فشلوا في تحقيق انتصارات مهمة وذلك لأسباب ذاتية وخارجية يمكن أن نوجزها بما يلي:

١ - لقد اتبع الخوارج الأزارقة على وجه الخصوص سياسة استعراض الناس من غير الداخلين في ملتهم وقتلهم وتكفيرهم بل أنهم استحلوا الحرمات وقتل النساء والأطفال والأسرى وسبي النساء المسلمات ويعلنون أو اتخذهن خدماً وجواري وقد تنكروا للقيم الإسلامية بتأويلات هشة كما تنكروا في تعصبهم وتطرفهم للقيم القبلية السائدة واتخذوا القسوة شعاراً لهم ولم تكن صلة الرحم تخفف من غلوئهم واسرافهم في القتل، كل ذلك أوغر قلوب الناس عليهم وقلَّص إلى حدٍّ بعيد عدد اتباعهم ومنع مذهبهم من الانتشار والسريان رغم ما كان يبدو عليهم من الجانب الآخر من زهد وتقوى وتمسك بالدين من وجهة نظرهم، وقد أدى ذلك في النهاية أن يقاتلهم الناس ليس دفاعاً عن الدولة الأموية وولاتها لأن معظم أهالي العراق ضدها بل دفاعاً عن أنفسهم. لقد جرب أهل البصرة والكوفة الخوارج مرات عديدة وتيقنوا أنهم مهتدين في أموالهم ونسائهم، والأنكى من ذلك أن الخوارج كانوا يبدأون بمدنهم وقومهم وقبائلهم تأويلاً للآية الكريمة ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، لذا نرى أن قتال الخوارج بدأ يتخذ شكلاً جدياً وخاصة من سكان البصرة الذين كانوا مهتدين في هذه الفترة أكثر من غيرهم وسنرى في مستقبل الأحداث أنهم كانوا محقين في ذلك فحين تمكن الخوارج من دخولها أبادوا أهلها وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وكان الخوارج قد انتصروا

في معاركهم الأولى لأن سكان هذه المدن لم يكونوا راغبين في القتال.

٢ - رغم ان حركتين قويتين للخوارج انطلقتا في اوقات متقاربة، وكانتا متشابهتين في العقائد والهدف الا أن التنسيق بينهما كان معدوماً عسكرياً وسياسياً وفي نفس الوقت الذي كان نافع بن الأزرق ومن تبعه من القادة يخاطبون بإمرة المؤمنين كان شبيب الخارجي الذي خرج في أطراف الكوفة يخاطب بامرة المؤمنين، وكان هذا دليلاً على انهم يقرون وجود أكثر من خليفة في بلاد الاسلام في ان واحد، والخوارج لم يتطرقوا الى هذه الناحية في نصوصهم المتيسرة الخاصة بالامامة، وبالإضافة الى عدم تنسيق حركاتهم فلم يكونوا يتمتعون بأية مرونة سياسية وان كانوا على المستوى العسكري يخوضون معاركهم بكفاءة عالية وخطط جيدة وقد كانوا على ما يبدو من حركاتهم انهم مستوعبين لمبادئ الحرب الرئيسية.

٣ - من السمات التي لازمت حركات الخوارج كثرة خلافاتهم ومن ثم انشقاقهم ولأسباب بسيطة، وهذا راجع الى تأولهم للقران، ولم تكن اطاعتهم لإمرائهم كافية لمنع تلك الخلافات، ولم يكن للاجتهاد مجال في عقيدتهم ولا لحرية الرأي واختلافه في المسائل التي لم يأت بها نص، وقد أدت هذه الانقسامات الى انهيار حركاتهم كما حدث في اختلاف قطري بن الفجاءة وعبد رب الكبير. أو نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق او هذا الأخير مع عبد الله بن أباض.

٤ - رغم الجو العام السائد في العراق والمعادي للدولة الأموية وظهور حركات مسلحة معادية لها الا أن الخوارج لم يستطيعوا التفاهم معها او حتى التنسيق لتحقيق هدفهم وهو اسقاط الدولة وخير دليل على ذلك ان مطرف بن المغيرة بن شعبة الذي كان والياً على المدائن والذي لم يتحمل ظلم ولادة بني أمية قثار عليهم وحاول ان يتفاهم مع شبيب وان يتفق معه على قتال الأمويين ثم يترك الأمر للمسلمين الا انه فشل في ذلك واضطر الى محاربة الحجاج لوحده ولجأ الى بلاد فارس حيث قتل وفشلت حركته^(١)، وكذلك عبد الله بن الزبير الذي

(١) ابن الاثير ٤ / ٤٣٣ وما بعدها.

ازره الخوارج في البداية ثم فتشوا عقيدته لما رأوا خلافه لهم انفظوا من حوله^(١).
 ٥ - مرّت الدولة الأموية بفترة من الاضطراب والحروب الداخلية والنزاع على الحكم منذ وفاة معاوية الثاني وحتى استلام مروان بن الحكم للسلطة، اثناء ذلك كان ابن الزبير قد سيطر على مكة ثم امتد نفوذه الى المدينة والبصرة والكوفة، وسيطر الخوارج على اليمن واليمامة واجزاء من شبه الجزيرة، وكانت حركات الخوارج الرئيسية وهما حركة نافع بن الأزرق وشيب الخارجي قد بدأت اثناء هذه الاضطرابات واستمرت حتى بعد استقرار الوضع في زمن عبد الملك بن مروان الا أن هاتين الحركتين لم تستطعا استغلال الفراغ الناشئ عن ضعف السلطة المركزية المتمثلة في ابن الزبير وانشغال السلطة الموجودة في الشام بالمشاكل الداخلية ويعود ذلك الى ضعف التنظيم الداخلي في المدن وعدم وجود الاستراتيجية الواضحة في الهدف.



(١) لما اعتصم ابن الزبير في مكة مخالفاً للدولة الأموية بعد أن تولى يزيد بن معاوية الخلافة ورائته عن أبيه تذاكر الخوارج فيما بينهم وقرّ رأيهم على الذهاب الى مكة فإذا كان ابن الزبير على رأيهم قاتلوا معه أهل الشام الذين أرسلهم يزيد الى مكة، وقد وقفوا فعلاً مع ابن الزبير الا أنهم وبعد وفاة يزيد وانصراف جيش الشام عن مكة اجتمعوا وقرروا أن يفتشوا عن رأي ابن الزبير الحقيقي، فلما جادلوه تبين لهم أنه كان يخالفهم في كل معتقداتهم فكفّروه وكفّروهم وانفصل رؤوس الخوارج عنه الى البصرة وبينهم نافع بن الأزرق وعبد الله وعبيد الله ابنا الماحوز وعبد الله بن صفار السعدي وعبد الله بن أباض.

شبيب الخارجي

وهو من شجعان الخوارج، وقد خرج في جماعة صغيرة ولكنه استطاع أن يصمد امام الجيوش الكبيرة التي تفوق قواته عشرات المرات وان يهزمها في كل مرة متبعاً أسلوب حرب العصابات مطبقاً خطأً مبتكرة في مهاجمة القوات التي تتوجه لقتاله، فهو يغير ليلاً او بشكل مباغت ويهاجم الأجنحة ومؤخرة الجيش ويستهدف قادة الجيوش فيقتلهم ويوقع الرعب والهزيمة بالجيش، وقد ساعده في حركاته سرعة حركته وتنقله من منطقة الى اخرى، واستخدم الحرب النفسية سلاحاً لتفتيت معنويات اعدائه وذلك بيث أخبار انتصاراته وتضخيمها حتى استطاع ان يدخل الكوفة رغم وجود الحجاج فيها وان ير نذر زوجته «غزالة» التي نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة وأن تقرأ سورتي البقرة وآل عمران، واجبر الحجاج على الاختباء في قصر الامارة رغم ان عشرات الألوف من المقاتلين كانوا تحت امرته وامعائاً من شبيب في اذلال الحجاج فقد ضرب باب قصر الامارة بعمود حديد حتى اثر فيه، هذا والحجاج في داخله.

كان مبدأ أمره أن صالح بن مسرح التميمي وهو رجل من الخوارج مصفر الوجه ناسك يقيم بارض (دارا) والموصل والجزيرة، وكان صالح من دعاة الخوارج كما يبدو من تنقله في هذه الأماكن وكان يقرى اصحابه القرآن ويقص عليهم

القصص ويفقههم في الدين ويدعو الناس للخروج على ائمة الضلال ثم قرّر رأيه على الخروج بالسيف، وكان معه من أهل الكوفة نفر من أبطالهم منهم «سويد» و«البطين»، فراسل شبيباً الذي استجاب له وجمع اصحابه ثم اجتمعوا «بدارا» من ارض الموصل وقر رأيهم على الخروج في شهر صفر سنة (٧٦) للهجرة^(١) وكان من رأي شبيب واصحابه استعراض الناس الا أن صالحاً لم يكن على رأيهم اذ اوصاهم ان لاتعجلوا الى قتال أحد من الناس الا أن يكونوا قوماً يريدونكم ثم أمرهم بانتهاب دواب كانت «لمحمد بن مروان» ليتقوّا بها.

خرج صالح باصحابه وهم مائة وعشرين رجلاً فتحصن منه أهل دارا ونصييين ولما بلغ امرهم محمد بن مروان والي الجزيرة استخف بقلتهم وارسل اليهم ألفاً من المقاتلة فساروا اليهم كأنهم يساقون الى الموت فحاول قائدهم عدي بن عدي بن عميرة ان يتجنب قتالهم - وكان ناسكاً - فأرسل اليهم رسولاً يفادهم ولكنهم احتبسوا الرسول واغاروا على الجيش في اثناء صلاتهم وقت الظهر فهزم الجيش وأقبل فلهم الى محمد بن مروان، ارسل اليهم محمد جيشاً اخر قوامه ثلاثة الاف مقاتل، ولكن الخوارج تركوا المنطقة وذهبوا الى آمد، فسار الجيش وراءهم حتى التقوا وجرت معركة شديدة انتصف فيها الجانبان - وكان الخوارج في مائة وعشرين - فانسحب الخوارج في ليلتهم تلك حتى دخلوا ارض الموصل - وكانت نيتهم انهاك الجيش - ثم نزلوا «الدسكرة» وهي تابعة لسلطة ولاية الكوفة فلما سمع بهم الحجاج ارسل اليهم ثلاثة الاف مقاتل فعلم بهم الخوارج فساروا نحو جلولاء وخانقين ثم التقوا في قرية يقال لها «المديج» - والخوارج في تسعين رجلاً - فقتل صالح بن مسرح قائد الخوارج وصرع شبيب الذي تولى القيادة وبقي الخوارج في سبعين رجلاً فدخلوا حصناً قريباً فأحرق الجيش باب الحصن وانتظروا حتى الصباح ليتمموا عليهم^(٢).

ثم طلب شبيب من اصحابه ان يبايعوا احدهم فبايعوه فأمرهم بالخروج ليلاً

(١) ابن الأثير ٤ / ٣٩٤ .

(٢) ابن الأثير ٤ / ٣٩٦ .

ومباغطة الجيش، فلم يشعر جيش الكوفة الا والخوارج معهم في معسكرهم وهم يضاربونهم فانهزموا وكان هذا اول جيش يهزمه شبيب.

بدأ شبيب باستعراض الناس وسار حتى وصل الى تخوم (آذريجان) فأرسل اليهم الحجاج عدة جيوش فالتقوا في خانقين مع طلائع الجيش، فذهب شبيب في الصحراء يريهم انه يكره لقاءهم وأكمن كميناً فشرعوا بمهاجمته فلما جاوزوا الكمين خرج اليهم وانعطف عليهم شبيب فلم يكن هناك قتال وانهزم الجميع وثبت قائداهم «ابن ابي العالية» ومعه مائتان فقاتل حتى تفرق اصحابه فأرسل اليهم الحجاج جيشاً اخر فكان شبيب يتجول في ارض (جوشي) والجيش في اثره ولنا ان نتصور جيشاً جراراً وهو يلهث مطارداً عصابة صغيرة من منطقة الى اخرى مع اثقالة خاصة وأن معظم جنوده من الرجالة والتأثير البالغ الذي ينعكس على الجيش في معنوياته وحالة الاعياء والتعب التي يخلفها التنقل عبر مئات الأميال سيراً على الاقدام.

توجه شبيب الى المدائن واصاب بها دواباً وأكثر القتل فيمن لاقاه ثم توجه الى (النهروان) وعسكر على الجانب الشرقي حتى ورد عليه جيش الكوفة وعليه (سورة بن ابجر) الذي انتخب ثلاثمائة من فرسانهم راجياً مباغطة الخوارج متبعاً اسلوبهم ولكنه وجدهم مستعدين فتقاتلوا وحمل عليهم شبيب فانهزموا نحو المدائن وتبعهم شبيب الى اسوار المدائن إلا أن اهل المدائن رموهم بالنبال والحجارة من على سورها، غادرهم شبيب قاصداً (تكريت) وفي اثناء ذلك سرت اشاعات في المدائن ان شبيب ينوي مهاجمتهم وانه توجه اليهم فهرب معظم الجيش ودخلوا الكوفة^(١).

وارسل اليهم الحجاج جيشاً آخر قوامه أربعة آلاف مقاتل عليهم عثمان بن سعيد الذي خرج في اثر شبيب فجعل شبيب يريه الهبة وينتقل من منطقة الى اخرى وكان جيش عثمان ينتقل خلفهم وهم على تعبية فلم يستطع الخوارج ان

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٠١ .

يأبغثوهم أو ان ينالوا منهم شيئاً. ثم قرر شبيب ان يبيتهم فقسم جماعته الذين لايزيدون عن مائة مقاتل الى اربعة اقسام وامرهم بالهجوم من الجهات الأربعة، فهاجموهم فلم يظفروا منهم بطائل فانسحب الخوارج ثم عاودوا الهجوم عند الفجر فلم يظفروا، فانقتل شبيب بجماعته وتبعه الجيش، واستمر هذا الحال حتى عزل الحجاج عثمان وعين بدله (سعيد بن مجالد) الذي بادر بالزحف نحو الخوارج وكان شبيب قد نزل في (قطيطة) قرب (براز الروز) جنوب شرقي بغداد وقد أمر دهقاناً ان يصلح لهم شواء فلما رأى الدهقان ان الجيش أقبل عليهم أعلم شبيب بذلك فلم يكثرث شبيب وقال للدهقان: هل نضج شواؤك ثم تغدئ وصلئ وخرج بجماعته وهو يحكم ففر الجيش وبقي قائدهم ومعه جماعة فاقبل عليه شبيب وضربه بالعمود على رأسه فقتله ففر باقي الجيش حتى دخل الكوفة فتوجه شبيب نحوها فلم يستطع دخولها فعدل الى أسفل الفرات يغزو ويقتل وكان حده على قومه بني شيان ثم تنقل في العراق الأوسط حتى دخل (آذريجان) فاطمأن الحجاج وذهب الى البصرة كعادته اذ كان يقضي ستة اشهر في الكوفة وستة في البصرة، وكانت خدعة من شبيب اذ انه عاد بسرعة الى الكوفة فبلغت اخباره الحجاج الذي عاد مسرعاً فتسابقا في الدخول اليها حتى وصلوها في اليوم نفسه فدخل شبيب الكوفة ليلاً حتى ضرب باب قصر الامارة بعموده ثم اقتحم المسجد فقتل المصلين ثم مضوا حتى لقوا (ذهل بن الحارث) وكان يصلي في مسجد قومه فيطيل الصلاة فصادفوه منصرفاً فشدوا عليه ليقتلوه فقال: «اللهم اني اشكو اليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم، اللهم اني عنهم ضعيف فانتصر لي» فقتلوه^(١).

ثم خرج شبيب من الكوفة فارسل الحجاج خلفه جيشاً كبيراً فهزمهم شبيب وقتل قادتهم ودعا من بقي من الجيش على قيد الحياة الى بيعته فبايعوه ثم هربوا منه الى الكوفة، ثم ارسل اليه الحجاج جيشاً من ستة الاف مقاتل عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فتبع الخوارج وكان حذراً لا يبيت الا على تعبئة

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٠٧ .

وقد حاول شبيب أن يهاجمه عدّة مرات ولكنه كان يجده مستعداً فقرر شبيب اتعابه كعادته فسار وتبعه الجيش وكان ينزل منزلاً غليظاً خشناً، ثم يقيم حتى يدنو منه الجيش فينتقل حتى شق ذلك على الجيش واحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء فعزل الحجاج عبد الرحمن وعين بدله (عثمان بن قطن) والي المدائن الذي قرر مواجهة الخوارج فالتقوا قرب نهر (حولايا) - وكان الخوارج في مائة وواحد وثمانين رجلاً - فانهمز جيش الكوفة وقتل قائدهم.

بعد هذه الواقعة انظم الى شبيب العديد ممن كان يطلب المغنم او من كان مطلوباً من السلطان حتى بلغ تعداد جيشه ثمانمائة.

بعد ان يئس الحجاج من قدرته على القضاء على شبيب وتأكد من تلوّك أهل الكوفة في القتال ارسل كتاباً الى عبد الملك بن مروان يخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال شبيب وهزيمتهم في كل مرة ويطلب منه ارسال جيش من الشام لقتالهم فأرسل اليه عبد الملك ستة الاف مقاتل عليهم سفيان بن الابرّد الكلبي. ومن جانبه فقد جمع الحجاج جيشاً كثيفاً من أهل الكوفة تعداده خمسين ألف مقاتل وجعل عليهم عتاب بن ورقاء، فلما علم بهم شبيب سار اليهم وقد بلغ جيشه الف مقاتل، فصف عتاب جيشه ثلاثة صفوف، الصف الأول: رجاله ومعهم السيوف، والذي يليه: حملة الرماح، والصف الثالث: المرامية وهم أصحاب النبل، ثم خطبهم والتفت الى الناس وقال ابن القصاص (وهم القراء والمحدثين الذين يحدثون الناس لتقوية عزائمهم) فلم يجبه أحد فقال أين من يروي شعر عنترة؟ فلم يجبه أحد فأيقن بانهيّار المعنويات وخذلان الناس فقال لنفسه (لتركون عتاب تسفي في استة الريح) وكان عتاب مقاتلاً شجاعاً، فأقبل عليهم شبيب في ستمائة وقد تخلف عنه أربعمائة فهاجم الجيش فانهمزوا عن عتاب الذي كان جالساً في القلب حتى وصل اليه الخوارج فقتلوه معه (زهرة بن حوية) وهو من قواد فتح العراق وله صحبه وهو شيخ كبير لا طاقة له بالقتال ولكنه صحب الجيش ليقوي عزيمته وقتل ايضاً (قبيصة بن القوق) وهو من فرسان فتح العراق فلما بلغت انباء الهزيمة الحجاج فت في عضده الا أن اخبار وصول

جيش الشام شدت من أزره.

بعد هذه المعركة لم يبق امام شبيب الا أن يدخل الكوفة فتوجه نحوها وكان امامها مسلحة قوامها الف رجل فهزمها شبيب فلم يبق امام الحجاج الا أن يخرج بنفسه فعسكر خارج الكوفة ومعه جيش الشام الذي وصل الكوفة، واستهدف شبيب جيش الشام فهاجمهم عدة مرات ولكنهم ثبتوا له ودارت معارك طاحنة بينهم حاول في اثنائها شبيب ان يدخل الكوفة حتى يهاجم الحجاج من الخلف فلم يستطع، وكان خالد بن عتاب بن ورقاء قد طلب من الحجاج ان يسمح له بمهاجمة معسكر شبيب ويأتيهم من ورائهم فاذن له الحجاج لأنه موتور بأبيه عتاب الذي قتله شبيب، فخرج خالد في عصابة حتى دخل معسكر الخوارج الخلفي فقتل (مصاداً) اخا شبيب وكان شجاعاً مشهوراً الا أن سبب تخلفه في المعسكر غير معروف، ثم قتل غزاة امرأة شبيب واشعل النار في المعسكر وكبر الناس فلما سمع الخوارج التكبير ورأوا النار التفتوا وبان عليهم الرعب فانهمزوا فبقي شبيب في اخريات الناس يحمي ساقتهم، ولم يتبعهم الحجاج وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها جيش لشبيب وقد كان يقاتل سابقاً بالرعب الذي كان يصيب الجيوش قبل لقائه ولكنه اخطأ في مهاجمة جيش الشام في حرب تقليدية إذ ان جيش الشام كان بمعنويات عالية ولم يكن قد جرب هجمات الخوارج وكان على شبيب ان ينسحب ثم يتحين الفرصة ليقع الخسائر بهذا الجيش ويتعبه ومن ثم يحطم معنوياته فتسهل عنده هزيمته.

سار شبيب الى كرمان فاستراح فيها ثم أقبل راجعاً وكان الحجاج قد بعث خلفه سفيان ابن الأبرد فالتقوا بجسر دجيل الأهواز واقتتلوا قتالاً شديداً من منتصف النهار حتى الظلام فانسحب الخوارج وعبروا الجسر وكان شبيب في آخرهم فلما عبر راكباً على فرسه شب فرسه وزال حافرهما عن الجسر فسقط شبيب في الماء فقال «ليقضي الله امراً كان مفعولاً» فارتسم في الماء ثانية ثم ارتفع فقال «ذلك تقدير العزيز العليم» ثم غطس وكانت نهايته وقيل في قتله غير ذلك

إذ ان جماعة ممن كانوا معه وقد قتل الكثير من عشائرتهم فأوترهم واوجع قلوبهم فلما كانت الهزيمة وتخلف شبيب في اخر الناس تأمروا في قطع الجسر فمالت السفينة فنفرت به الفرس فوقع في الماء وغرق^(١).

وبموت شبيب طويت صفحة أخرى من حركات الخوارج والتي دوّخت الدولة الأموية وأعجزتها فترة طويلة.

الخوارج حتى سقوط الدولة الأموية

كانت الظروف الموجهة التي وجهت إلى الخوارج والتي استهدفت استقلالهم قد بُنيت في الحد من نشاطهم العسكري، فلم يشهد فيما بقي من أيام الدولة الأموية حركة واسعة للخوارج على غرار ثورة الأزارقة أو شبيب وبينما أن هذه الظروف القاسية لم تستطع أيضاً أن تقضي على تفكر الخوارج والواقع ان التاريخ يثبت ان الأفكار لا يمكن القضاء عليها بقوة السلاح، لقد تحول الخوارج من رفض التمسك في البداية إلى الثورة المستمرة على الحاكم الظالم وقد كان بإمكانهم كسب الشرائع الإسلامية والالتزام بها لو أنهم ميزوا بين السلطة والشعب ولم يكفروا الجميع وبتحطأ دعائهم وقد استمر الخوارج في اختطائهم الأساسية التي تمثل في تعنتهم وقطريهم دينياً وسياسياً فبالخوارج الذين يسعون إلى إسقاط الدولة الأموية لاعتبارها دولة ظالمة لم يستطيعوا أن يوقفوا الأحداث الضخمة التي جرت ضد الدولة الأموية والثورات الشعبية والانقسامات داخل العائلة الحاكمة لصالحها الهدف الذي كانوا يسعون إليه فقد شهد العراق ثورات كبرى كانت ان تطيح بالدولة كنزوة ابن الأشعث سنة (٨٢ - ٨٣).

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٢٣ - ٤٤٢ وكانت الجسور في ذلك الوقت عبارة عن سفن صغيرة يربط بعضها ببعض وتربط إلى جانبي النهر ولم تكن هذ الجسور ثابتة لتعرضها لدفع تيار النهر.

الخوارج حتى سقوط الدولة الأموية

كانت الضربات الموجعة التي وجهت الى الخوارج والتي استهدفت استئصالهم قد نجحت في الحد من نشاطهم العسكري، فلم نشهد فيما تبقى من أيام الدولة الأموية حركة واسعة للخوارج على غرار ثورة الازارقة او شبيب ويبدو أن هذه الضربات القاصمة لم تستطع ايضاً ان تقضي على افكار الخوارج والواقع ان التاريخ يثبت ان الأفكار لا يمكن القضاء عليها بقوة السلاح، لقد تحول الخوارج من رفض التحكيم في البداية الى الثورة المستمرة على الحاكم الظالم وقد كان بإمكانهم كسب الشارع الاسلامي والعراقي بوجه خاص لو أنهم ميزوا بين السلطة والشعب ولم يكفروا الجميع ويستحلوا دمائهم وقد استمر الخوارج في اخطائهم الاساسية التي تتمثل في تعنتهم وتطرفهم دينياً وسياسياً فالخوارج الذين يسعون الى اسقاط الدولة الاموية لاعتبارها دولة ظالمة لم يستطيعوا ان يوظفوا الاحداث الضخمة التي جرت ضد الدولة الأموية والثورات المتعاقبة والانقسامات داخل العائلة الحاكمة لمصلحة الهدف الذي كانوا يسعون اليه فلقد شهد العراق ثورات كبرى كادت ان تطيح بالدولة كثورة ابن الأشعث سنة (٨٢ - ٨٣) للهجرة والتمرد الذي قاده يزيد بن المهلب سنة (١٠٢) للهجرة وثورة زيد بن علي سنة (١٢٢) للهجرة ولكن افكار الخوارج ظلت تسري في أرجاء الدولة

الاسلامية وتنتقل تدريجياً الى اماكنها النائية يغذيها باستمرار الجور والظلم الذي كان يمارسه الأمويون وولاتهم.

وفي سنة (١٠٠) للهجرة خرج (شوذب الخارجي) ويدعى (بسطام) في (جوشي) في وسط العراق ومعه ثمانون فارساً وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز فارسل اليهم عمر جيشاً وأمرهم الا يقاتلوهم ثم طلب مناظرتهم فارسلوا اليه رجلين منهم هما مولى حبشي اسمه عاصم واخر من بني يشكر ويذكر الطبري أن الخليفة قال لهم بعد نقاش طويل: انضرائي ثلاثة أيام ويبدو أنه اقتنع بوجهة نظرهم وخاصة في تولية يزيد بعده واراد ان يغيره، فأحس بنو مروان بذلك وخافوا ان يخرج الملك من ايديهم بخلع يزيد فدسوا السم الى عمر فلم يلبث ثلاثاً حتى مات^(١)، فلما مات عمر وخلفه يزيد بن عبد الملك أراد عبد الحميد بن عبد الرحمن ان يحظى عند يزيد فأمر محمد بن جرير بمحاربة شوذب، ولم يكن رسولا شوذب الى عمر قد رجعا بعد، فلما رأى الخوارج تحرك الجيش احسا ان عمر قد مات، ثم اشتبك الخوارج مع جيش محمد بن جرير فأكثروا فيهم القتل وولوا منهزمين حتى دخلوا الكوفة وجرح قائدهم محمد، ثم وجه اليهم والي الكوفة جيشاً آخر بقيادة نجدة بن الحكم في الفين فقتلوه وهزموا جيشه ثم وجه اليهم جيشاً آخر بقيادة الشجاج بن وداع في الفين فراسلهم وراسلوه ثم التقوا واقتتلوا حتى هزموا الجيش وقتل قائدهم.

وقد اثرت هذه الهزائم على معنويات أهل الكوفة الذين كانوا يتحملون الخسائر الفادحة مما دفعهم للشكوى عند مسلمة بن عبد الملك الذي ارسل اليهم جيشاً من عشرة آلاف مقاتل عليهم سعيد الحرشي وكان فارساً شجاعاً، فأحس الخوارج وهم ثمانون رجلاً ان لا طاقة لهم بهذا الجيش فاستماتوا عند اللقاء وكسروا أغماد سيوفهم وهاجموا الجيش الذي كان معظمه من أهل الشام حتى هزموه مراراً ولكن سعيد الحرشي ذمر أصحابه قائلاً لهم: يا أهل الشام يوم

(١) الطبري ٦ / ٣١١، ابن الاثير ٥ / ٤٥، الامامة والسياسة ٢ / ١٣٤، المسعودي ٣ / ١٩٠.

كأيامكم فحملوا على الخوارج وطحنوهم طحناً وقتل شوذب وانتهت
حركته^(١).

وفي سنة (١٠٥) للهجرة خرج حروري آخر اسمه (عقفان) في ثمانين رجلاً
الا أن يزيد بن عبد الملك اتبع معه سياسة جديدة اذ ارسل الى كل رجل من
اصحابه رجلاً من قومه ليقنعه وعين قائدهم «عقفان» على الصدقة فصلح أمره،
وفي نفس العام خرج مسعود بن أبي زينب العبدى في البحرين ثم سار الى
اليامة فقاومه عاملها سفيان بن عمرو العقيلي فقتل مسعود فتولى امر الخوارج
هلال بن مدلج الذي استمر يقاتل حتى قتل وقيل ان مسعوداً هذا قد تغلب لمدة
تسعة عشرة سنة على البحرين واليامة.

وفي العراق خرجت مجموعة من الخوارج منهم مالك بن الصعب وجابر بن
سعد وأثمروا عليهم مصعباً، وكان من رؤوس الخوارج فأرسل اليهم خالد القسري
والي العراق جيشاً فلما كانوا في منطقة (حزة) من أعمال الموصل التقوا فقتل
الخوارج وقيل ان قتلهم كان في آخر ايام يزيد بن عبد الملك^(٢).

وفي سنة (١٠٧) للهجرة خرج في اليمن عباد الرعيني محكماً في ثلاثمائة
فقتله يوسف بن عمر ومن معه ففضى على حركته^(٣).

وفي سنة (١١٩) للهجرة خرج بهلول بن بشر الملقب (كثارة) محكماً وكان
بهلول متألها مشهوراً بالبأس وكان سبب خروجه أنه كان مسافراً الى الحج
فارسل غلاماً له ليشتري له خلاً بدرهم فجاء الغلام بخمر بدل الخل فأمره برده
فلم يجبه البائع فاشتكا بهلول الى عامل القرية وهي في سواد العراق فقال له
العامل: ان الخمر خير منك ومن قومك، فعزم على الخروج على السلطان فالتقى
بمكة مع من كان على رأيه واتعدوا قرية من قرى الموصل فاجتمعوا فيها وأثمروا
عليهم البهلولة وكانوا اربعين رجلاً، في بداية أمرهم قرروا التوجه نحو الكوفة

(١) الطبري ٦ / ٣٢٧، ابن الأثير ٥ / ٧٠.
(٢) ابن الأثير ٥ / ١١٨ - ١٢١.
(٣) الطبري ٦ / ٣٨٧.

لقتل واليهما خالد بن عبد الله القسري الذي قد أكثر من بناء البيع والكنائس لأن أمه كانت نصرانية وكان لا يقيم وزناً لشعائر الدين.. إضافة لاستخفافه بالناس وظلمه^(١)، وكان يولي المجوس على المسلمين وينكح أهل الذمة من المسلمين ويهدم المساجد^(٢) فمروا بطريقهم بالقرية التي قال لهم فيها بائع الخل إن الخمر خير منك ومن قومك، فقتلوا عاملها الذي طردهم رغم اعتراض بعض أصحابه الذين كانوا يرون التوجه إلى خالد القسري وعدم فضح أمرهم بقضايا جانبية، ولكن البهلول احتج عليهم بالآية الكريمة ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾. فلما قتل عامل القرية خرج الناس هارين لما علموا أنهم خوارج وورد الخبر إلى خالد فارسل إليهم قائداً من أهل الشام كان متوجهاً إلى الهند ومعه ستمائة مقاتل فضم إليه خالد مائتين من أهل الكوفة، والتقى الفريقان على الفرات فهجم بهلول على قائد الجيش فقتله فانهمز الجمع حتى دخلوا الكوفة والخوارج خلفهم يقتلونهم كيف شاؤوا.

وكان بعض من يرى رأي الخوارج من أهل الكوفة حاول اللحاق ببهلول إلا أنهم قتلوا قبل ذلك فانتقم لهم بهلول وقتل قتلهم، وأرسل خالد جيشاً آخر لمحاربتهم فالتقوا بين الموصل والكوفة فهزموهم الخوارج، ثم توجه الخوارج إلى الموصل يريدون دخولها فاستنجد عاملها بالخليفة هشام بن عبد الملك، فقرر بهلول أن يتوجه إلى الشام حيث مقر الخلافة بدلاً من الأطراف ولكن عمال الولايات فزعوا وخافوا أن يعزلهم هشام إذا تجاوزهم الخوارج ولم يقاتلوهم فارسل إليهم خالد جيشاً ووجه هشام جيشاً آخر ووجه عامل الجزيرة جيشاً ثالثاً فاجتمعت الجيوش بالكحيل دون الموصل أو بدير بين الموصل والجزيرة وكان الخوارج سبعين رجلاً فهاجمهم بهلول وقتل بيده ستة نفر منهم، وكانت الجيوش

(١) كان خالد القسري ممن يُظهر الإسلام ويُسر النصرانية وكان يقول إن خليفة الرجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته يعني بذلك أن الخليفة أفضل من الرسول (ابن الأثير ٥ / ٢٨٠).

(٢) الطبري ٦ / ٤٥٨.

المجموعة قد تجاوزت العشرين ألفاً واستمر القتال بينهم سجلاً من الصباح حتى العصر ثم حمل رجل من قبيلة جديلة على بهلول فصرعه فقال أصحابه ولّ علينا من بعدك، فولى عليهم دعامة الشيباني الذي انسحب بهم^(١).

وخرج في ولاية خالد القسري عدة من الخوارج منهم عمرو الشكري فلم يلبث ان قتل وخرج بعده العنزي صاحب الأشهب في ستين رجلاً فأرسل اليهم خالد جيشاً في اربعة الاف، فالتقوا في ناحية الفرات، فجرح قائد الجيش، ثم انهزم الخوارج؛ فتلقاهم عبيد اهل الكوفة وسفلتهم فرموهم بالحجارة حتى قتلوهم^(٢).

وخرج بعده وزير السخثياني في الحيرة، وكان لا يمر بقرية إلا احرقها، ولا أحد الا قتله فأرسل اليه خالد جيشاً فقاتلوه حتى قتل عامة الخوارج وجرح وزير السخثياني فأتي به الى خالد فاستبقاه لما رأى من علمه وبلاغته الا أن الخليفة هشام سمع بذلك فأمره بقتله فقتله^(٣).

وفي سنة (١١٩) للهجرة خرج الصحاري ابن شبيب وكان سبب خروجه انه اتى خالد القسري يسأله الفريضة فلم يعطه، ثم ندم خالد فأرسل اليه رسولاً يدعوه فشد على الرسول بالسيف فهرب، وعقر الصحاري فرسه وركب سفينة ليخفي مكانه وقصد اصحابه من الصفرية الذين لاموه على ذهابه لخالد فقال لهم إني أردت التوصل اليه لأقتله غيلة ودعاهم الى الخروج فاستجاب له جماعة منهم نحو ثلاثين رجلاً، وعندما بلغ خالد أمره ارسل اليه جيشاً فالتقوا في ناحية المناذر فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتلوه وجميع أصحابه^(٤).



- (١) الطبري ٦ / ٤٦٠، ابن الأثير ٥ / ٢٠٩ .
(٢) الطبري ٦ / ٤٦٠، ابن الأثير ٥ / ٢١٢، وقد سماه البخاري صاحب الأشهب .
(٣) الطبري ٦ / ٤٦١، ابن الأثير ٥ / ٢١٢ .
(٤) ابن الأثير ٥ / ٢١٣ .

اضطراب الدولة الأموية

وخروج الضحاك بن قيس الشيباني

بدأت الدولة الأموية في الاضطراب والتدهور تدريجياً بسبب ظلم الولاة والانغماس في اللهو والفساد وترك امور الرعية مما ساعد على نمو وانتشار الحركات المناوئة للدولة وكانت قمة الأحداث في سنة (١٢٦) للهجرة حيث وثب يزيد بن الوليد على الخليفة الوليد بن يزيد وقتله بحجة خلاعته ومجونه وما ذكر عن تهاونه واستخفافه بأمور الدين واستسلامه للهو واللذة وشرب النبيذ^(١). ثم وثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وأقبل الى الشام يعيب على يزيد كفره ويلعنه، ووثب أهل حمص وظهروا الطلب بدم الوليد بن يزيد كما ثار أهل فلسطين والأردن على عاملهم وقتلوه بعد معارك طاحنة، في نفس الوقت كانت الفتن والمعارك على أشدها في خراسان بين عاملها نصر بن سيار و (الكرماني) اضافة الى انتشار دعاة بني العباس فيها وتولي ابي مسلم الخراساني امور الدعوة.

(١) الطبري ٦ / ٥٣٨، ابن الأثير ٥ / ٢٨٠.

وظهر مروان بن محمد مطالباً بدم الوليد بن يزيد ثم وفاة يزيد بعد ستة اشهر من توليه الخلافة وتولي ابراهيم ابن الوليد الخلافة ولكن الأمر لم يتم له لأن مروان بن محمد قدم فخلعه بعد سبعين يوماً من ولايته وذلك بعد معارك عنيفة في الشام، وفي سنة (١٢٧) للهجرة ثار عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر في الكوفة وغلب على حلوان والجبال وهمدان وقومس واصبهان والري.

وكانت هذه الأجواء قد مهدت لدعاة بني العباس الذين بثوا دعائهم في الأمصار، وفي فترة الاضطرابات والانحلال هذه خرج الضحاك بن قيس محكماً وكان سبب خروجه ان خارجياً آخر يدعي سعيد بن بهدل الشيباني خرج في الجزيرة في مائتين من اصحابه فيهم الضحاك، وفي نفس الوقت خرج بسطام البيهسي مخالفاً لرأي سعيد في مائتين من ربيعة، واختلف الخوارج بينهم وتحاربوا حتى قتل بسطام ثم مات سعيد بن بهدل واستخلف الضحاك بن قيس، واجتمع للضحاك الف فارس فسار بهم الى الموصل في طريقه الى الكوفة فتبعه ثلاثة الاف من أهل الجزيرة، كانت الكوفة مضطربة الأحوال والقتال على أشده بين اليمانية وعليهم عبد الله بن عمر وهم في الحيرة والمضرية وعليهم النضر بن سعيد الحرشي وهم في الكوفة، فلما دنا الضحاك من الكوفة اصططح الطرفان على حرب الخوارج وكان عدتهم ثلاثين ألفاً من أهل الشام فخذقوا على الكوفة، ثم هاجمهم الضحاك وهزمهم ودخل الكوفة فهرب عبد الله بن عمر الى واسط فاستخلف الضحاك رجلاً من اصحابه على الكوفة يدعى (ملحان) وتوجه الى واسط فحاصر عبد الله بن عمر. ولما اجتمعت جيوش الأمويين في واسط عادوا الى ماكانوا عليه من العصبية بين اليمانية والمضرية واشتعلت الحرب بينهما فلما حاصرهم الضحاك اصططحوا على حربه.

في شعبان سنة (١٢٧) للهجرة بدأت المناوشات بين الخوارج وجيوش الأمويين فلما طال عليهم الحصار اقترح احد قادة عبد الله بن عمر ان يوادعوا الخوارج لأنهم ليس لهم بهم طاقة فاي عليه فخرج القائد وهو منصور بن جمهور وبايع الضحاك، ثم اعقبه عبد الله بن عمر نفسه فبايع الضحاك بن قيس، وهكذا

أصبحت الكوفة وواسط تحت حكم الخوارج، لأول مره منذ بدء حركتهم، وكان احد بني مروان وهو سليمان بن هشام بن عبد الملك قد فر هارباً من مروان بن محمد بعد حرب طويلة ولجأ الى عبد الله بن عمر فخرج معه وبايع الضحاك^(١).

اتفق عبد الله بن عمر والضحاك بن قيس على قتال مروان بن محمد، وكان الخليفة الأموي قد عين يزيد بن عمر بن هبيرة عاملاً على العراق ووجه معه جنداً كثيفاً من الجزيرة والشام، والتقى الخوارج الذين كانوا في الكوفة وعليهم المثنى بن عمران العائذي وجيش الشام فانهمز الخوارج وقتل عدد من قادتهم ثم التقوا ثانية، وكان منصور بن جمهور قد جمعهم فانهمز الخوارج ثانية، وأقبل ابن هبيرة حتى دخل الكوفة ثم توجه نحو واسط يريد الضحاك؛ فالتقى بجيش الخوارج في الصراة فهزمهم^(٢).

اما الضحاك فإنه توجه نحو الموصل، بعد ان كاتبه أهلها وطلبوا منه أن يقدم عليهم فसार اليهم في سنة (١٢٨) للهجرة وقتل عامل مروان بن محمد فيها وسيطر عليها، وكان مروان مشغولاً بقتال أهل حمص الذين ثاروا عليه فطلب الى ابنه عبد الله ان يسير الى نصيبين، ثم سار اليه مروان بنفسه، فالتقوا في منطقة اسمها الغز من ارض كفرتوتا، ودارت معركة كبيرة قتل على اثرها الضحاك. وعلى اثر مقتله بايع الخوارج (الخيبري) الذي انسحب بقواته حتى نزل الموصل وخندق بها، وتبعه مروان حتى عسكر ازاءه واخذ يناوشه القتال حتى قتل الخيبري اثناء المعارك؛ فبايع الخوارج شيبان^(٣)، الذي استمر على القتال وقد انفض عنه كل من كان قد انضم اليه طمعاً ورهبة حتى تضاعل عدد من معه الى أربعين ألفاً، وقد لجأ مروان بن محمد الى تبديل تعبئة الجيش من نظام الصف الذي كان

(١) يذكر ابن الأثير انهما اتفقا، ولم يتطرق الى المبايعه، ابن الأثير ٥ / ٣٣٦ .

(٢) الطبري ٥ / ٦٢٢، ١٦/٦، ابن الأثير ٥ / ٣٤٩ ويذكر ابن الأثير ان هناك رواية عن قتله سنة ١٢٩ .

(٣) المسعودي ٣ / ٢٤٠، يذكر ان الذي بوع بعد الضحاك اسمه (الحري) الذي قُتل فبوع أبا الذلفاء شيبان الشيباني.

معمولاً به الى نظام الكرايس وهي المجموعات المنفصلة وقد سبقه الى استخدام هذا الاسلوب سليمان بن صرد الخزاعي عندما قاد جيش التوابين واشتبك مع الأمويين في معركة عين الورد سنة (٦٥) للهجرة بناء على اقتراح من زفر بن الحارث الكلبي الذي كان مسيطراً على قرقيسيا مستقلاً بها بعد هزيمته في معركة مرج راهط وقد مرّ به التوابون وهم في طريقهم لحرب جيوش الأمويين. وقد التقى الجيشان في معركة أخيرة في منطقة (السن) دون الموصل فانهزم الخوارج وتفرقوا، اما خليفتهم شيان الحروري فانه توجه نحو البحرين، وفي نفس الوقت ارسل مروان جيشاً اخر يقوده يزيد بن عمر بن هبيرة الى الكوفة حيث استطاع اخراج الخوارج منها واحكام السيطرة عليها، وبهذا انتهت حركة الضحاك بن قيس التي كانت اكبر حركات الخوارج والتي استطاعت السيطرة على العراق من واسط الى الموصل ورغم انها نشبت عند اضطراب الدولة الأموية وبدء التحرك العباسي في خراسان ونشوء الخلافات الداخلية الا انها فشلت في الصمود تجاه الجيوش الأموية لفتره طويلة، وفي فتره من قيام هذه الحركة كادت أن تصل الى غايتها بقتل الخليفة الأموي مروان بن محمد واستطاع الخيري في احد المعارك ان يهزمه وان يجلس في فسطاطه وهو في اربعمائه من اصحابه الا انه اهمل ادامة المعركة واستثمار الفوز بعد ان استطاع أن يهزم القلب الذي كان فيه مروان ولم ينتبه الى الجناحين اللذين اطبقا عليه وقتلاه^(١)، وفي رواية الطبري يوجد التباس في قتل شيان بن عبد العزيز الشكري اذ يذكر في موقع آخر انه بقي حتى سنة (١٣٤) للهجرة وانه ركب السفن مع أصحابه الى عمان وكان شيان على رأي الصفرية من الخوارج وكان في عمان الاباضية وعليهم «الجلندي» فتقاتلوا بينهم حتى قتل شيان ومن معه وأن الخليفة العباسي ابو العباس السفاح ارسل اليهم قائده خزيمه بن خازم الذي تبعهم الى عمان فلما قتل شيان على ايدي الاباضية وكفي امره بادر الى قتال الاباضية فهزمهم وبعث برؤوسهم الى البصرة^(٢).

(١) الطبري ٦ / ٢٠ - ٢١، ابن الأثير ٥ / ٣٥٠.

(٢) الطبري ٦ / ١١٤ - ١١٥.

أما ابن الأثير فيذكر عدة روايات عن مصير شييان منها ان جيش الأمويين تبعه حتى دخل (جيرفت) من بلاد (كرمان) والتقى معه ابن ضبارة حتى انهزم الخوارج واستبيح عسكرهم وان شييان مضى منهزماً حتى توفي سنة (١٣٤) للهجرة^(١).

ثم يذكر ان شييان توجه نحو (مرو) مع جيشه ولما استقر الأمر في خراسان لأبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية تنحى شييان عن مرو الى سرخس فأرسل اليه ابو مسلم يدعوه لمبايعته فرفض وطلب من أبي مسلم مبايعته، فأرسل اليه ابو مسلم جيشاً بقيادة بسام ابن ابراهيم فقاتله وانهزم شييان حتى قتله وقيل ايضاً انه ارسل اليه قائده خزيمه بن خازم ايضاً^(٢).

في سنة (١٦٩) للهجرة ظهر في اليمن عبد الله بن يحيى الملقب بـ(طالب الحق) وكان فيها ابو حمزة الخارجي قاتلاً على حرب مروان بن محمد، فبعث عبد الله الى مكة فدخلها في شجاعة من اصحابه في موسم الحج فلم يثر الناس في عرفة الا وقد طلعت عليهم عيالم سود في رؤوس الرماح فسألهم الناس ماخطبكم فقالوا انهم على خلاف مروان بن محمد وتبرأوا منه، وكان والي مكة عبد الواحد بن سليمان يطلب منهم الهدنة ليؤدي الناس حجاجهم بأمان فأجابوه الى ذلك، فلما ثار الناس على لهم عبد الواحد مكة فدخلوها بغر قال ومضى عبد الواحد الى المدينة هناك جمع الناس وراى في الفطنة وأمرهم بالخروج لقتال المشركين، فخرجوا فلما كانوا باخرة اقتحمهم جبر مشرك فمضوا فلما مروا بالعقيق قطع لواء الجيش بشجرة فانكسر الرميح فتشام الناس، ثم ساروا حتى نزلوا قديد وزعم الناس أن حزامه قد دلت أي حيرة على عورة أهل المدينة، وكان الجيش الذي جمعه عبد الواحد تنقصه الحيرة وليسوا بأهل قتال، وقد طلب منهم الخارجي أن يدعوه يمر لأنه يريد مروان بن محمد ولا يريد قتالهم الا انهم أبا عليه فهاجمهم وكانت وقعة قتيده وكثر القتل في أهل المدينة وأغلبهم

(١) ابن الأثير ٥ / ٣٥٥ . حمزة المدينة في سنة (١٣٠) للهجرة وخطب فيها خطبة

(٢) ابن الأثير ٥ / ٣٨٢ .

ابو حمزة الخارجي

في سنة (١٢٩) للهجرة ظهر في اليمن عبد الله بن يحيى الملقب بـ(طالب الحق) وكان فيها ابو حمزة الخارجي فاتفقا على حرب مروان بن محمد، فبعثه عبد الله الى مكة فدخلها في سبعمائة من اصحابه في موسم الحج فلم يدر الناس في عرفة الا وقد طلعت عليهم عمائم سود في رؤوس الرماح فسألهم الناس ماخطبكم فقالوا انهم على خلاف مروان بن محمد وتبرأوا منه، وكان والي مكة عبد الواحد بن سليمان فطلب منهم الهدنة ليؤدي الناس حجهم بأمان فأجابوه الى ذلك، فلما نفر الناس خلى لهم عبد الواحد مكة فدخلوها بغير قتال ومضى عبد الواحد الى المدينة وهناك جمع الناس وزادهم في العطاء وأمرهم بالخروج لقتال الحرورية، فخرجوا فلما كانوا بالحرة لقيتهم جزر منحورة فمضوا فلما مروا بالعقيق تعلق لواء الجيش بشجرة فانكسر الرمح فتشاءم الناس، ثم ساروا حتى نزلوا قديد وزعم الناس أن خزاعة قد دلت أبي حمزة على عورة أهل المدينة، وكان الجيش الذي جمعه عبد الواحد تنقصه الخبرة وليسوا بأهل قتال، وقد طلب منهم الخارجي أن يدعوه يمر لأنه يريد مروان بن محمد ولا يريد قتالهم الا انهم أبوا عليه فهاجمهم وكانت وقعة «قديد» وكثر القتل في أهل المدينة وأغلبهم من قریش ودخل ابو حمزة المدينة في سنة (١٣٠) للهجرة وخطب فيها خطبة

مشهوره قال فيها: «تعلمون يا أهل المدينة إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرأ ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد ان نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا، ولكن لما رأينا مصاييح الحق قد عطلت.. فاضت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض فأقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بغير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض... ثم قال وأنتم يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عزوجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة أولكم خير اول وآخركم شر آخر، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم الا مشركاً عابد وثن او مشرك أهل كتاب او امام جائر...»^(١).

ويبدو من خطبته انه يخالف رأي الازارقة في تكفير الناس او استحلال استعراضهم وقتلهم الا انه نقل عنه قوله من زنى فهو كافر ومن شك فهو كافر ومن سرق فهو كافر ومن شك انه كافر فهو كافر.

وينقل عنه انه احسن السيرة في اهل المدينة خلال حكمته فيها. وعندما بلغت أنباء وقعة قديد مروان بن محمد بعث اربعة الاف عليهم عبد الملك بن عطية وأمره بقتال الخوارج وحثهم على الجد وأعطى لكل رجل منهم مائة دينار وفساً عربية وبغلاً لأثقاله، فلما سمع بهم أبو حمزة خرج من المدينة حتى نزل الوادي فلما التقوا قال أبو حمزة لأصحابه: لاتقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاحوا بهم: ماتقولون في القرآن؟ فصاح ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قالوا: فما تقولون في مال اليتيم؟ قال نأكل ماله ونفجر بأمه. في حوار يبين مدى استهانة ابن عطية والذي ارسله بالدين، عند ذلك صحت نية الخوارج في القتال فاشتبكوا وكان الخوارج اربعمائة فقتلوا عن آخرهم، وقيل ان ابا حمزة قتل مع

(١) الطبري ٥٨ / ٦، وذكر خبره مع طالب الحق وخطبته في الكامل لابن الاثير ٥ / ٣٥٠، وجمع ابن الحديد خطبته في المدينة في شرحه ١١٤ / ٥

عبد الله بن يحيى طالب الحق في اليمن عندما توجه اليه ابن عطية السعدي بعد ان فرغ من الخوارج^(١).

الخوارج في الدولة العباسية

ساهمت حركات الخوارج الكبيرة في زمن مروان بن محمد والاضطرابات العديدة التي رافقت توليه للسلطة والشرخ العميق الذي أحدثه الانقسام داخل البيت مرواني في عجز السلطة المركزية عن معالجة التحرك الكبير للدعاة بني العباس في خراسان كما ان الحروب الدموية في خراسان نفسها قد اعجزت الوالي نصر بن سيار عن طرد هؤلاء الدعوة التي امتجد بالخليفة لم يجد نجاحاً لانشغال الخليفة بالشااكل الكبيرة التي تواجهه أما الخوارج الذي قاموا بأكثر حركة لهم في تلك الحقبة حتى بلغت جيوشهم مائة ألف أو يزيدون وسيطروا على معظم اجزاء العراق فالتهم قتلوا ايضاً في تحقيق هدفهم في الوصول الى السلطة واستئلال الوضع المتعطب ولكنهم ساعدوا مساهمة فعالة في انجذابها ومن ثم انهيارها وقد استمرت أفكار الخوارج في الانتشار ولا سيما في اليمن وعمان حيث أصبحت لهم هناك قواعد قوية كانت السبب في بقاء الإباضية في تلك الأساق حتى اليوم وهذا الاستقرار النسبي هو الذي سبب ايضاً تطور الفكر الحركة الإباضية لكي تصبح فيما بعد فرقة لها خصائصها الفكرية التي تفرق من بقية الفرق الإسلامية الأخرى ولكي تخرج تدريجياً من أوضاع التطرف الذي

(١) الطبري ٦ / ٦١، ابن الأثير ٥ / ٣٩١، شرح النهج ٥ / ١١٤، استطاع الخوارج قتل ابن عطية بعد عودته من اليمن في جماعة يسيرة.

الخوارج في الدولة العباسية

ساهمت حركات الخوارج الكبيرة في زمن مروان بن محمد والاضطرابات العديدة التي رافقت توليه للسلطة والشرح العميق الذي أحدثه الانقسام داخل البيت المرواني في عجز السلطة المركزية عن معالجة التحرك الكبير لدعاة بني العباس في خراسان كما ان الحروب الدموية في خراسان نفسها قد اعجزت الوالي نصر بن سيار عن الوقوف بوجه هذه الدعوة ولما استنجد بالخليفة لم يجد تجاوباً لانشغال الخليفة بالمشاكل الكبيرة التي تواجهه، أما الخوارج الذي قاموا بأكبر حركة لهم في تاريخهم حتى بلغت جيوشهم مائة ألف او يزيدون وسيطروا على معظم اجزاء العراق فانهم فشلوا ايضاً في تحقيق هدفهم في الوصول الى السلطة واستغلال الوضع المضطرب ولكنهم ساهموا مساهمة فعالة في اضعافها ومن ثم انهيارها، وقد استمرت افكار الخوارج في الانتشار ولا سيما في اليمن وعمان حيث اصبحت لهم هناك قواعد قوية كانت السبب في بقاء الاباضية في تلك الأصقاع حتى اليوم وهذا الاستقرار النسبي هو الذي سبب ايضاً تطور افكار الحركة الاباضية لكي تصبح فيما بعد فرقة لها خصائصها الفكرية التي تقترب من بقية الفرق الاسلامية الأخرى ولكي تخرج تدريجياً من أوضاع التطرف الذي حمله الخوارج الأوائل والذين اندثروا واندثرت معهم افكارهم حتى لم يبق في

النهاية سوى الاباضية كما سنورد فيما بعد.

وعندما بدأت الدولة العباسية كان الجميع منبهرين بالتطورات السريعة والانتصارات الساحقة التي حققها دعاة العباسيين وكان الانتظار والترقب هو سمة المرحلة الأولى للحكم العباسي اذ ان الخوارج الذي بدا أنهم جمدوا نشاطهم العسكري في تلك المرحلة كانوا يتطلعون الى هذا الحكم الوليد وما سيفعله اذ ليس من المعقول ان يثوروا ضده لأول وهلة دون أن يختبروه كما أن المد الهائل الذي رافق قيام الدولة جعل الخوارج وغيرهم يحجمون عنا الوقوف امام العاصفة.

وحالما ترسخت الدولة الجديدة بدا واضحاً انها لا تختلف عن الدولة الأموية في شيء وخاصة بعد استخلاف أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، وقد بدأ اطلاق اسم (خارجي) على كل الحركات المناوئة للعباسيين حتى ان المؤرخين قد بدأوا يستخدمون هذا الأسم ولم يعد هناك تمييز واضح للناس بين من يخرج على السلطة وهو يحمل افكار الخوارج وعقائدهم وبين الثورات المتعاقبة التي كانت تندلع في بلاد فارس او الكوفة والتي كانت دوافعها مختلفة وان كانت تلتقي مع اهداف الخوارج في ازالة السلطة الجديدة وتختلف مع الخوارج في العقيدة، ولعل السبب الرئيسي في اطلاق تسمية خارجي على كل ثائر هو استثمار الرأي العام الذي كان ينفر من الخوارج بسبب دمويتهم والسمعة التي اكتسبوها طيلة فترة حركاتهم وما اضافته السلطة واجهزتها لهم، وكان في اطلاق هذه التسمية حافز لتشجيع الناس على قتال المناوئين واخفاء الأسباب الرئيسية للثورات والتي كانت تتمثل بالظلم والاستبداد الذي مارسه العباسيون او بالنزعة القومية التي سببت ثورات عديدة في بلاد فارس وغيرها كثورة بابك الخرمي او رافع ابن الليث او سنباذ عام (١٣٧) للهجرة أو يوسف البرم عام (١٦٠) للهجرة والحكيم المقنع عام (١٦١) للهجرة، كما أن الدولة العباسية شهدت ثورات متعاقبة للعلوين الذين كان دافعهم يختلف اختلافاً جذرياً عن ثورات الخوارج بل ان عقائدهم كانت معادية تماماً لعقيدة الخوارج وقد استطاعت

هذه الثورات أن تقارب الوصول الى هدفها وهددت الدولة العباسية تهديداً جدياً كثورة (محمد ذو النفس الزكية) في المدينة وأخيه ابراهيم في البصرة وهما ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن^(١)، وقد استطاع المنصور القضاء عليهما بعد جهد جهيد.

الحركات العسكرية للخوارج

في الدولة العباسية

في سنة (١٤١) للهجرة خرج المريد الشيعاني محمداً في الجزيرة فسارت اليه الحشوش المرافقة في الجزيرة فهزيمهم وأرسل اليه جيش من الموصل فهزمه ايضاً ثم أرسل اليه الخليفة المنصور قائده يزيد بن حاتم المهلبى فهزمه المريد ايضاً واستطاع بعد ذلك أن يهزم عدة جيوش للدولة فاضطر المنصور الى اعداد جيش كبير عليه احمد بن تحفة في ثمانية آلاف مقاتل ولكن المريد حاصره وحرمه واضطر هذا القائد أن يرشوه بمائة درهم * * * يكتب * وهذا التصرف يعطي فكرة عن التبدل الذي اصاب الخوارج واسباب خروجهم، فشعب الخارجى استولى على عدة احوال من الثقات في اتحدى معاركه فخرها بالسيف واخرها في الرمح ومنع اصحابه من حيازتها، وهذا يصدق كلام الامام علي في أن انهم سيكونوا لصوحاً وقاطعي طرق.

ويذكر الطبري^(٢)، في تاريخه عن الواقدي ان خروج المريد كان في عام

(١) سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) الطبري ٦ / ١٤٠، ابن الأثير ١٥ / ٤٨٢ ويذكر ان المريد قتل سنة ١٣٨.

الحركات العسكرية للخوارج

في الدولة العباسية

في سنة (١٤١) للهجرة خرج الملبد الشيباني محكماً في الجزيرة فسارت اليه الجيوش المرابطة في الجزيرة فهزمهم وأرسل اليه جيش من الموصل فهزمه ايضاً ثم ارسل اليه الخليفة المنصور قائده يزيد بن حاتم المهليي فهزمه الملبد ايضاً واستطاع بعد ذلك ان يهزم عدة جيوش للدولة فاضطر المنصور الى اعداد جيش كبير عليه «حميد بن قحطبة» في ثمانية الاف مقاتل ولكن الملبد حاصره وهزمه واضطر هذا القائد أن يرشوه بمائة الف درهم حتى يكف عنه وهذا التصرف يعطي فكرة عن التبدل الذي اصاب الخوارج واسباب خروجهم، فشبيب الخارجي استولى على عدة أحمال من الدنانير في احدى معاركه فخرقها بالسيف واذراها في الريح ومنع اصحابه من حيازتها، وهذا يصدق كلام الامام علي في أن اخرهم سيكونوا لصوصاً وقاطعي طرق.

ويذكر الطبري^(١)، في تاريخه عن الواقدي ان خروج الملبد كان في عام

(١) الطبري ٦ / ١٤٠، ابن الأثير ٥ / ٤٨٢ ويذكر ان الملبد قتل سنة ١٣٨ .

الوليد بن طريف الشاري

في أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد اندلعت حركة كبيرة للخوارج وذلك في عام (١٧٢) للهجرة ولم تكن قد حدثت في خلافته احداث تذكر، فقد خرج الوليد بن طريف الشاري محكماً في الجزيرة فقتل ابراهيم ابن خازم بن خزيمة في نصيبين ثم مضى الى ارمينية وعاد مرة أخرى الى الجزيرة، وبعد ان هزم عدة قواد للرشيد وفل جيوشهم حتى وصلت طلائعه الى «تكريت» و«بلد» على اطراف بغداد وافتدى أهل بلد أنفسهم منه بـ (١٠٠) ألف درهم، وكان الوليد هذا من بني شيان القبيلة التي ترعرعت ونمت فيها عقائد الخوارج وانجبت العديد من قادتهم، فاستشار الرشيد خاصته فيمن يوليه حرب الخوارج فاشير عليه يزيد بن مزيد الشيباني وقيل له لايفل الحديد الا الحديد فالاثنان من بني شيان وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

وائل بعضها يقتل بعضاً
لايفل الحديد الا الحديد
وكان يزيد معتزلاً في البادية لأمر بينه وبين الرشيد فاستقدمه الرشيد وأرضاه ثم بعثه في جيش كثيف الى الوليد وكان يزيد يماكر الوليد ويلتمس غرثه حتى اوغر ذلك قلب الرشيد وشك في ميله لعدم مقاتلة قبيلته، ثم التقى الطرفان في معركة دامية فوق هيت وتحولت الماركة الى مبارزة فردية بين يزيد والوليد الذي

كان يقول:

ستعلم يا يزيد اذا التقينا بشط الزاب أي فتي يكون
ودامت المارزة ساعات حتى عطش يزيد فوضع خاتمه في فمه يستجلب الريق
وكان يرتجز (الغمرات ثم ينجلينا) ثم وجد غرة من الوليد فقتله، فلما قتل الوليد
صباحتهم اخته ليلي بنت طريف (الفارعة) مستعدة عليها الدرع فجعلت تقاتل،
فقال يزيد دعوها ثم خرج اليها فضرب بالرمح قطاة فرسها، وقال: أغريي غرب
الله وجهك فقد فضحت العشيرة، فاستحييت وانصرفت وقالت ترثي اخاها:

بتل نباتي رسم قبر كانه على علم فوق الجبال منيف

تضمن جوداً حاتماً ونائلاً وسورة مقدم وقلب حصيف

ألا قاتل الله الجثي كيف اضمرت فتي كان بالمعروف غير عفيف

فإن يك ارداه يزيد بن مزيد فيارب خيل فضها وصفوف

ألا يا القومي للنوائب والردى ودهرٍ ملح بالكرام عفيف

وللبدر من بين الكواكب قد هوى وللشمس همت بعده بكسوف

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتي لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنى وسيوف

ولا الخيل الا كل جرداء شطبه وكل حصان باليدين عروف

فلا تجزعا يا ابني طريف فاني ارى الموت نزلاً بكل شريف

فقدناك فقدان الربيع فليتنا فدينك من دهمائنا بالوف^(١)

(١) الطبري ٦ / ٤٦٥، ابن الأثير ٦ / ١٤٠ - ١٤٣، الا أنه يذكر ان خروجه عام (١٧٨) للهجرة، شرح النهج ٥ / ٧٣ / ٧٤ ويعلق ابن أبي الحديد على قصيدة اخته التي تصفه انه من أهل التقى والورع أنه لم يكن كما زعمت كما يذكر ان اسم الفارعة فاطمة ويتحدث عن قصديتها فيقول انها سلكت سبيل الخنساء في الرثاء وانها اجادت فيها وقد وجدها كاملة بعد ان وجد أربعة أبيات منها في أمالي القالي، راجع أمالي القالي ٢ / ٢٨٤، والآلي ٩١٣، وشرح شواهد المغني ٥٥.

طائفة ممن خرج بعده

وفي زمن الرشيد خرجت خارجة في الموصل عام (١٨٠) للهجرة فقام الرشيد يهدم سور الموصل وقضى عليهم، ثم خرج «فراشة الشيباني» فقتله مسلم بن بكار العقيلي في نفس العام^(١)، وفي عام (١٨٤) خرج ابو عمر الشاري في شهرزور شمال شرقي العراق فقتله زهير القصاب احد قادة الرشيد، وخرج في نفس الفترة ابان بن قحطبة^(٢) في مرج القلعة فارسل اليه عبد الرحمن الأنباري فقتله، وخرج حمزة الشاري في منطقة باذغيس في خراسان فوثب عليه عيسى بن علي بن عيسى فقتل عشرة آلاف من أصحابه وفلّ جمعه حتى وصل عيسى الى كابل وزابلستان.

ثم خرج المدعو عبد السلام محكماً في آمد فقتله يحيى بن سعيد العقيلي^(٣). وفي عام (١٩٠) للهجرة خرج سيف بن بكر من عبد القيس فبعث اليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله في عين النورة^(٤).

(١) الطبري ٦ / ٤٦٩ .

(٢) ابن الأثير ٦ / ١٦٨، يُذكر ان خروجه عام ١٨٥ للهجرة.

(٣) الطبري ٦ / ٤٩٧ .

(٤) ابن الأثير ٦ / ١٩٧ .

ثم خرج شروان الحروري في أطراف البصرة فقتل عامل السلطان فيها عام (١٩٢) وقد ذكره ابن الأثير على أنه ثروان بن سيف الذي خرج في سواد العراق وحولها ولعل نفوذه امتد الى تلك المناطق^(١).

من الواضح ان الفترة العباسية قد شهدت انحساراً في حركات الخوارج الكبيرة عدا حركة الوليد وان تميزت ايضاً بكثرة الحركات التي لم تكن تشكل خطراً على الدولة وقد انتقل مركز ثقل الخوارج من البصرة والكوفة وسواد العراق الى مناطق الجزيرة التي تأصل فيها فكر الخوارج وكان أغلبهم من بني شيان وربيعة التي استوطنت تلك المناطق. انصرف المؤرخون عن الخوض المفصل في تلك الحركات لضآلتها بالنسبة الى الاحداث الجسام والحركات الكبرى التي كانت تشهدها الدولة بين الحين والآخر كحركة بابك الخرمي وأبي السرايا ونصر بن شيبث وغيرهم ولم يستطع الخوارج استغلال انشغال الدولة العباسية بتلك الاحداث لتوسيع حركتهم، وبعد وفاة الرشيد وحدث الفتنة بين الأمين والمأمون والحروب الدامية التي استمرت بينهما ووجود الفراغ الواضح في السلطة في معظم المناطق لم يتشجع الخوارج على اعلان ثورتهم مما يدل على ضعف التأييد الذي كانوا يلاقونه وإن كان أحدهم وهو مهدي بن علوان قد حُكِمَ في سنة (٢٠٢) للهجرة اثناء الخلافة القصيرة لابراهيم ابن المهدي الملقب بابن شكلة وكان مهدي قد خرج في بُزرجسابور واستطاع السيطرة على كثير من المناطق ورغم ضعف المهدي واضطراب الأحوال ببغداد على اثر الحرب المدمرة وموت الأمين فان ابراهيم أرسل جيشاً بقيادة أبي اسحاق ابن الرشيد الذي التقى بالخوارج وهزمهم فهرب المهدي الى حولها ولم يظهر له أثر.

وفي عام (٢٠٥) للهجرة ظهر الخوارج في مدينة نيسابور وحكموا فاجتمع عليهم الناس بقيادة عبد الرحمن المسطوعي وقتلوه^(٢).

(١) ٢١٢٢٢.

(٢) ٥٨١ ولد في سنة ٢١٨٢٢.

(٣) ٢١٧٢٢.

(٤) ٢١٧٢٢.

(١) ابن الأثير ٦ / ٢٠٥ - ٢٠٨.

(٢) ابن الأثير ٧ / ٢٣ - ١٧٦.

وفي سنة (٢١٤) للهجرة خرج بلال الضبابي الشاري فوجه اليه المأمون جيشاً فقتل بلال، ويذكر ابن الأثير ان اسمه كان بلال الغساني الشاري وان الذي قتله العباس بن الخليفة المأمون.

وفي سنة (٢٣١) للهجرة خرج محمد بن عمر الشاري في ثلاثة عشر رجلاً في ديار ربيعة فأرسل اليه جيش بقيادة غانم بن أبي مسلم وكان على حرب الموصل فقتل من الخوارج أربعة وأسر محمد بن عمر وأرسل الى بغداد ونصبت رؤوس أصحابه فيها في نفس المكان الذي صلب فيه بابك الخرمي ولكن الطبري يعود ويذكر أنه قُتل فيما بعد في ديار ربيعة سنة ٢٣٥، كما ان ابن الأثير يذكر انه سُجن في سامراء وفي سنة (٢٥١) للهجرة ذكر ان خارجياً يدعى الموفق أُسر على يد عيسى بن الشيخ ولم يذكر الطبري اين خرج الموفق ولكن عيسى بن الشيخ كان يتولى الثغور في منطقة صور مما يدل على أنه خرج فيها او قريباً منها^(١).

للهجرة وكان من الدعايق^(٢)، ولما استعمل أمره أرسل اليه الخليفة المأمون جيشاً على القائد مائتين، وكان أحد القواد ويدعى بشار على محله طريق خراسان وهم حراس الطرق فرغب ان يحظى بقتال الخوارج فوجه بقوته حتى أشرف على معسكر الخوارج فوجدتهم يقرأون القرآن فلم يهجم عليهم لئلا يغلبوا حتى بهم الخوارج راكبوا خيولهم وتهاووا لهم وفي صباح اليوم التالي دارت معركة حرب بعدما بشار فركبهم الخوارج يقتلونهم حتى قتلوا قائدهم بشار وسار الخوارج الى حلوان فقاتلهم أهلها حتى قتل من أهل المدينة أربعمائة كما قُتل عدد من الخوارج من أهالي خراسان كانوا طريفة^(٣) الخبيثين أشرف الخوارج عنهم^(٤)، ثم أرسل اليه جيش آخر عليه نوح بن علقمة مساور وأصحابه فهزمه وقتل العديد من أصحابه وذلك في سنة (٢٥٥) للهجرة وتوجه اليه قائد آخر يدعى يار جوخ فهزمه الشاري أيضاً وعاد مغلولاً الى سامراء عاصمة الخلافة، وكان عند الخليفة قد أسروا عدداً من أفراد عائلته مساور وحسبهم في بغداد ولكن فتنة حدثت فيها أدت الى

(١) الطبري ٧ / ١٤٢ - ١٥٨ - ١٨٩ - ٣٣٠ - ٤٦٠، ابن الأثير ٧ / ٢٣ - ١٧٦.

مساور الخارجي

في منطقة البوازيح خرج محكم آخر يدعى مساور بن عبد الحميد سنة (٢٥٣) للهجرة وكان من الدهاقين^(١)، ولما استفحل أمره أرسل اليه الخليفة المعتز جيشاً عليه القائد سانكين، وكان أحد القواد ويدعى بندار على محله طريق خراسان وهم حراس الطرق فرغب ان يحظى بقتال الخوارج فتوجه بقوته حتى أشرف على معسكر الخوارج فوجدهم يقرأون القرآن فلم يهجم عليهم ليلاً وعندما أحس بهم الخوارج ركبوا خيولهم وتهيأوا لهم وفي صباح اليوم التالي دارت معركة هرب بعدها بندار فركبهم الخوارج يقتلونهم حتى قتلوا قائدهم بندار وسار الخوارج الى حلوان فقاتلهم أهلها حتى قُتل من أهل المدينة أربعمئة كما قُتل عدد من الحجاج من أهالي خراسان كانوا في طريقهم الى الحج ثم انصرف الخوارج عنهم^(٢)، ثم أرسل اليه جيش آخر عليه نوشري فلقية مساور واصحابه فهزمه وقتل العديد من أصحابه وذلك في سنة (٢٥٥) للهجرة وتوجه اليه قائد آخر يُدعى يارجوخ فهزمه الشاري ايضاً وعاد مفلولاً الى سامراء عاصمة الخلافة، وكان جند الخليفة قد أسروا عدداً من أفراد عائله مساور وجسوسهم في بغداد ولكن فتنة حدثت فيها أدت الى

(١) الدهاقين رؤساء القرى من الأعاجم .

(٢) الطبري ٥١٦ / ٧ - ٥٢٠ - ٥٣٥ - ٥٩٧، ابن الأثير ٧ / ٢٢٦ .

كسر باب السجن فخرج مع الفارين أهل بيت مساور.

وفي سنة (٢٥٦) للهجرة اختلف الخوارج بينهم كعادتهم فقد انشق المدعو عبيدة من بني زهير عن مساور وذلك بسبب حكم توبة المخطئ اذ ان رأي مساور في المخطئ تقبل توبته ولكن عبيدة رفض هذا الحكم وقال لاتقبل توبته فانقسما الى فريقين ونشبت الحرب بينهما فالتقيا في كحيل او نواحي جهينة قرب الموصل في سنة (٢٥٧) للهجرة واقتتلوا حتى عرقبوا دوابهم فقتل عبيدة وانهزم جمعه وقتل معظمهم.

وكان مساور قد استفحل أمره وعجزت جيوش الخليفة عن الحاق الهزيمة به وقد سيطر على أجزاء كبيرة من العراق وجبى الخراج حتى ضاقت على الجند أرزاقهم وكان موسى بن بغا وهو من كبار القواد قد سار اليه (قبل ان يختلف الخوارج) وذلك عام (٢٥٦) فالتقيا في خانقين فاستطاع ان يهزم الخوارج ولكن مساوراً استطاع النجاة وجمع اتباعه واستمر في العصيان، ووجه اليه الخليفة قائداً آخر هو مفلح ولكنه لم يستطع القضاء عليه، وفي سنة (٢٥٨) سار اليه القائد مسرور البلخي والتقيا في حديثة فأسر من الخوارج جماعة ثم التقوا ثانية في ناحية البوازي فلم تحسم المعركة ويبدو من سياق المعارك ان مساوراً كان يتبع سياسة عدم المواجهة والانسحاب وارباك الجيوش التي تعقبه وانهاكها وقد ساعدته ظروف الخلافة المرتبكة نفسها على الاستمرار حتى انضم اليه عدد من الأكراد فقد ذكر ان أحد رؤسائهم قد قتل محمد بن هارون بن المعمر وهو من رؤساء عشيره ربيعة حين وجده في زورق متوجه الى سامراء^(١)، وكانت حركة صاحب الزنج قد نجحت في جنوب العراق واربكت الدولة التي وجدت نفسها بين نارين وساعدت مساور على فرض سيطرته على شمال وشرق بغداد، وفي سنة (٢٦١) للهجرة استطاع مساور الشاري قتل القائد يحيى ابن خوص وهو المسؤول عن حفظ طريق خراسان فارسل اليه الخليفة القائد مسرور البلخي ثانية وتبعه أبو أحمد بن المتوكل

(١) الطبري ٨ / ١٦ / ١٨، ابن الأثير ٧ / ١٧٩.

ولكن مساوراً تنحى عنهم فلم يستطيعوا اللحاق به.

وكان الأتراك الذين أحكموا سيطرتهم على الدولة يتدخلون في كل أمورها وفي تلك الفترة استطاع موسى بن بغا ان يقتل الخليفة المهتدي ويعين غيره مما ساهم في انحلال الدولة اضافة للحركات التي اندلعت في كل مكان وخاصة في جنوب العراق، وكان هلاك مساور الشاري في سنة (٢٦٣) للهجرة فتولى ابنه أمر الخوارج من بعده وكان ابنه هذا هو السبب في خروج مساور اذ ان صاحب شرطة حديثة كان قد حبس ابن مساور ويدعى حوثة وكان جميلاً وسيماً فكان يخرج من الحبس ليلاً ويرده نهاراً فكتب الى ابيه رسالة يقول فيها (انا في النهار محبوس وفي الليل عروس) فخرج مساور مع جماعة وأنقذ ابنه ثم تصدى لجيوش السلطان وكان ابنه شجاعاً وكان يرتجز في الحرب^(١):

انا الغلام البجلي الشاري جوركم أخرجني من داري

وينبغي ملاحظة التفكك الذي طرأ على تشدد الخوارج وتعففهم عن السلطة اذ كان الرواد الأوائل كالراسبي وعبيدة بن هلال يعزفون عن تولي السلطة ثم صار الخوارج يولون ابناءهم كما كان يفعل ملوك الأمويين والعباسيين وقد تلاشى الدافع العقائدي الذي كان يتحكم في حركات الخوارج فلقد رأينا مساوراً يخرج غضباً لابنه، لقد استطعم الخوارج الرئاسة والإمرة وبذلك كسروا القاعده التي كانت تتحكم في اختيار ائمتهم والتي تنحصر في الشجاعة والقدرة على القيادة والنسك والتفقه في الدين.

ولقد انتهى ابن مساور الخارجي بعد ان توجه اليه القائد اسحاق بن كنداجيق الذي حارب الأكراد اليعقوبية وقضى عليهم وتفرغ للخوارج حيث لقيهم سنة (٢٦٦) للهجرة واستأصلهم^(٢)، الا أن ابن الأثير يذكر ان مساوراً مات سنة (٢٦٣) للهجرة فكتب أصحابه الى محمد بن خرزاد وهو بشهرزور يريدون مبايعته (وهو

(١) ابن الأثير ٧ / ١٧٤ .

(٢) الطبري ٨ / ٤٨ .

من الخوارج) فامتنع عليهم فبايعوا أيوب بن حيان، الا أن محمد بن خرزاد استدرك رأيه وكتب لهم انه لايسعه اهمالهم لأن مساوراً عهد له فقالوا له لقد بايعنا الرجل ولا يسعنا نكث البيعة فسار اليهم وقاتلهم فقتل ايوب بن حيان فبايعوا بعده محمد بن عبد الله بن يحيى المعروف بالغلام فقتل ايضاً فبايعوا هارون بن عبد الله الذي استمر في الخروج على الدولة واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها^(١)، وفي سنة (٢٦٧) للهجرة عادت الحرب بين هارون ومحمد بن خرزاد وكان هارون هذا يركب البقر لئلا يفر ويلبس الصوف ويرقع ثيابه ويجلس على الأرض كما كان كثير العبادة والنسك، فنزل واسط وهي قرية قريبة من الموصل^(٢)، فسار اليه اهلها يستقبلونه ثم التقوا في قرية شهرخ فانهزم هارون ثم جمع جمعاً آخر وكاتب أصحاب محمد ففارقوه ولم يبق معه الا عشيرته من الشمرلية من أهل شهرزور، وكان هارون قد دخل الموصل واستفرد بأهلها، ولكن الأكراد الجلالية استطاعوا قتل محمد فاستفرد هارون بالرئاسة على الخوارج، وانضم الى هارون حمدان بن حمدون وهو جد الأمراء الحمدانيين سنة (٢٧٩)، وخرج على هارون أحد الخوارج واسمه محمد بن عبادة ويعرف بأبي جوزه وكان فقيراً وله ابنان فحكّم وبني له حصناً في سنجار فهاجمه هارون واشتبكت الحرب بين الخوارج الى أن هرب محمد بن عبادة الى آمد حيث أخذه صاحبها أسيراً فسلخ جلده كما تسليخ الشاة وذلك في سنة (٢٨٠) للهجرة.

وكان حمدان الشاري قد حكّم قبل انضمامه الى هارون وساندته قبائل ربيعة وبكر وتغلب وقسم من عشائر اليمن فقاتلهم اسحاق بن كنداجيق وتبعهم الى نصيبين ثم الى قريب من آمد واحتوى على أموالهم وكانت بينه وبينهم معارك شديدة الا أنه لم يستطع القضاء عليهم وبعد انضمامه الى هارون ساروا جميعاً سنة (٢٧٢) الى مدينة الموصل فدخلوها وصلى بهم حمدان في مسجدّها، ولما كان اغلب الخوارج من بني شيان او ربيعة وكانت هذه القبائل معاندة طيله فترة

(١) ابن الأثير ٧ / ٣٠٩ - ٣٦٠ .

(٢) وهي ليست مدينة واسط التي بناها الحجاج والتي تقع في وسط العراق جنوبي بغداد .

حكم العباسيين لذا قرر الخليفة المعتضد مهاجمتهم، فسار بجيشه الى الجزيرة حيث معقل بني شيان فأوقع بهم وقتل منهم اعداداً كبيرة ولما هربوا منه سقط منهم في نهر الزاب عدد آخر فماتوا غرقاً واستولى الخليفة على أموالهم وغنمهم وإبلهم حتى عجز العسكر عن حمل ذلك وسبى النساء والذراري ثم سار الى الموصل وعاد منها الى بلد في طريقه الى بغداد فاستقبله بنو شيان يسألونه الصفح عنهم فأخذ منهم خمسمائة شخص كرهائن لئلا يثوروا عليه، ولكن هذه القسوة التي اتبعها المعتضد قد أدت الى تحالفات جديدة في منطقة الجزيرة والموصل فقد اتفق الأكراد مع العرب على الثورة ضد العباسيين، ولما بلغ المعتضد أن حمدان بن حمدون قد بايع هارون الشاري ودعا له على المنابر سار بجيشه متوجهاً مرة أخرى الى الموصل سنة (٢٨١) وكان قد أرسل جيشاً عليه القائد نجاح الحرمي الى الخوارج فجاءته الأنباء بأن نجاح قد أوقع بالعرب والأكراد وسبى وغنم منهم كما فعل هو في غزوته الأولى، وتوجه المعتضد قاصداً ابن حمدون وفي طريقه اصطدم بالخوارج ومن معهم من العرب والأكراد المتحالفين معهم ودارت بينهم معركة شديدة خسرها الخوارج وقد قتل فيها خلق كثير من الناس واستمر المعتضد في تقدمه حتى بلغ ماردين فتحصن حمدان بن حمدون منه في قلعة كانت هناك، فلما علم بوصول المعتضد هرب منها وترك ابنه حسين عليها فقاوم هذا جيش المعتضد يوماً واحداً ثم فتحت له القلعة سلماً فانتهب أموالها وارسل من يطلب حمدان بن حمدون حتى ظفر به وحبسه عنده.

الا أن حركة هارون الشاري استمرت مما اضطر المعتضد الى التوجه بجيشه للمرة الثالثة لمحاربتة وقد كان حسين بن حمدان قد انضم الى جيش المعتضد بعد القبض على أبيه واشترط على المعتضد عدة شروط منها اطلاق سراح أبيه ان هو قبض على هارون الشاري او قتله فاعطاه المعتضد ذلك ولما كان حسين بن حمدان خبيراً بطرق الخوارج التي يسلكونها فقد طاردهم ومعه ثلاثمائة فارس حتى ظفر بهارون الشاري وأسرهم وسلّمه للخليفة المعتضد الذي أخذه الى بغداد وادخله مشهوراً راكباً على فيل وهكذا كانوا يصنعون بالخارجين عليهم وانتهت بذلك

حركة هارون الشاري التي أشغلت الدولة فترة طويلة اضطرت الخليفة للتوجه بنفسه ثلاث مرات لمباشرة الحرب مما يدل على قوة ووسع هذه الحركة وخطرها على الدولة^(١).

وكانت هذه الفترة قد شهدت أيضاً نشاطاً واسعاً للخوارج في اليمن وعمان حيث استمكنت عقائدهم وكانوا ينتهزون الفرص للخروج على الدولة ففي سنة (٢٩٣) اجتمع أهل صنعاء وغيرها من مدن اليمن على خارجي تغلب عليها فحاربوه وهزموه فانحاز الى ناحية من نواحي اليمن وفي سنة (٢٩٥) استولى الخوارج على أجزاء من اليمن فقاتلهم المظفر بن حاج واستعاد بعض ما استولوا عليه وأسر أحد رؤسائهم ويدعى الحكيمي، وفي سنة (٣١٨) خرج في كفر توتا في العراق المدعو عزون محكماً فأسر الحسين بن حمدان وحمل الى بغداد على فيل ويدو أن حسيناً قد اختص بمحاربة الخوارج بعد ان كان منهم، وفي سنة (٣١٩) ادخل مفرج بن مضر الشاري الى بغداد مشهوراً بنفس الطريقة بعد ان أسر في طريق خراسان ومعه رجلان من أصحابه^(٢).



(١) الطبري ٨ / ١٧٢، ابن الأثير ٧ / ٤٧٦ .

(٢) الطبري ٨ / ٢١٤ - ٢٥٠ .

صاحب الزنج ونسبته الى الخوارج

وأما صاحب الزنج وهو الذي ظهر في البصرة سنة (٢٥٥) للهجرة واسمه علي بن محمد الذي انتحل نسباً علوياً ولكن معظم المؤرخين يشككون في صحة نسبه^(١).

وقد نسبه المسعودي منفرداً الى رأي الخوارج لما ظهر منه من سيرة تشابه عمل الازارقة من قتل واستعراض واستحلال للمحرمات كما ينقل ان صاحب الزنج لما هاجم البصرة ودخلها قائده علي ابن أبان المهلبى وأعطى الأمان لاهلها على ان يجتمعوا في داره والساحات المحيطة بها ثم سلط عليهم الزنج فقتلهم جميعاً حتى بلغ عدد القتلى ثلاثمائة ألف انسان وان علي ابن ابان بعد ان فرغ من القتل صعد المنبر في الموضع المعروف ببني يشكر وصلى الجمعة باصحابه وخطب لعلي بن محمد صاحب الزنج ترحم على أيي بكر وعمر ولم يذكر عثمان ولا علياً في خطبته ولعن ابا موسى الأشعري وعمر بن العاص ومعاوية وهذا ديدن الخوارج في خطبهم كما ان علي بن محمد خطب مرة فقال: «لا اله الا الله والله أكبر الله

(١) المسعودي في مروج الذهب يذكر (وأكثر الناس يقول انه دعي آل أبي طالب وهم ينكرونه) وابن أبي الحديد في الشرح ١٢٦ / ٨ يذكر (وأكثر الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبين).

أكبر ولا حكم الا لله»، وقد استدلّ بذلك على أن صاحب الزنج يدين بمذهب الخوارج^(١)، على ان بقية المؤرخين لا يؤيدون هذا الرأي، ومن خلال سيرة صاحب الزنج واسلوبه الذي اتبعه في جمع الانصار واختيارهم من عبيد الأرض الذين كانوا يكسحون السبخ في أراضي الجنوب العراقي والذين كانوا مسترقين يعيشون حياة بائسة ولا يجدون مايسد رمقهم غير حفنة من التمر والذين كانوا لا يستطيعون فك طوق الغل عن أعناقهم فبشّروهم بالحرية ودعاهم الى الثورة على أسيادهم واتباعه طوقاً في التبشير بدعوته لا تتناسب مع أحوال الخوارج كما أن اهتمامه بجمع الاموال، وتهاونه في الدين، وتركه اقامة الحدود، والسكوت عما يرتكبه قاداته من أعمال لا يقرها الخوارج، اضافة لانتحاله النسب العلوي رغبة في استمالة العامة فيمن هواهم في أهل البيت، كل ذلك يؤيد بُعد صاحب الزنج عن عقيدة الخوارج والاغلب ان علي بن محمد طالب سلطة عرف كيف يستهوي فقراء الناس ويخاطب مشاعرهم ويداعب أمانيتهم في تحريرهم من ربقة العبودية وجعلهم في مرتبة السادة بل ان صاحب الزنج كما ينقل أصحاب السير والمؤرخون جعل من أسيادهم السابقين عبيداً لهم وأباح لهم استرقاق النساء بما فيهن القرشيات والهاشميات وقد حاول في مسعاه استرضاء الفرق كافة وقد ساعده في ذلك معرفته وعلمه بالخط والنحو والنجوم وفصاحته وبُعد همّته وكما يحدد ابن أبي الحديد فان نفسه كانت تسمو الى معالي الأمور ولكنه لا يجد سبيلاً اليها، ويبدو أنه وجد ضالّته في هؤلاء العبيد المسترقين وكان الى جانب ذلك شاعراً مجيداً^(٢)، يستطيع أن يتلون حسب ماتمليه عليه مصلحته فمرة علوياً وتارة خارجياً، وسنذكر

(١) شرح النهج ٨ / ١٤٨ ، المسعودي ٤ / ١٩٤ .

(٢) ومن جيد شعره:

خرجنا وخلفناه غير ذميم
فمن ذا الذي من يبهن سليم

عليك سلام الله ياخير منزل
فان تكن الأيام أحدثن فرقة
وله أيضاً:

د، وما قد حوته كلّ عاص
ورجال على المعاصي حراص
أجل الخيل حول تلك العراص

لهف نفسي على قصور بيغدا
وخمور هناك تُشرب جهراً
لست بabin الفواطم الغرّ إن لم

هنا موجزاً عن ثورته ونهايتها.

يدعي صاحب الزنج ان اسمه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب اما أصحاب السير فيذكرون انه علي بن محمد بن عبد الرحيم من قبيلة عبد القيس وان أمه أسدية وأن أباه أحد الثائرين مع زيد بن علي على هشام بن عبد الملك فلما فشلت الثورة هرب فلحق بالري في قرية اسمها ورزنين وفيها ولد علي بن محمد ونشأ، وأخذ العلم في الري ثم في خراسان ثم غادرها الى البصرة وفيها قرأ وتأدّب ثم غادرها الى عاصمة الخلافة سامراء واتصل هناك - يؤهله شعره وأدبه - بحاشية الخلافة وخولهم وكان يقول الشعر يتكسّب به ويعلم الصبيان وكان ممن اتصل به غانم الشطرنجي وسعيد الصغير وبسر الخادم الذي كان خادماً للخليفة المنتصر ثم غادر العراق الى البحرين وهناك ادعى النسبة العلوية ودعا الناس في هجر الى طاعته فاتبعه خلق من الناس وعارضه آخرون، فجرت بين أتباعه وخصومه عداوة انتهت الى قتال اضطر بسببه الى الانتقال الى الاحساء، وكان أهل البحرين قد أحلّوه من أنفسهم محل النبي فجّبي له الخراج، إلا أنهم تنكّروا له لأشياء أنكروها فرحل الى البادية ومعه جماعة من أتباعه الذين اصبحوا قاداته فيما بعد ومنهم يحيى بن محمد الأزرق ويحيى بن أبي ثعلب وسلمان بن جامع الذي كان قائد جيشه في البحرين، وفي البادية ادعى انه يحيى بن (عمر العلوي) الذي ثار في زمن الخليفة المتوكل وقتل في زمن المستعين في الكوفة فأتيده جماعة من الناس زحف بهم على منطقة البحرين فلم

== وله:

إذا ما انتضينا ليوم سفوك
وأغمادهن رؤوس الملوك

وإنا لتصبح أسيافا
منابرهن بطون الأكف

وله:

ولم أقض منها حاجة المتورد
سراييل أبدان الحديد المسرد
تلين كما لانت لداود في اليد

ولما تبينت المنازل بالحمى
زفرت اليها زفرة لو جشونها
لرقت حواشيها وظلت متونها

شرح النهج ٨ / ١٢٧، كما وردت في معجم الشعراء ص ١٤٧ للمرزياني المقطوعة الثانية.

يوفق ففترق عنه أصحابه، عندها غادر البادية الى البصرة واستطاع هناك ان يكسب جماعة من أهلها منهم علي بن إبان المهلبى من ولد المهلب بن أبي صفرة، وفي سنة (٢٥٤) للهجرة حدثت فتنة في البصرة بين البلاية والسعدية فحاول صاحب الزنج استغلال الفتنة لصالحه فلم يوفق فهرب الى بغداد بعد ان قبض الوالي على زوجته وابنه ثم اقام في بغداد متنكراً سنة واحدة واستطاع استمالة قوم من أهلها وكان يدعي انه يعرف مافي ضمائر أصحابه وأن آيات تظهر له وأنه سأل ربه أن يعلمه حقيقة أمور كانت في نفسه فرأى كتاباً بالاجابة يكتب على الحائط...، ثم جاءته الأنباء ان الفتنة قد تجددت في البصرة وأن باب السجن قد كُسر واطلق سراح المحبوسين فيه وبينهم أهله وولده فغادر بغداد الى البصرة ونزل مع من تبعه في منطقة تسمى يرنخل في قصر القرشي ومن هناك انطلقت دعوته فأرسل رسله الى البصرة يدعو الناس الى بيعته، وفي أواخر رمضان سنة (٢٥٥) أعلن الثورة فنصب لواء كتب عليه ﴿أَن اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّٰه...﴾^(١)، وبدأ يضم الغلمان والعبيد الذين يكنسون السباخ واغلبهم من الزوج وكان قسم كبير منهم لا يعرفون العربية فقام فيهم خطيباً فمتاهم ووعدهم ان يُقَوِّدَهم ويرتسهم ويملكهم الأموال والضياع وحلف لهم بالآيمان المغلظة ألا يغدر بهم، وبعد أن ازداد عدد من انضم اليه بمحاربة جند السلطان.

لقد اختار صاحب الزنج لثورته مكاناً يصعب القتال فيه وتتحدد الحركة بشكل كبير وهذا المكان عبارة عن متاهات مائية تُدعى البطائح وهي عبارة عن مسطحات مائية تقع في جنوب العراق تكوَّنت على مرور الزمن من البثوق التي تحدث في دجلة والفرات وتبلغ مساحتها اكثر من عشرة آلاف كيلومتر مربع وفي نفس الوقت اختار مادة ثورته من المسحوقين الذين لم يعرفوا الشيع والذين كانوا يعملون طيلة النهار بلا أجر سوى غذاء لايسد الرمق والمحرومين من الحياة العائلية فلم يكن

(١) شرح النهج ٨ / ١٣٢، سورة التوبة الاية ١١١ وهذه الآية تدل على قرب علي بن محمد من فكرة الخوارج لأن اسم الشراه قد اقتبس منها.

يسمح لهم بممارسة الجنس حتى لاتستنفذ قواهم فكانت الأسباب مهياً لهم للقتال من أجل التخلص من هذه الحياة ولذا فقد وفق علي بن محمد في الاختيار مما يدل على ذكائه وبعد نظره.

في البداية لم يكن لدى الزنج اي سلاح ولكنهم استطاعوا الحصول عليه من جند السلطان وتدريباً اصبحوا قوة لا يستهان بها، فلما بلغ جمعه ستة الاف هاجم علي بن محمد البصرة ولكنه لم يستطع دخولها وهزم أصحابه فتشجع أهل البصرة وساروا اليه في عدد كبير عليهم المدعو حماد الساجي وكان هذا من غزاة البحر له علم ومعرفة بركوب الشذا^(١)، ولما علم صاحب الزنج بمسير أهل البصرة اليه اكمن لهم الكمائن على ضفاف النهر فلما توغلوا هاجمهم وظهرت لهم الكمائن، فانهمز أهل البصرة شر هزيمة وقتل عدد كبير منهم وغرق الآخرون فلم ينج منهم الا القليل وكان عدد كبير منهم من النضارة قد خرجوا ليتفرجوا على الحرب ولم يكونوا بأهل قتال فقتلهم فضولهم، وقام علي بن محمد بقطع رؤوس من قتل وملاً بها السفن ثم أحدرها جنوباً الى البصرة ففرغ الناس فرعساً عظيماً وسكن الرعب في قلوبهم.

توسعت بعد هذه المعركة حركته وانضمت اليه أعداد كبيرة من الزنوج وغيرهم وبدأ بارسال قواده الى المناطق المجاورة، وقد روى المؤرخون حادثة لها مغزى اذ جاءه شخص يهودي يعرف بـ«مارويه» فقبل يده وسجد له وسأله عن مسائل كثيرة فأجابه عنها فزعم اليهودي أنه يجد صفته في التوراة وأنه يرى القتال معه ثم سأله عن علامات في يده وجسده ذكر انها مذكورة في الكتب^(٢)، وهكذا نرى ان الاصابع اليهودية قد انسلت الى هذه الفتنة وحاولت استغلالها بمزاعم واهية وكأن التوراة كتاب سرّي أو طلاس لا يستطيع تفسيرها الا اليهود.

ثم جرت بين صاحب الزنج وجند السلطان وقعات عديدة الى ان استطاع علي

(١) الشذا: واحداً شذاه وهي ضرب من السفن.

(٢) شرح النهج ٨ / ١٤١ .

بن محمد الوصول الى الابلّة في البصرة فاحرقها وقتل خلقاً كثيراً. لقد كانت الخلافة ضعيفة وكان الأتراك الذين فرضوا سيطرتهم يخلعون من يشاءون وينصبون اخرين لذا فإن مقاومة جدية من السلطنة المركزية لم تكن ممكنة ولقد شجع ذلك صاحب الزنج الذي وفق ايضاً في اختيار الزمان المناسب لثورته في التفكير بمهاجمة البصرة، ففي سنة (٢٥٧) للهجرة هاجم البصرة بكثافة واستطاع قائده علي ابن ابان المهلبي وهو من أهلها دخولها فاتحاً بعد قتال استمر يومين فوضع السيف في أهلها وأحرق المنازل والاسواق بالنار ولكي يتوج فتحه فقد امر مناديه بأن ينادي بالأمان لأهل لابصرة الذين هربوا او اختفوا خوف القتل، فاجتمعوا حتى ملأوا الأزقة والسكك ثم سد عليهم المنافذ وأمر بقتلهم جميعاً وانتشر الزنج يقتلون كل حي يمرون به ويحرقون المنازل والمساجد فاخذت النار كل ما مرت عليه من انسان وبهيمة وأثاث ومنازل^(١)، فقتل في ذلك اليوم زهاء ثلاثمائة الف انسان حسب رواية المسعودي في مروج الذهب، فلما بلغت اخبار هذه المجزرة الخليفة المعتمد اهتم وجداً، وجهاز جيشاً كبيراً حسن العدة والعدد وجعل عليه اخاه ابا أحمد بن المتوكل وكان ابو احمد هو الخليفة في الحقيقة وان كان اخوه المعتمد هو الخليفة الرسمي، وكان اتباع صاحب الزنج قد بلغوا ثمانمائة الف معظمهم من المقاتلين وقد بنى المدن والقلاع وسيطر على عبادان والأهواز وجبي له الخراج وقوي أمره فصار اليه جيش الخليفة وجرت بينهم وقعات عظيمة وقاسية بسبب صعوبة القتال لوجود المستنقعات والأنهار وضيق مجال المناورة والقتال وكان النصر في أغلب هذه المعارك لجند السلطان، وكانت المنطقة التي يتحصن فيها صاحب الزنج وجيشه منيعة اذ تمر فيها عشرات الأنهر الصغيرة وهي اما مزروعة بالنخيل او آجام واعشاب طويلة تصعب الحركة فيها وينعدم الرصد وقد حدث صدفة أن ناراً شبت في مسكر أبي احمد فاحترق المعسكر باجمعه مما اضطره الى الانصراف الى سامراء عاصمة الخلافة، فعادت امور صاحب الزنج قوية

(١) شرح النهج ٨ / ١٤٦ . اسم النصارى قد اقتبس من كتاب ٨١ / ٢١ وهذا (٢)

وبنى مدينة عظيمة سماها «المختارة» على نهر أبي الخصيب وحصنها بالخنادق حتى صارت تضاهي سامراء وبغداد^(١).

ولما توسعت حركة صاحب الزنج واصبحت تهدد ملك بني العباس تحرك الخليفة العباسي الموفق بنفسه الى حربه وارسل ابنه ابا العباس امامه وكان أكبر نصر حققه جند الخليفة عند تقدمهم أن فتحوا مدينة «المنيعة» التي بناها أحد قادة صاحب الزنج عند الموضع المعروف بسوق الخميس وقد حرر الخليفة خمسة الاف امرأة من الأسر، واتبع الخليفة سياسة اغراء قواد الزنج والعفو عنهم فاستسلم اليه عدد كبير منهم وسار الخليفة بجيشه من واسط نحو الأهواز التي اخلاها الزنج على عجل فغنم فيها غنائم كبيرة ساعدته في حربه، ثم بدأ بمهاجمة حصن صاحب الزنج في المختارة بعد ان ضيق عليهم الحصار ومنع عنهم الميرة وكانت تجري بينهم وقعات كبيرة حتى اضر بهم وسد عليهم المسالك واسر اعداداً كبيرة وكان الاسير يسأل عن اخر عهده بالخبز فيقول منذ سنة أو سنتين حتى أكل الزنج دوابهم فلما نفذت أكلوا الاطفال والموتى ثم أخذ بعضهم يأكل بعضاً اذا انفردو به، واصيب أبو أحمد في هذه الأثناء بسهم فبقي الى ان شفي من علته ثم باشر الحرب فحرب سور المدينة ودخلها جنده عدة مرات ثم انسحبوا منها في عمليات كر وفر سببت خسائر كبيرة، وكانت اعداد كبيرة من الزنج قد فرت وانضمت الى جيش الموفق الذي قرر العبور الى شرقي نهر أبي الخصيب ومهاجمة المدينة وكان جيشه قرابة خمسين ألفاً ثم انظم اليه في سنة (٢٧٠) للهجرة لؤلؤ صاحب ابن طولون مع جيشه وكان لؤلؤ يلي امر الرقة وديار مضر ووافت الموفق نجيدات أخرى فعظم جيشه فبدأ الهجوم النهائي فأطبق على مدينة المختارة من كل الجهات ثم دخلها بعد مقاومة شديدة ودارت في داخل المدينة حرب شوارع قتل فيها الكثير حتى قتل علي بن محمد صاحب الزنج فحمل رأسه على قناة واسر عدد من قاداته الا أن ابنه (انكلاي) استطاع الفرار ولكن المسعودي يذكر ان صاحب الزنج اسر فسلمه الموفق

(١) شرح النهج ٨ / ١٦٤ .

الى ابنه أبو العباس وأمره بتعذيبه فجعله (كردناجاً) على النار^(١) حتى مات، ثم اسر ابنه انكلياي فيما بعد وعدد من القادة فحبسهم الموفق في واسط حتى سنة (٢٧٢) حيث تحرك الزنج فيها وهتفوا «يا انكلياي يامنصور» فأمر الموفق عندئذ بقتلهم جميعاً فانقطعت حركة صاحب الزنج، ويذكر ان قرمط صاحب القرامطة قد سار الى صاحب الزنج وقال له: اني على مذهب ورأي ومعني مائة الف ضارب بالسيف فتناضرنني فإن اتفقنا على مذهب ملت اليك بمن معني وان تكن الأخرى انصرفت عنك، فتناظرا واختلفت اراؤهما فانصرف قرمط عنه^(٢).

ولم تبرز للخوارج حركات كبرى بعد حركة صاحب الزنج (اذا جاز لنا أن نعتبر اراء بعض المؤرخين في أن حركة الزنج هي من حركات الخوارج) في العراق وبلاد الشام والجزيرة التي اصبحت مهذاً لعقائدهم وان استمرت بين الحين والحين ولكنها لم تكن مؤثرة كالذي خرج في ديار ربيعة على بني حمدان في سنة (٣١٨) وهو المعروف بعرون والذي ورد الى نصيبين فكانت له مع أهلها حروب اسر فيها وقتل خلقاً عظيماً وكذلك ابي شعيب الذي خرج ببني مالك وغيرهم من ربيعة وقد كان أدخل على المقتدر بالله الخليفة العباسي، واستيلاء الاباضية في سنة (٣٢٠) على عمان وتنصيبهم اماماً لهم ومن ثم قتله وقتل من معه^(٣)، وفي سنة (٤٤٢) استولى الخوارج الاباضية على عمان ايضاً بقيادة ابن راشد بعد حروب بينه وبين الأمير ابي المظفر ابن الملك أبي كاليجار وكان أن أسر المظفر وانهزم الديلم الذين كانوا يشكلون معظم جيشه، وكان ابو راشد قد خطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله وأخرب دار الامارة وأظهر العدل في سيرته ولبس الصوف، وكان ابو راشد قد تحرك قبل هذا ولكن الأمير آنئذ وهو أبو القاسم بن مكرم منعه وحصره^(٤).

- (١) الكردناج: معناه الكباب او مايشبهه، شرح النهج ٨ / ٢١١ .
- (٢) ابن الأثير ٧ / ٢٠٥ وما بعدها - ٢٣٥ وما بعدها - ٢٤١ وما بعدها - ٢٥٢ - ٢٥٩ - ٢٧٧ - ٢٩٢ - ٣٠٧ - ٣٢٢ - ٣٢٩ - ٣٣٨ - ٣٦٤ - ٣٧٤ - ٣٩٩. ثورة العبيد في الاسلام ٣٧ - ٥٦ - الطبري ٩ / ٤١٤ . ثورة الزنج، فيصل السامر ٥٠ وما بعدها.
- (٣) المسعودي ٣ / ١٣٩ .
- (٤) ابن الأثير ١٩ / ٥٦٦ .

الخوارج في افريقيا

التطور الفكري والفلسفي

لقد انتقلت عقيدة الخوارج الى افريقيا مع قوات الفتح وقد تبناها اقوام هناك منهم البربر وقد تمكنوا من اقامة دول لهم في شمال افريقيا كدولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة من عام (١٤٠) هـ لغاية (٢٩٧)، ودولة بني رستم الاباضية في تاهرت من عام (١٥١) هـ لغاية (٩٨٧) هـ وقد تأسست هذه الدول على مبادئ وقيم الخوارج خاصة في عهد المؤسسين عيسى بن يزيد في دوله بني مدرار وعبد الرحمن بن رستم، ثم تحولت هذه الدول تدريجياً الى الاقبال على الحياة واكتناز الأموال وتوارث السلطة حتى اتخذوا لهم القاباً على غرار الخلفاء العباسيين فاخفتى بذلك الأثر الفكري لعقائدهم وقد انقرضت الدولة الرستمية بتغلب الشيعة عليها وأعاد الفقيه أبو عبد الله محمد بن بكر في اواخر القرن الرابع الهجري تنظيم الخط الفكري للأباضية فحرره على شكل قانون ثم طبقه تطبيقاً كاملاً وقد اضاف الى هذا القانون من تأخر من علمائهم بنوداً اخرى حتى صار نموذجاً فذاً في التربية والتعليم والسيرة الصالحة ومن هؤلاء العلماء أبو زكريا يحيى بن بكر وأبو عمار عبد الكافي وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاني^(١)، ولما لم تكن حركات الخوارج

والاعمال السداد الأعظم قال يد الله مع الجماعة ولا يملك القرينة وإن الشاة من الناس

(١) بحوث في الملل والنحل ٥ / ٣٠٠. لا من دعا الى هذا الشعار يقتلوه ولا

حركة الخوارج..

التطور الفكري والفلسفي

قبل الخوض في صلب عقيدة الخوارج وبعد ان الممنا بقصه نشوء هذه الفرقة وتطورها التاريخي لابد من ذكر نص خطبة للامام علي(ع) والتي تصور بشكل جامع نظرته الى هذه الفرقة، فلقد خاطبهم قائلاً «فإن ايتم الا ان تزعموا أنني اخطأت وضللت فلم تضللون عامة أمة محمد(ص) بضلالي وتأخذونهم بخطيئي وتكفرونهم بذنوبي، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقيم وتخلطون من أذنبي بمن لم يذنب وقد علمتم ان رسول الله(ص) رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما الفيء ونكحنا المسلمات فأخذهم رسول الله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الاسلام ولم يخرج اسماءهم من بين اهله، ثم انتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه وسيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب الى غير الحق ومبغض مفرط يذهب به البغض الى غير الحق وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فالزموا والزموا السواد الأعظم فان يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما ان الشاذ من الغنم للذئب، ألا من دعا الى هذا الشعار فاقتلوه ولا

كان تحت عمامتي هذه فإنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن واحياؤه بالاجتماع عليه وإماتته بالافتراق عنه فإن جرننا القرآن اليهم اتبعناهم وان جرهم الينا اتبعونا فلم آت - لا أبأ لكم - بجرأ ولا ختلتكم عن امركم ولا لبسته عليكم، ثم اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين اخذنا عليهما ان لا يتعديا القرآن فتاها عنه وتركنا الحق وهما يبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما بالحكومة بالعدل والصمد للحق سوء رايهما وجور حكمهما^(١).

لقد صورت هذه الخطبة تصويراً دقيقاً الأخطاء التي وقع فيها الخوارج منذ بدء التحكيم والتي اصرروا عليها وتطرفوا فيها حتى اخرجهم تطرفهم عن جادة الصواب رغم ما يظهر عليهم من تمسك بالشرعة وتشدد في العبادات ونسك واضح في امور الدنيا، والخوارج الذين اصرروا على نهجهم الفكري الذي التزموا به وحاربوا من اجله ابتداء من معركة النهروان مروراً بالدولة الأموية والعباسية لم يضعوا نظرية متكاملة او حتى واضحة المعالم لهذا النهج وكان الأمر البارز في تمييز فرقتهم قواسم مبدئية بسيطة لم ترق الى ما اعتمدته الفرق الاسلامية الأخرى من سنة وشيعة ومعتزلة من انشاء فكر متميز في كل الاتجاهات بما يحقق تصور هذه الفرق في نظرتها السياسية والدينية مع الدخول في ادق التفاصيل في أمور العلوم الرئيسية، ورغم ان حركات الخوارج استمرت مئات السنين الا أن ما وصل اليها من نظريتهم - اذا استثنينا الاباضية - لا يتعدى - القواسم المشتركة التي تناثرت في خطبهم ورسائلهم القليلة، ولعل السبب في ذلك يعود الى عدم استقرار حركة الخوارج واتباعهم نهج السرية في نشر عقيدتهم في المدن بسبب حالة الخوف الدائم التي كانوا يعيشونها لأن الدول كانت وعلى طول الزمن ضدهم الى الحد الأقصى ولم يكن هناك أي مجال للتسامح معهم ولأن الخوارج اعتمدوا منذ البداية اسلوب الكفاح المسلح اذا جاز التعبير فإنهم اهتموا الجانب الفكري الذي هو

(١) شرح النهج ٨ / ١١٢. لعل من اللائق هنا ان نذكر ان هذه الخطبة هي من خطب الخوارج في عهد علي بن أبي طالب.

الجزء المكمل للعمل السياسي، إذ أن الكفاح المسلح ليس الا اسلوباً للعمل للوصول الى تطبيق التصور الديني والسياسي الذي كانوا يسعون اليه، ولعل هناك اسباباً اخرى في القصور الفكري اهمها ان المجتمع الاسلامي ومنذ البداية كان معبأً بكل مذاهبه ضد هذه الفرقة كما أن نشوء هذه لفرقة في العراق - وأهله شيعة علي(ع) - قد ساهم في بقاء النضوج الفكري لهم، لقد ركز الخوارج اهتمامهم على العمل العسكري الذي انعكس على اختيارهم لقاداتهم فكانت اجادة فنون القتال والشجاعة والاندفاع اهم الصفات التي يشترطونها فيهم وكانت الانقلابات المستمرة في صفوفهم والانقسامات عاملاً آخر في اهمال الجانب الفكري لديهم.

لقد كانت الدول المتعاقبة تفرض تعتيماً على أفكار الخوارج لانها كانت تعتبرهم الخطر الأول الذي يهددها وقد رافق التعتييم تشويه ومبالغة استطاعت أن تتسلل الى عقول الناس وان تجعلهم ينظرون الى الخوارج باستمرار نظرة الخوف والشك والريبة مما ساهم في عزلتهم وبالتالي عدم انتشار مذهبهم كما حدث للمذاهب الأخرى مما أدى في نهاية المطاف الى اضمحلالهم كحركة فكرية فيما عدا الاباضية.

ومن خلال اقوال الخوارج وخطبهم وما نقله التاريخ من اعمالهم يمكن ان نتلمس الخطوط الاساسية لفكرهم. وفي البداية لا بد من القول ان اسماً ممن صحب رسول الله(ص) لم يظهر مع الخوارج في بدء حركتهم بل ان من بين من حاربهم في بدء دعوتهم العديد من اصحاب رسول الله(ص) وخاصة في النهروان كأبي ايوب الأنصاري، وغيره وقد كان جل من ساهم في نشوء حركة الخوارج من الأعراب الذين دخلوا الدين وتحمسوا له وتمسكوا بتعاليمه وان لم يتفقوا فيه بما فيه الكفاية او يصحبوا الرسول(ص) الذي هذب وصقل صحابته وحمله رسالته مما يعني ان اندفاع هؤلاء كان سطحيّاً بدون فهم المعاني السامية لتعاليم الدين واحكامه، لم يك مع الخوارج انصاري ولا مهاجر واحد وهذا يعطي مؤشراً مهما في طبيعة الطبقة التي التزمت أفكار الخوارج وقد كان فيما يبدو ان للاحاديث النبوية المستفيضة في ظهور الخوارج ووصفهم بالمارقين دوراً مهماً في ابتعاد الكثيرين عنهم وان حاولوا ابعاد هذه الصفة عنهم وادعاءهم ان الاحاديث تعني غيرهم الا

ان الرأي العام قد اقتنع انهم هم المقصودون بهذه الصفة. ان البيئة التي عاش فيها هؤلاء الأعراب الذين شكلوا معظم الخوارج، بيئة قاسية هي بيئة الصحراء وقد انعكست على حديثهم وتطرفهم ولم تستطع الفترة القصيرة من سكناتهم في المدن واحتكاكهم بالمسلمين الأوائل ان تحدّ من طبيعتهم الحادة المتطرفة والمتقلبة الأهواء. ولا شك أن اسلامهم بعد الشرك والجاهلية قد جعلهم يتلهفون الى المعرفة التي فتحت ابوابها لهم فحفظوا القرآن وصارت منهم طبقة تعرف بالقراء ولكن تفسيرهم للقرآن كان ظاهرياً فلم يتعمقوا في معانيه اذ انهم لم يواكبوا النزول ولم يصحبوا الرسول، لقد خلق منهم الاسلام مقاتلين اشداء مندفعين للشهادة بشكل يثير الاعجاب والثناء في ان واحد فقد طعن احدهم برمح فمشى الى قاتله فضربه حتى قتله وهو يقرأ ﴿وعجلت اليك ربي لترضى﴾^(١).

وكانت قمة المأساة ان هذا الاندفاع لم يوجه الى نشر الاسلام الوليد فدفعه التطرف والتأويل نحو المسلمين ضارين عرض الحائط بنصوص القرآن نفسه واحاديث الرسول فعملوا فيهم قتلاً وكفروهم واستحلوا دماءهم محطمين في نفس الوقت املهم السياسي وهدفهم الديني.

ولابد من الاشارة ان الخوارج لم يخالفوا لغرض دينوي وانهم كانوا متمسكين بشكل قاطع بالتعاليم العبادية للاسلام خاصة عند اوائلهم ولكن الشك يدور حول ايمانهم فهم قد أسلموا وحسب ولم يدخل الايمان قلوبهم لأن الايمان لا يمكن ان يؤدي الى القتل وسفك الدماء التي حرمها الله.

ان حركة الخوارج الفكرية بدأت حول كلمة (لاحكم الا لله) وهو موقف سياسي - ديني وقد تطور موقفهم ورأيهم مع تطور الأحداث السياسية وهنا نتساءل هل كان يمكن لهذه الحركة أن تتطور لو أن الامام علي(ع) رفض التحكيم وأصرّ على الرفض أو انهم لم يصروا على القبول في البداية والرفض في النهاية. بعد ان انتهت فترة خلافة الامام علي(ع) وبها انتهت الخلافة الراشدة وجاءت

(١) سورة طه الاية ٨٤، شرح النهج ٢ / ٢٨٢ .

دولة اخرى تختلف في كل شيء عن سابقتها كانت دولةً لأمويين دولة السياسة والملك وليست دولة القرآن واحكام السنة ولقد ساهم الخوارج بشكل فعال ومباشر في انتاج هذه الدولة وإن لم يقصدوا ذلك ومع هذا كانوا في طليعة من حاربها ونصب لها العداء فكانت حركاتهم العسكرية منذ الأيام الأولى لتولي معاوية بن أبي سفيان سدة السلطة ولكن الخواء الفكري والسياسي كان السمة البارزة لحركاتهم فلم يكن لهم منهج سياسي او اهداف واضحة كما ان مذهبهم الديني لم يتجاوز بعض الأسس التي احلوا بها مقاتلة الأمة ولقد كان الهم القاتل للخوارج هو الخوف من القعود عن محاربة الحاكم الظالم، او البقاء بين ظهرائي المسلمين الذين اعتبروهم كفرة لايجوز التعامل معهم لذا فقد كانوا في مراحلهم الأولى خاصة يستعجلون الخروج حتى لو كانوا اربعين رجلاً أو أقل من ذلك ثم يقاتلون أول من يلقاهم حسب الآية الكريمة ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾^(١)، وقد يقتلون بصمت فتنتهي حركتهم حتى يقوم منهم اخر وهكذا فهم لم ينتظروا يوماً تكامل دعوتهم الفكرية وخلق القاعدة الملائمة او توجيه الخطاب الفكري للملائم الذي يهيء القاعدة وقد ارتكبوا اخطاء جسيمة ادت الى كسب العداء الشعبي من خلال اعتبار كل القاعدة التي كان ينبغي عليهم كسبها الى جانبهم باعتبارهم يجاهدون ان صح التعبير لصالحها ولكنهم بدلاً من ذلك استحلوا قتل من ليس على ملتهم بل استحلوا قتل النساء والأطفال، بل أوغلوا في استعداء المجتمع من خلال استثارته الى الحد الأقصى اذ اعتبروا النصارى وهم (أهل الذمة) من أهل الكتاب واستنوهم من القتل وفي نفس الوقت اعتبروا المسلم كافراً لايقبل منه الا الاسلام في رأيهم أو الحرب كما أنهم باستحلالهم عدم الوفاء بامانة المسلم قد بلغوا منتهى التطرف وهذا ادى في النهاية الى ان يندفع المجتمع الذي كان متحفظاً في البداية الى محاربتهم دفاعاً عن النفس والعرض والمال، ولقد تناسى اهل العراق عداءهم لدولة بني أمية وأنها الأولى بالمحاربة لعدم شرعيتها وظلمها وجورها، لقد حرّض الخوارج الشعب على

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

محاربتهم فلم يكونوا يمتلكون رؤية سياسية واضحة ولم تكن لهم سياسة مرحلية او استراتيجية.. لقد كانوا في حركاتهم بدائيين لا يطلبون الا الموت الذي اعتبروه استشهاداً.

كان موقف الخوارج في البداية مبنياً كلاً على رفض التحكيم الذي وافق عليه الامام بعد أن اجبروه على ذلك وبعد سلسلة من التقلبات في المواقف وتدخل قوى خفية ومؤامرات تعنت الخوارج في موقفهم بدون مبرر شرعي او سياسي وهكذا تكونت مجموعة لها رأي حول قضية معينة حاولوا بعد اصرارهم عليه ان يطوروه فكرياً وكان للأشهر الأولى من بدء حركتهم وخاصة عند تواجدهم في معسكرهم في حروراء دور في خلق منهج فكري بدأ يتعد تدريجياً عن الأكثرية في نظرتها الى الاسلام وتعاليمه. في البداية كان الخوارج يعتقدون بعدم حتمية وجود امير او امام وهذه كانت بذرة الفوضوية الحديثة الا انهم احسوا بعد فترة بأنهم بحاجة الى قائد في الحرب وامام للصلاة وحل المنازعات وبحاجة ايضاً الى اسلوب واضح لتولية هؤلاء حتى لو كان بسيطاً فلقد قال رجل منهم «ولو رجلا منكم فإنه لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون اليها»^(١)، فتم اختيار عبد الله بن وهب الراسبي وكان اختيارهم حراً بالانتخاب المباشر بعد ان اجمع رأيهم عليه وكانت هذه ظاهرة لم تكرر في التاريخ الاسلامي وحتى ان الخوارج - فيما بعد - اهملوا هذه القاعدة عندما اصبح تولي الامرة وراثياً تحت ذرائع مختلفة ويمكن تلمس ذلك في حالة مساور الشاري الذي ولى ابنه بعده.

ومن خلال تولية ابن وهب اختلف الخوارج في مسأله الامامة عن السنة الذين يشترطون ان يكون الامام قرشياً وعن الشيعة الذين حددوا الامامة في آل البيت وفي ذرية الحسين(ع)، ومن خلال الحاجة المرحلية وبسبب الحرب التي كان يخوضها الخوارج فقد كانت اسسهم في اختيار الامام تتلخص في القدرة على القيادة الحربية والشجاعة اضافة الى التمسك بالدين والتفقه فيه فقد حاول الخوارج

(١) ابن الأثير ٣ / ٣٣٥ .

انتخاب عبده بن هلال بعد مقتل قائدهم الزبير بن علي الا أن عبدة قال لهم «ألا ادلكم على من هو خير لكم مني، من يطاعن في قبل ويحمي في دبر..» مشيراً الى قطري بن الفجاءة، وقد جعلت حالة الحرب التي يخوضها الخوارج مسألة تبديل الامام امراً ميسوراً فهم بحاجة دوماً الى الأقدر عسكرياً وكان هذا النظام المرن والذي يحتاج الى كثير من الانضباط يحمل في طياته مخاطر مهمة فقد يتاح - كما حدث مراراً - لأي فرد منهم أن يطعن في الامام في اللحظات الحرجة ويحدث خلافاً في صفوف الخوارج، فهم لم يستطيعوا ان يوازنوا بين حاجاتهم الحرية وبين وضع منهج لحركة سياسية تطمح في ان تكون بديلاً للدولة، ولم يكن يبدو عليهم انهم يتوقفون كثيراً عند مسائل هامة فكرية وتنظيمية لازمة لحركة كبيرة مثل حركتهم وقد سبب لهم ذلك في النهاية مشاكل واختلافات عديدة، ويذهب العديد من المؤرخين الى ان الخوارج هم اول من ابتدع النظام الجمهوري في العالم الاسلامي وانهم مارسوا الديمقراطية في الانتخاب وان كانت هذه الميزة قد انتهكت كثيراً فيما بعد اذ لم يكن لها ما يحميها من نظام او دستور او نهج فكري راسخ، لقد كان فقه الخوارج عبارة عن خطوط عامة فهم لم يتعمقوا في علوم القرآن والحديث ولم يهتموا ادنى اهتمام بعلم الكلام او الفلسفة اذ ليس في تراثهم ما يدل على ذلك ومن خلال ممارستهم للحياة اليومية وتعقيداتها كانت المشاكل تحل حسب اجتهاد الامام او تأويله وكثيراً ما كان يظهر من يعارض افكار الامام فيحدث الخلاف، ويمكن تلخيص معتقدات الخوارج بشكل عام بانكار مبدأ التحكيم وتكفير الامام علي(ع) والخليفة عثمان ومعاوية وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وتكفير كل من رضي بالتحكيم او بأعمال عثمان وكان هذا قاسماً مشتركاً بين الخوارج الى أن حدث الاختلاف بينهم كما ذكرنا ففرقوا وكانت فرقة الأزارقة التي اتبعت نافع بن الأزرق قد غلت وتطرفت بما لا يقبله العقل والفطرة الانسانية والواقع ان هذه الفرقة التي استلمت زمام المبادرة في بداية امر الخوارج وتولت فعلياً قيادة الحركات العسكرية التي قامت في البصرة والأهواز وسواد العراق قد اساءت اساءة بالغة الى قضية الخوارج وسببت بأعمالها ابتعاد

الناس عنهم وذلك بسبب اصرارهم على محاربة المجتمع وتكفيره ويمكن الاستنتاج ان غاية هؤلاء لم تكن اقامة دولة بديلة اذ كيف تقوم دولة على تكفير كل من فيها واستحلال دمائهم.

لقد كانت افكار الأزارقة تقوم على:

أ - ان دار الاسلام هي دار كفر لذا يحل قتل كل من خالفهم واعتبار المسلمين كمشركي العرب لاتقبل منهم الجزية وانما هو الاسلام أو الحرب.
ب - تكفير القعدة من الذين يحملون افكار الخوارج ولكنهم لا يخرجون بالسيف.

ج - استحلال الغدر بالعهد وان لازمة لمشرك ولا امانة.

د - استحلال قتل الاطفال.

هـ - عدم جواز التقية في القول والعمل.

و - تحريم الاقامة بين ظهراي المسلمين وتحريم اكل ذبائحهم او مناكحتهم او الصلاة بامامة أحدهم..

ولقد كانت النجديه اقل تطرفاً من الأزارقة وكانت فرقههم الثلاثة التي انقسموا اليها مبنية على مخالفتهم لابن الأزرق كما توضح رسالة نجدة بن عامر الى ابن الأزرق، كما ذكرناها انفاً ومجمل عقيدتهم ان الدين امران احدهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين (أي الخوارج) والاقرار بما جاء من الله جملة، والجهل به لا يعذر عليه والأمر الثاني ان ماسوى ذلك فالناس معذورون فيه الا أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام كما جؤزوا التقية وتعزيز القاعدين من الخوارج الذين لا يستطيعون خروجاً وحرماً قتل النساء والأطفال وأحلوا الوفاء بالعهد والامانة للمخالف اضافة الى أن رأيهم بالتحكيم مشابه لرأي الأزارقة اما البيهسية من الخوارج فلم يكن لهم اصول واضحة غير ما جاء على لسان ابو يهس عندما قال بغلو نافع وتكفير وتقصير ابن اباض وتكفيره وقوله في وصف المسلمين انهم (كفار بالنعم)، كان أبو يهس قد اتخذ موقفاً وسطاً اذ قال باستحلال الاقامة

بين اعدائهم (أي المسلمين كما فعل المسلمون الأوائل باقامتهم بمكة وان احكام المسلمين تجري عليهم وان مناكتهم وموارثهم تجوز لانهم منافقون يظهرون الاسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين.

الاباضية

في الواقع ان كل فرق الخوارج قد افترشت ولم يكتب لها البقاء ولم يبق الى يومنا هذا سوى فرقة الاباضية بسبب بعدها عن التطرف وقربها في فكرها الذي من الفرق الاسلامية الأخرى رغم وجود الاختلافات ولقد اتاحت الظروف الموضوعية لاتباع هذه الفرقة لانضاج فكرهم وتشليله والاقتراب من الفكر الاسلامي العام بسبب من الاستقرار النسبي ووجود الأرحية المناسبة التي قامت لها المجال للنمو ومن ثم لتطعيم فكرها بما يختلف الى حد بعيد عن فكر الفرق البائدة التي لم تكن فكرها متباً الا على اوجهات اتجهت في معظم الأحوال للحلقات والانقسامات وذلك لأن الاساس الفكري الأول للخوارج كان هنا يحيط به الشكوك عند بدء دعوتهم الى التحكيم ورفضه.

لقد استطاع الاباضية تكوين دولة على اساس مقاصدهم الفقهي وقد استمرت دولتهم الى يومنا هذا فالنذهب الرسمي في عمان هو المذهب الاباضي كما ان هناك اتباعاً لهذا المذهب في شمال افريقيا بعدد غير قليل من ابااض المقاصدي المزي الشيعي من بني مرة بن عبيد بن مقاض وأسس الاباضية واليه ينسبون وقد عاش حتى زمان عبد الملك بن مروان وقد ذكرنا خروجهم مع نافع بن الأزد وخبره في مكة ثم خلافه مع نافع بسبب مسألة تكفير المسلمين، إذ ان ابن اياض يرى انهم

الاباضية

في الواقع ان كل فرق الخوارج قد انقرضت ولم يكتب لها البقاء ولم يبق الى يومنا هذا سوى فرقة الاباضية بسبب بعدها عن التطرف وقربها في فكرها الديني من الفرق الاسلامية الأخرى رغم وجود الاختلافات ولقد اتاحت الظروف الموضوعية لاتباع هذه الفرقة لانضاج فكرهم وتشذيبه والاقتراب من الفكر الاسلامي العام بسبب من الاستقرار النسبي ووجود الأرضية المناسبة التي اتاحت لها المجال للنمو ومن ثم لتقديم فكر خاص بها يختلف الى حد بعيد عن فكر الفرق البائدة التي لم يكن فكرها مبنياً الا على ارهاصات انتجت في معظم الأحوال الخلافات والانقسامات وذلك لأن الاساس الفكري الأول للخوارج كان هشاً تحيط به الشكوك عند بدء دعوتهم الى التحكيم ورفضه.

لقد استطاع الاباضية تكوين دولة على اساس مذهبهم الفقهي وقد استمرت دولتهم الى يومنا هذا فالمذهب الرسمي في عمان هو المذهب الاباضي كما أن هناك اتباعاً لهذا المذهب في شمال افريقيا، يعتبر عبد الله بن أباض المقاعسي المري التميمي من بني مرة بن عبيد بن مقاعس رأس الاباضية واليه ينسبون وقد عاش حتى زمان عبد الملك بن مروان وقد ذكرنا خروجه مع نافع بن الأزرق وغيره الى مكة ثم خلافه مع نافع بسبب مسألة تكفير المسلمين، اذ ان ابن اباض يرى انهم

كفار بالنعيم والأحكام وهم ليسوا بمشركين وحرّم دماءهم ولكن اموالهم حلال بعكس ابن الأزرقي الذي يرى انهم كفار كفر ملة ودين وأباح بذلك دماءهم، وكان ابن اباض اكثر مرونة واعتدالاً اذ كان يرى الاقامة بين ظهراي المسلمين ومناكرتهم وأكل ذبيحتهم والصلاة بامامة احدهم لذا فقد اطلق بقية الخوارج عليهم لقب القعدة لعدم خروجهم على الامام الظالم، وهناك اخبار متناقضة عن عبد الله بن اباض فقد ذكر انه خرج في ايام مروان بن محمد اخر الخلفاء الأمويين^(١)، كما ذكر عنه المقرئزي انه من غلاة المحكمة وانه خرج في أيام مروان ايضاً^(٢)، كما ذكر الشهرستاني مثل ذلك^(٣).

ويحدد الاشعري عقائدهم بقوله: (وجمهور الاباضية يتولّى المحكمة كلها الا من خرج ويزعمون ان مخالفهم من أهل الصلاة كفار وليس بمشركين حلال مناكرتهم وحلال غنيمة اموالهم من السلاح والكرّاع عند الحرب حرام ماوراء ذلك وحرام قتلهم وسبيهم في السر الا من دعا الى الشرك في دار التقيّه ودان به، وزعموا ان الدار - يعنون دار مخالفهم، دار توحيد الا عسكر السلطان فانه دار كفر عندهم^(٤)). وحكي عنهم انهم اجازوا شهادة مخالفهم على اوليائهم وحرّموا الاستعراض اذا خرجوا وحرّموا دماء مخالفهم حتى يدعّوهم الى دينهم فبرأت الخوارج منهم على ذلك وقالوا ان كل طاعة ايمان ودين وان مرتكبي الكبائر - موحدون وليسوا بمؤمنين^(٥).

ويذكر البغدادي^(٦) ان الأباضية افرقت الى أربع فرق هي الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب طاعة لايراد الله بها وقال ان اليزيدية منهم غلاة لقولهم بنسخ شريعة الاسلام في آخر الزمان كما ذكر الشهرستاني في الملل والنحل عن اليزيدية

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام ٤ / ١٨٤، عن هامش الأغاني ٧ / ٣٣٠.

(٢) المقرئزي، تاج العروس، مادة أبض.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل ١ / ١٣٤.

(٤) بحوث في الملل والنحل ٥ / ٢٢٢.

(٥) مقالات الاسلاميين - الأشعري ١٠٤ - ١٠٥.

(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق ١٠٣.

مثل ذلك.

اما الاباضية في عصرنا هذا فينكرون كونهم من الخوارج حتى وان اتفقوا معهم في بعض عقائدهم لأن الخوارج في رأيهم هم الذين يبيحون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرونهم وهم لايعتقدون هذا المبدأ وان مذهبهم اسسه عبد الله بن اباض وجابر بن زيد العماني وأنهم لا يختلفون عن بقية المسلمين الا في انكار التحكيم وان لفظة الخوارج اطلقت على اهل الردة بعد وفاة الرسول(ص) وان هذا اللقب اطلق على المحكمة والشرأة والحرورية بعد زمان الامام علي(ع) للتشنيع عليهم^(١).

ويصر كتابهم على ان هناك التباساً شديداً لدى الآخرين في معرفة أفكارهم وعقائدهم وينبغي معرفتها عن طريقهم وهذا القول فيه الكثير من الحق فلا يمكن اتهام شخص او مجموعة بعقائد ينكرونها، ومن خلال دراسة حركات الخوارج نرى ان عبد الله بن أباض كان من ضمن الذين أنكروا التحكيم ولكنه انكر الخروج بالسيف وانفصل بذلك عن الازارقة والتجدات وغيرهم من الفرق المتطرفة وإن عقيدة الاباضية قد تطورت وهذبت حتى اصبحت في عصرنا الحالي تختلف عما جاء به أوائلهم ولم يشهد المسلمون منهم خلافاً سوى بقائهم على بعض الاعتقادات التي تخالف بقية المسلمين كالبراءة من عثمان وعلي وتولي المحكمة وغيرها.

كان لانتقادات الخوارج الشريعة والأسباب داعية سبب في جعل المؤرخين يتوسعون في ذكر الفرق بدون أساس فكري خاص وغير عندما اختلف ابو فلوك وعطية الحنفي عن عدة نظريتهما فحين كما فعلوا مع الفرق التي اقامت على أساس عقيدة واحدة فقلنا بأن جوارها فرقة فالتمة بذاتها، وقد ذكر القروي في خطبة سنة عشرين فرقة كما ذكر الشهرستاني ثلثي فرق رئيسة لم يفسها إلى ثلثي عشر فرقة كما سألني، وذكر القروي اثنتي عشرة فرقة.

(١) بحوث في الملل والنحل ٥ / ٢٤٣ .

فرق الخوارج

قسم أرباب الملل والنحل الخوارج الى فرق عديدة وقد توسع البعض منهم كالشهرستاني في جعل كل من قال برأي يخالف رأي فرقته الاصلية فرقة قائمة بحالها كما فعل بالمذاهب الاسلامية الأخرى، كما لجأ آخرون الى جمع بعض هذه الفرق بفرقة واحدة كما فعل المبرد في الكامل اذ جمع بين الصفرية والنجدية لأنهم يقولون بقول الاباضية^(١).

ولقد كان لانقسامات الخوارج المستمرة ولأسباب واهية سبب في جعل المؤرخين يتوسعون في ذكر الفرق بدون اساس فكري خاص ومميز فعندما اختلف ابو فديك وعطية الحنفي عن نجدة نحلوهما فرقتين كما فعلوا مع الفرق التي اقامت على امامة نجدة بعد قتله بأن جعلوها فرقة قائمة بذاتها، وقد ذكر المقرئ في خططه ستاً وعشرين فرقة^(٢) كما ذكر الشهرستاني ثمانين فرق رئيسية ثم قسمها الى ثمانين عشر فرقة كما سيأتي، وذكر البغدادي اثنتين وعشرين فرقة.

(١) الكامل للمبرد ٢ / ٢١٤.

(٢) يخطط ٢ / ٢٥٤.

ان فرق الخوارج الرئيسية في بدء دعوتهم كما يجمع عليه المؤرخون هي:

- ١ - الأزارقة، وهم اتباع نافع بن الأزرق.
- ٢ - النجدية، اتباع نجدة بن عامر الحنفي.
- ٣ - الاباضية، اتباع عبد الله ابن اباض.
- ٤ - البيهسية، أصحاب ابي يهس واسمه الهيصم بن جابر.
- ٥ - الصفرية، أصحاب زياد بن الأصفر.

وفي الملل والنحل قسمهم الشهرستاني الى:

١ - المحكمة الأولى.

٢ - الازارقة.

٣ - النجدات.

٤ - البيهسية، ومنهم قوم يسمون العونية أو العوفية في اختلاف الرواية .

٥ - العجاردة وهؤلاء اصحاب عبد الكريم بن عجرد وقد انقسم اصحابه الى الصلتية والميمونية والحزمية والخلفية والاطرافية والشعبية والحازمية.

٦ - الثعالبية وهم اصحاب ثعلبة بن عامر وقد انقسموا الى الأخنسية والمعبدية والرشيديّة والشيبانية والمكرمية والمعلومية والمجهولية.

٧ - الاباضية ، وقد انقسموا الى الحفصية والحارثية واليزيدية.

٨ - الصفرية.

لقد انقرضت فرق الخوارج كلها فيما بعد ولم تبقى الا فرقة الاباضية التي ذكرها المؤرخون على انها من فرق الخوارج رغم ان أهل هذا المذهب ينكرون ذلك. ومن سياق الأحداث يبدو أن الاباضية كانوا من الخوارج إلا انهم وبمرور الزمن تقاربوا مع المذاهب الاسلامية الأخرى وهذا سرّ بقائهم من دون الفرق البائدة والدليل على ذلك انفرادهم بالتبري من عثمان وعلي وامور أخرى يختلفون فيها عن المذاهب الاسلامية وما زال القوم قد عدلوا عن عقائد الخوارج وتنصّلوا

منها فعلى دُعاة المسلمين ان يجادلوهم بالتي هي أحسن ليقوموا ما إعوج من آراء
حتى تجتمع هذه الأمة على خير.

والحمد لله رب العالمين.

الملاحق



مصادر الكتاب

الملاحق

- ١ - وقعة صفيين، لفر بن مزاحم النخعي، طبع سنة ١٢١١هـ، طبعته مكتبة المرعشي عن طبعته المؤسسة العربية، الطبعته الثانية ١٣٨٢هـ.
- ٢ - معالم الفن، سعيد أيوب، دار الغرب - ١٩٩٤.
- ٣ - النص والاجتهاد، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان.
- ٤ - الكامل في اللغة والأدب، أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمررد المتوفى سنة ٢٨٥هـ، طبعته مؤسسة المعارف بيروت.
- ٥ - تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، طبعته مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان.
- ٦ - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، طبعته دار العلم للملايين - بيروت، الطبعته الخامسة.
- ٧ - شرح نهج البلاغة، عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٦هـ، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٨ - مقاتل الطالبين، أبي الفرج الأسفهاني، منشورات الرضي - زاهد.

مصادر الكتاب

- ١ - وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري «ت سنة ٢١٢هـ»، طبعة مكتبة المرعشي عن طبعة المؤسسة العربية الحديثة - الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ .
- ٢ - معالم الفتن، سعيد أيوب، دار الكرام - ١٩٩٤ .
- ٣ - النص والاجتهاد، الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان.
- ٤ - الكامل في اللغة والأدب، ابي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد المتوفي سنة ٢٨٥هـ، طبعة مؤسسة المعارف بيروت.
- ٥ - تأريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، طبعة مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان.
- ٦ - تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بروكلمان، طبعة دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة .
- ٧ - شرح نهج البلاغة، عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المتوفي سنة ٦٥٦هـ، دار احياء التراث العربي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
- ٨ - مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، منشورات الرضي - زاهدي.

- ٩ - الامامة والسياسة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفي ٢٧٦هـ، تحقيق الاستاذ علي شيري، منشورات الشريف الرضي.
- ١٠ - الكامل في التاريخ: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر - بيروت .
- ١١ - بحوث في الملل والنحل، الشيخ جعفر السبحاني، طبع مركز مديرية حوزة قوم.
- ١٢ - المختار من حماسة أبي تمام، مطبع ببيلي، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨ م .
- ١٣ - نهج البلاغة، الامام محمد عبده، طبعة مصر.
- ١٤ - مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني المتوفي ٥٨٨هـ، المطبعة العلمية قم - ايران، تحقيق محمد سيد كيلاني.
- ١٥ - الملل والنحل ج ١، الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، المتوفي سنة ٥٤٧هـ، دار المعرفة بيروت .
- ١٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي المتوفي عام ٣٤٦هـ ، مؤسسة دار الهجرة.
- ١٧ - ثورة العبيد في الاسلام، أحمد علي، دار الآداب بيروت.
- ١٨ - ثورة الزنج: الدكتور فيصل السامر، دار القارئ ، بغداد طبعة سنة ١٩٥٤.
- ١٩ - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني علي ابن الحسين المتوفي سنة ٣٥٦هـ، دار احياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٠ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ،

دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨م.

٢١ - السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري المتوفي ٢١٣ أو ٢١٨، دار التراث العربي - بيروت .

٢٢ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري المتوفي سنة ٢٦١هـ، دار احياء التراث العربي.

٢٣ - الغارات، ابن هلال الثقفي المتوفي سنة ٢٨٣هـ، دار الكتاب الاسلامي، قم .

٢٤ - الاباضية بين الفرق الاسلامية، علي يحيى معمر، عمان ١٤٠٦هـ .
٢٥ - الخوارج في العصر الأموي، الدكتور نايف معروف، دار الطليعة - بيروت ١٤٠١هـ .

٢٦ - السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري المعروف بابن هشام المتوفي سنة ٢١٣ أو ٢١٨، دار التراث العربي - بيروت .

٢ - نهر تيزي : بلد من نواحي الأحواز. (ص ١١٠)

٣ - نصيف : مدينة عابرة من بلاد الجزيرة على جادة التوافل من الموصل الى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل مئة ايام. (ص ١٣٤، ١٤٩، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٦، ١٨٦)

٤ - نيسابور : وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، تقع بين جرجان الى القادسية، ومن الرى نيسابور مستون (ص ١٧٠) *

٥ - جوز : قرية من قرى نيسابور. (ص ١١٧)

٦ - جي : اسم مدينة ناحية اصبهان القديمة وتسمى الان شهرستان. (ص ١١٧)

٧ - جرجان : مدينة بكرمان، وهي مدينة كبيرة فيها خيران. (ص ١٢٨، ١٥١)

فهرست المدن والمواضع

- ١ - نجران : نجران في عدة مواضع منها في مخاليف اليمن من ناحية مكة ونجران ايضاً موضع بالبحرين وايضاً موضع بحوران من نواحي دمشق والمقصود هنا نجران اليمن. (ص ١٠٨) .
- ٢ - نهر تيري : بلد من نواحي الأحواز. (ص ١١٠)
- ٣ - نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة ايام. (ص ١٣٤، ١٤٩، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٦، ١٨٦) .
- ٤ - نيسابور : وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، تقع ما بين جيحون الى القادسية، ومن الري الى نيسابور مائة وستون فرسخ. (ص ١٧٠) .
- ٥ - جوبر : قرية من قرى نيسابور. (ص ١١٧) .
- ٦ - جي : اسم مدينة ناحية اصبهان القديمة وتسمى الان شهرستان. (ص ١١٧)
- ٧ - جيرفت : مدينة بكرمان، وهي مدينة كبيرة فيها خيران. (ص ١٢٨، ١٥١)

- ٨ - الجزيرة : (ص ١٢، ٦٠، ٩٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٦)
- ٩ - جلولا: في طريق خراسان من بغداد بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وبها نهر عظيم يمتد الى بعقوبة. (ص ١٣٤)
- ١٠ - جوخي: ورد في المعجم هكذا (جوخا) وليس جوخي وهو اسم نهر عليه كوره واسعة في سواد بغداد وهو بين خانقين وخوزستان. (ص ١٣٥)
- ١١ - خبر : موضع على ستة أميال من مسجد سعد بن أبي وقاص وايضاً علم لبليدة قرب شيراز من ارض فارس.
- ١٢ - خراسان : بلاد واسعة حدودها مما يلي العراق واخر حدودها مما يلي الهند. (ص ٨٩، ٩٤، ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨)
- ١٣ - الخط : بفتح الخاء موضع في سيف البحرين وعمان ومن قرى الخط القطيف. (ص ١٠٧)
- ١٤ - البصرة: وهما بصرتان العظمى في العراق وهي المقصودة وأخرى بالمغرب في اقصاها قرب السوس. (ص ١٣، ٤٤، ٥٠، ٥٦، ٦٤، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٦، ١٥٠، ١٥٩، ١٧٠، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٥)
- ١٥ - باذغيس : ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الدوز قصبتهما بون وبامئين بلدتان متقاربتان. (ص ١٦٤، ١٦٩)
- ١٦ - بلد: مدينة قديمة على دجلة جنوب الموصل، وهي أقرب الى بغداد. (ص ١٦٥، ١٧٧)
- ١٧ - النهروان: وهي ثلاثة نهروانات: الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة

- واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها متصل ببغداد. (ص ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٥٥، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٨٥، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ١٣٥، ١٩٠، ١٩١)
- ١٨ - النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام. (ص ٤٤، ٧١، ١٢٤)
- ١٩ - الأنبار: مدينة غربي بغداد على الطريق الى الشام. (ص ٤٤، ٤٥، ٦٢، ٧٢)
- ٢٠ - البحرين: (ص ٩١، ٩٩، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١٤٣، ١٥٠، ١٨١)
- ٢١ - البطائح: أرض واسعة بين واسط والبصرة. (وهي منطقة الأهوار المعروفة في جنوب العراق). (ص ١٨٢)
- ٢٢ - بهر سير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، احدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن وهي في غرب دجلة. (ص ٩٠)
- ٢٣ - بادوريا: من كور الاستان بالجانب الغربي من بغداد، وهي اليوم محسوبة من كورة نهر عيسى بن علي (في زمن تأليف معجم البلدان) ومنها النحاسية والحارثية ونهر ارما وفي طرفه بني بعض بغداد. (ص ٩٠)
- ٢٤ - بانيقيا: ناحيه من نواحي الكوفة. (ص ٩٣)
- ٢٥ - طبرستان: وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الأسم مجاورة لجليلان وديلمان وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل. (ص ٤٥، ١٢٨)
- ٢٦ - مسكن: موضع قريب من اوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق) في وسط العراق. (ص ٩٢، ١٢٠)
- ٢٧ - البردان: أحد النهروانات، عليه قنطرة ثدي البردان. (ص ٤٥)
- ٢٨ - اذرح : اسم بلد في اطراف الشام من أعمال الشراه ثم من نواحي البلقاء وعمان، مجاورة لأرض الحجاز. (ص ٢٩)
- ٢٧ - اصفهان: مدينة بأرض فارس، وهي مدينة عظيمة جداً من أعلام المدن، وهي من نواحي الجبل. (ص ١١٦، ١١٧)

- ٢٩ - اصطخر: بلدة بفارس وهي من اعيان حصون فارس ومدنها. (ص ١١٦)
- ٣٠ - أرمينية: اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال. (ص ١٦٥)
- ٣١ - أرجان: مدينة كبيرة، برية، بحرية، سهلية، جبلية، بينها وبين شيراز ستون فرسخاً، وبين سوق الأهواز ستون فرسخاً. (ص ٩٤، ١٦٤)
- ٣٢ - آذربيجان: اقليم واسع مشهور، يتصل حدها من ناحية الشمال ببلاد الديلم والجبل. (ص ١٣٥، ١٣٦)
- ٣٣ - آمد: وهي من أعظم مدن ديار بكر على نشز دجلة. (ص ١٣٤، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٦)
- ٣٤ - آسك: وهي بلد من نواحي الأهواز، قرب أرجان، بينها وبين رامهرمز. (ص ٩٤، ٩٥)
- ٣٥ - خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ. (ص ١٧٤، ١٩٤، ١٩٥)
- ٣٦ - خلاط: هي من الجزيرة، قصبة ارمينية الوسطى. (ص ١٦٤)
- ٣٧ - حروراء: قيل هي موضع بضاهر الكوفة وقيل على جبلين منها. (ص ٣٧، ٣٨، ٤١، ٥٢، ١٩٤)
- ٣٨ - الحديبية: وهي قرية متوسطة سميت بيئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع الرسول (ص) تحتها. (ص ٤٩)
- ٣٩ - الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف (وهي الان قرب النجف المعروفة). (ص ٩٠، ١٤٥، ١٤٨)
- ٤٠ - حولايا: قرية كانت بنواحي النهروان. (ص ١٣٧، ١٧٠)
- ٤١ - حلوان: مدينة كبيرة بالعراق قريبة الى جلولاء (وهي الان ضمن الأراضي الايرانية). (ص ١٤٨، ١٧٣)

- ٤٢ - سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان الكبيره. (ص ١٥١)
- ٤٣ - سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة، بينها وبين هراة عشرة أيام. (ص ٨٩، ١٦٤)
- ٤٤ - سولاف: قرية في غربي دجيل من ارض خوزستان. (ص ١١٥)
- ٤٥ - السوس: بلدة بخوزستان فيها قبر النبي دانيال عليه السلام. (ص ١١٧)
- ٤٦ - سلي وسلبري: وهي جبل بمناذر من أعمال الأهواز من نواحي خوزستان قرب جند سابور. (ص ١١٦)
- ٤٧ - سابور: وهي بلدة بين خوزستان واصبهان. (ص ١٢٧)
- ٤٨ - السن: مدينة على دجلة فوق تكريت. (ص ١٥٠)
- ٤٩ - سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. (ص ١٧٦)
- ٥٠ - سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طريق بلاد السودان. (ص ١٨٧)
- ٥١ - مناذر: وهما بلدتان بنواحي خوزستان: مناذر الكبرى ومناذر الصغرى. (ص ١١٥، ١٤٥)
- ٥٢ - مرج القلعة: بينه وبين حلوان منزل وهو من حلوان الى جهة همذان. (ص ١٦٩)
- ٥٣ - ماردین: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنسير ودارا ونصيبين. (ص ١٧٧)
- ٥٤ - القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً. (ص ٨٥)
- ٥٥ - قومس: وهي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي في ذيل جبل طبرستان، تقع بين الري ونيسابور. (ص ١٢٩، ١٤٨)
- ٥٦ - قديد: موضع قرب مكة. (ص ١٥٣، ١٥٤)

- ٥٧ - قنسرين: مدينة كانت هي وحمص شيئاً واحداً. (ص ١٦٣)
- ٥٨ - اليمامة: في نجد بينها وبين البحرين عشرة أيام. (ص ٩٩، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١٣٢، ١٤٣)
- ٥٩ - الكوفة: المشهورة بأرض بابل من سواد العراق: ص ٩، ٢٧، ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٧١، ٧٣، ٨٣، ٨٤، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٨، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٨، ١٧٠، ١٨١)
- ٦٠ - كرمان: وهي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة بين فارس ومكران غربيها أرض فارس وشمالها مفازة خراسان. (ص ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٧، ١٣٨، ١٥١)
- ٦١ - كازرون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. (ص ١٢٧)
- ٦٢ - الكحيل: موضع بالجزيرة، مدينة عظيمة على دجلة بين الزاين فوق تكريت من الجانب الغربي. (ص ١٤٤)
- ٦٣ - عين التمر، بلدة قرية من الأنبار غربي الكوفة. (ص ٦٢)
- ٦٤ - المدائن: اسم المدائن بالفارسية توسفون وانما سميتها العرب المدائن لأنها سبع مدن وهي الان بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ (وفيها قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي «رض»). (ص ٧٢، ٨٣، ٩٠، ٩١، ١١٧، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧)
- ٦٥ - الري: وهي مدينة مشهورة من امهات البلاد تقع على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً. (ص ١٨١)
- ٦٦ - الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. (ص ١٨، ١٨٥)

- ٦٧ - تاهرت، اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب بينهما وبين المسيل ست مراحل. (ص ١٨٧)
- ٦٨ - عمان: اسم كورة عرييه على ساحل بحر اليمن والهند. (ص ١٧٨، ١٨٦، ١٩٩)
- ٦٩ - السراه: الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن. (ص ١٠٨)
- ٧٠ - فارس: ولاية واسعة اول حدودها من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل البحر بحر الهند سيراتو ومن جهة السند مكران. (ص ٢١، ١٦٩)
- ٧١ - المديج: قرية مايين الموصل والعراق. (ص ١٣٤)
- ٧٢ - همدان: وهي أكبر مدينة بالجبال. (ص ٥٣، ١٤٨)
- ٧٣ - هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار. (ص ١٦٥)
- ٧٤ - ماسبذان: وهي عدة مدن بالقرب من حلوان. (ص ٧٢)
- ٧٥ - درزنجان: قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربي منها. (ص ٧٢)
- ٧٦ - دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ. (ص ١١٠)
- ٧٧ - داربجرد: قرية من كورة اصطخر، وايضاً موضع في نيسابور.
- ٧٨ - دارا: بلدة بين نصيبين وماردين. (ص ١٣٣، ١٣٤، ١٦٤)
- ٧٩ - الدسكرة: قرية كبيرة غربي بغداد والدسكرة ايضاً قرية في طريق خراسان. (ص ٧٢، ١٣٤، ١٦٣)
- ٨٠ - ديار بكر: وهي بلاد واسعة كبيرة وحدها ماغرب من دجله الى بلاد الجبل المطل على نصيبين. (ص ١٦٣)
- ٨١ - ديار مضر: وهي ماكان في السهل بقرب قرى الشام وقيل من قرى الجزيرة. (ص ١٨٥)

- ٨٢ - البوازيغ: بلدة قرب تكريت على فم الزاب الأسفل. (ص ١٧٤)
- ٨٣ - ورزنين: من أعيان قرى الري. (ص ١٨١)
- ٨٤ - هجر: مدينة وهي قاعدة البحرين. (ص ١٨٢)
- ٨٥ - الإحساء: في البادية احساءات كثيرة منها احساء القطيف (وهي المقصودة) والاحساء مدينة بالبحرين. (ص ١٨١)
- ٨٦ - رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان. (ص ٩٤، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٧)
- ٨٧ - رستقباد: وهي من أرض دستوا. (ص ١٢٥)
- ٨٨ - الصرارة: وهو نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها الحمول. (ص ٩٠، ١٤٩)
- ٨٩ - صنعاء: صنعاء اليمن. (ص ١٧٨)
- ٩٠ - الأهواز: اسم لكورة باسرها تقع بين البصرة وفارس. (ص ٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧)
- ٩١ - تباله: بلدة مشهورة في طريق اليمن. (ص ٢٧)
- ٩٢ - تكريت: بلدة بين بغداد والموصل بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً. (ص ١٣٥، ١٦٥)



هذا الكتاب

بحاول كتاب جذور الشبهات تفصي حركة الخوارج، أسبابها، اجتihadاتها، والتغيرات التي طرأت عليها، ويؤرخ للأحداث المهمة التي كان للخوارج فيها دوراً واضحاً، وللشخصيات البارزة في هذه الحركة. تعتبر حركة الخوارج من أهم وأخطر الحركات في الصدر الأول للإسلام ويبدو تأثيرها في تطور الحكم الإسلامي واضحاً واستمرت هذه الحركة في مقاومتها حتى وقت متأخر من تاريخ الدولة العباسية وامتدت أفكار الخوارج لتشمل معظم الأقطار الإسلامية واستطاعت في عدة مراحل أن تؤسس دولة في شبه الجزيرة العربية وفي شمال إفريقيا ومن هنا تبرز أهمية التاريخ الحقيقي للخوارج لأن التاريخ سيظل مدرسة مفتوحة للتعليم.

رفع الخوارج شعار محاربة (الامام الجائر) والخروج عليه بالسيف، بعد أن تم اغتيال الامام علي (ع) على أيديهم وتولي معاوية السلطنة، وكانوا يد الدهر خارجين على السلطان، ولقد اختلف المسلمون في موضوع الامام الجائر والخروج عليه أو اطاعته وقد انعكس هذا الخلاف - الذي كان نابعاً عن عوامل عديدة - على حياة الأمة الإسلامية حتى يومنا هذا، فالخوارج يرون - من خلال مقالات مجتهدهم - الخروج على الامام الجائر بالسيف وجعلوا الخروج فرعاً من الأمر بالعروف والنهي عن المنكر.

لقد اتبع الخوارج أسلوبهم الخاص وخبطوها خبط عشواء وكانوا كحاصب ليل فقد أخذوا البريء بالذنب - كما فعل الولاة الذين حاربوهم - وتطرقوا الى ابعاد الحدود فاستحلوا قتل النساء والصبيان واعتبروا - في معظمهم - جمهور المسلمين كفرة لايقبل منهم سوى الاسلام (على رأي الخوارج).

وكان تطرف الخوارج سبباً في النهاية لاضمحلالهم ونهايتهم كحركة فكرية إذا استثنينا فرقة الاباضية.